رواية

كُمُونْ

نبيلة الوليدي

دار البشير للثقافة والعلوم

الطبعة الأولى

1439 هـ

2018 م

اسم الكتاب: كُمُونْ

التأليف: نبيلة الوليدي

موضوع الكتاب: رواية

عدد الصفحات: 304 صفحات

عدد الملازم: 19 ملزمة

مقاس الكتاب: 14x20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2017 / 27385

الترقيم الدولي: 7 - 652 - 278 - 977 - 978

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com

01152806533 - 01012355714

المرأة أقرب الكائنات إلى الكمال.. إنّها وسط بين الرجل، والملاك..!

«بلزاك»

كاميليا...

أنا الآن أقطعُ الشارع الرئيسي الذي يفصل بين حي الزهور الذي أسكن فيه وحي المنارة؛ حيث يقع مقهى سرور، بالقرب من سكن الطّلاب التابع للجامعة.

رذاذُ مطر يلامس وجهي، يبرّد خدودي الملتهبة من مخاوف دنو اللقاء. فتاةٌ صغيرة تبيع باقات الفلّ وأطواق الياسمين، تلحق بي.. توقفت، تأمّلتها.. سمراءُ نحيلة، شحوبٌ يصبغ وجهَها بلفحة بؤس كالحة!

أخذت تلحّ عليّ لأشتري منها طوقَ ياسمين، رفعت يدَها للهواء، تلوّح ببضاعتها أمامي. أزكمتْ رائحة الياسمين النفّاذة أنفي.. أنا لا أحبّ رائحة الياسمين، بل أفضّل شذى الفلّ اللّطيف.

مددتُ يدي، تناولت باقة فلّ جميلة.. اشتمَمْتها.. قلّبتها.. عجبت، كيف نظمَتْها تلك البائعةُ الصغيرة بمهارة ودقة وإبداع على أعوادِ ساج رقيقة حتى غدتْ أشبه بزهرةٍ خرافية ضخمة؟!

أعطيتُ البائعة ورقةً نقديّة كبيرة، تساوي ثمن كلّ ما تحمله من زهور. رمتني بنظرةِ ارتياب وتشكّك قبل أن تشرقَ على وجهها ابتسامةُ فوز واسعة، بعدما تيقّنت بأني قصدتُ منحَها هذه الورقة. دسّت الفتاة الورقةَ في جيبها.. مضت من أمامي راكضةً لتلحق برفيقاتها، وهي تكادُ تطير من شدّة الفرح. جعلني ذلك أشعرُ ببعض التّحسن.. ترى هل نفعل الخيرَ لنسعد الآخرين، أم لنسعدَ أنفسنا؟!

في صبيحة يوم ندي كهذا- قبل ما يقارب ثلاث سنوات- كان آخرُ لقاء جمعني بحبيبي غسّان، الذي ابتعدتُ عنه رغمًا عني.. هجرتُه مكرهة.

بالأمس، قرّرت أن نلتقي عندما كتبتُ له في خانة الدردشة:

ـ سنلتقي غدًا.

كان ردّه استثنائيًّا مثله. في البدء، أخذه العجبُ فأرسل وجوهًا مندهشة كبيرة، ازدحمت بها خانةُ الدردشة.. لم يكتب حرفًا واحدًا.. قابل قراري المباغِت والغيرَ متوقّع بسكوتٍ طويل أرهبني.. وبعدها خطّ ضحكاتِ فرحٍ مجنون!

في واقع الأمر، أنا لم أشعر بوجعِ الفقْد بشدّة عقبَ فراقنا.. العالم الافتراضي الذي يجمعنا كلّ ليلة جَسّد لي جزيرةَ التقاء وهميّة طالما استعذبتُ المكث فيها.

كما أنّ شطحات الخيال الرائعة، جعلتْه بين أحضاني وفي مقلتيّ معظم الوقت. كلّ شيء يمتّ للخيال بصِلَة يكون في الغالب عذبًا ومدغدغًا ولذيذًا!

الجانبُ الخيالي من تفكيري يؤرّق الجزءَ الأيسر من دماغي ويُرْبكه. أحسّ في أوقاتٍ عديدة بأنّي مستعدّة للتنعّم بعالمِ مِن الخيال يمتدّ طوالَ العمر.

هل يبدو هذا عرضًا لمرض نفسي؟ ربما.. لكنْ مهلًا؛ أنا لن أروي لكم حكايةَ شابّة معتلّة نفسيًّا. لا..لا.. سيكون ذلك مملًّا ومحبطًا.!

لا أنكرُ بأني احتجتُ لرعاية نفسية لبعض الوقت. كلّ البشر الذين أعرفهم يكرهونَ التحدّث عن هكذا تجربة.. أنا أيضًا لا أحبّذ الصراحة في هذا الجانب، ليس لأني أرى الحاجةَ لزيارة عيادة نفسيّة أمرًا مُشينًا؛ لكنها العدوى النفسيّة ليس أكثر.

كان خضوعي للعلاج النفسي ضروريًّا لأجتاز برزخَ العبور من عالم غريب عني وقعتُ أسيرةً فيه لزمن، بحكم قدر مؤلم، هو الأشدّ صعوبة في كلّ ما عاصرته من أحداث في هذه الحياة. لكنني، بفضلِ الله تعالى، وبقوّة إرادتي، وبفضل الدّعم الأسري والنفسي الذي حصلتُ عليه؛ عبرته بنجاح.

توثّبت بعد عبور ذلك البرزخ، نافضةً عني ركام المِحنة، وسرعان ما وضعت قدمي ثابتةً راضية على صفحة مغايرة من صفحات عمري. واجهت كلّ تقلّبات العمر بشجاعة.. شعرتُ بأني نضجت بتسارع مَهول.. الحياة تضفي علينا صبغةً من لونٍ ما، بعد كلّ منعطف تغيير نمرّ به، هذه المرّة وهبتني قوةً ناعمة.

كلّ مرّة أقف فيها أمامَ المرآة أتأمل وجهي بملمَحه الجديد، يملؤني شعور بالزّهو والإعجاب لأنّي لم أنكسر، بل أصررتُ على تجاوز الماضي، والبدء بأملٍ وتفاؤل في مسيرة حياتي المقبلة، مع مفردات عالم يناسبني.

الصورةُ الذهنية المتشكّلة لدي عن ذاتي جيدة.. أراني إنسانة متميزة.. ملامحي جميلة، لاسيّما بعد العملية التي أجريتها لأنفي الذي كان معوجًّا!

ثمّ إنّني إنسانة نقيّة من الداخل، رقيقة الشعور، بل في منتهى اللطف والطّيبة والجَمال الروحي. على الأقل، هذا حكمي على المربعات الثلاث المَعلومة لديّ عن خريطة كياني، ويبقى دومًا ذلك المربع الأخير المظلم مصدرَ رعبٍ كبير لي.

عرفتُ بوجوده في إحدى محاضرات علم النفس، حين أخبرنا الدكتور سعيد بأنّه في أعماق كلّ إنسان يوجد صندوقٌ محكَم الغلق..

مُبهم.. مظلم.. يحتوي على ما نجهلُه عن أنفسنا وما يجهلُه الآخرون عنّا. يومها تسمرّت عيناي على شفتي الدكتور وأنا جدُّ مُندهشة. حاولت تخيّل كيف تكون هذه البؤرة المغلقة بالغموض، ما الذي تحويه من خفايا؟

هجست بذهول:

مَن العبقري الذي اكتشفها؟ هل تبقى منطقةً مجهولة لنا حتى النهاية؟!

لم أعثرْ على إجابات.. أدركت بأنّ السؤال الأخير سيبقى لغزًا محيّرًا. ربما للأبد!

لا يهمّ، يكفي بأني أدركت حقيقةً مذهلة عن النفس البشرية كانت غائبة عني، بعدها، صرت أتتبّع كلّ شيء كُتب عن هذا الصندوق، هذه البؤرة المرعبة قدْ تتسبّب في إحداثِ تغييرات هائلة في حياة الإنسان، أحيانًا تباغتنا بمفاجآتٍ غير سارة، تقذف ببقعة متفحّمة من الكآبة، فيسودُ وجه الحياة، أو قطرة قبح، تلطخ بها بقية الأجزاء، يحدث ذلك في لحظةِ ضعف.. تنمُّر للذّات البهيمية.. غلبة لشيطاننا. على حين غرّة تزلّ قدمُ الإنسان، يجد نفسَه قد وقع دونَ سابق إنذار في قبائح لا تليق، عندها يركع أعْقلنا في محراب الاعتراف بضعفِه وحاجته الأزليّة لمددٍ من ربّ خبير.

يتحسّر.. يتألم.. يندم.. يقرّ بذنبه؛ فيسارع لطلب العفو والغفران. يجزعُ من رائحة الذنوب.. يسعى للتطهّر، يركض إلى ربّه تائبًا.. يمرّغ وجهه على التراب.. يتزلّف.. يطيل السجود، يقترب، يستمطر اللطيف غيثَ الرضا،

والبعض الآخر يحمله الكِبر على النكران، يرفض الإقرار بوجود هذا الصّندوق الغامض المخيف. يعيش بأكذوبةٍ كبرى، ويمضي بقية عمره يقضمُ في الخفاء رغيفَ بؤسه اليابس!

وثمّة صنف ثالث يستعذبُ التجربة، يستمرئ الخطيئة، يغرق في القبح إلى ما لا نهاية!

يبدو أني ذهبت بكم بعيدًا عن صلب الموضوع، سحتُ بكم عبْر متاهة نفسيّة.. فلسفية!

سأعود إلى حيثُ ابتدأت، سوف أقصّ عليكم تفاصيل حكايتي الفريدة..

أراها كذلك لأنّها تحطّم حاجز الخوف، تتمرّد على أميّة الفكر البشري، تتجرّأ وتشهرُ ريشة مسنّنة، تجرّد بها جانبًا شائكًا من سيرة الإنسانية على هذه الأرض، وتخطّ سطور محْنة مؤلمة، قلّما يتحدّث عنها البشر، لاسيّما أولئك الذين تعرفونهم.

قد تروْن حكايتي هذه أشدّ شبهًا ببنات فكرِ مؤلّفٍ مجنون بعشقِه لشطحات الخيال العذب، وقدْ تروْنها سِفرَ اعتراف، يحوي صورًا مدهشة، شبيهة بواقع بني البشر عمومًا، وأشدّ شبهًا بتلك الجوانب الخفيّة الذي يتجنبون الخوض فيها.

سواء وجدتُم في ما سأقصّه عليكم شيئًا يُشبه صفحة من حياتكم، أمورًا تضحكُكُم، تمتّعكم، أمْ غير ذلك؛ فالشيء الذي يشعرني بالراحة ويدفعني للاستمرار في البوح هو أنّي سأرفع بحكايتي هذه صوتَ فئةٍ مهمّشة.

قصة حبّي لغسان ليست البداية، البداية كانت عند مولدي.. بل عند تكويني وأنا في بطنِ أمي، لكنّي تفاعلت مع واقعي بقوة بعد أن دخل غسّان إلى حياتي.

مع أول خفقة حبّ لغسّان اهتزّ لها قلبي بدأ الموقف يختلف، وجدتني أصارعُ بشجاعة أشدَّ عواصف تيهي عن ذاتي، أجدّف بلا مجداف دون أن أخشى الغرق.

حبّي له جعلني أتقبّل قدري بعمق، رغمَ أنّي أتحرك بين الناس بشخصية ليستْ محبّذة لي، شخصية يحبّها كلّ مَن يعرفها. وحدي فحسب مَن يستوحشُ منها؛ لإدراكي بواقعها الخفيّ الممضّ، المحيّر.

كانوا يروْن فيّ أنموذجًا للصّديق المخلص الكَتوم، صندوق الأسرار، الكلّ تنحلّ عقدة لسانه بعد الدقائق الأولى من جلوسِه بقربي، طالما عجبت لذلك؛ لأنّي لا أفعله مطلقًا مع أيّ إنسان..

في الحقيقة، شعرت طوالَ مراحل عمري بأنّي مختلفة، أرى البشر غريبي الأطوار في معظم أوقاتهم وأغلب أحوالهم، ربّما لأجل ذلك كنت أصغي باهتمام للدكتور «سعيد» أستاذ علم النفس في سنة أولى جامعة، وهو يردّد عبارة:

« كلّنا على سلم الجنون».. توهّمت مرارًا بأنّ الدكتور سعيد يقف على حافّة ذلك السلّم المهووس بالحديث عنه.

لا أخفيكم سرًّا بأنّي من كثرة ما كان يردّدها، كأنّها حقيقة كاملة؛ صرت أتشكّك أني وكثيرٌ ممّن حولي قد بلغنا منتصف ذلك السلم!

برغم كلّ ذلك التّيه والصراع الداخلي الصامت، كنت مفضلة لدى الكثيرينَ ممّن عرفتهم، أحببتُ غسّان في تلك المرحلة الحرجة من حياتي، في خضم رحلة خروجي من شرنقة العرف القاسي، هل هي مصادفة حلوة أم مُرّة، ظهور غسّان في حياتي حينما كنت أبدّل جلدي بوجع مكتوم؟

الأمرُ الأكيد هو أنّ وجودَه في حياتي شكّل عاملَ تغيير كبير، وبرغم قربه الشديد مني؛ لم يشعر بشيء ممّا يحدث لي، وهذا أمر جيد. المؤلمُ

حقًّا في كلّ ما حدث لي، هو أنّني وبعد أن حدّدت هويتي، وصرت أنا بحقيقتي المجرّدة عن الخوف والتستّر، غدوت غريبةً عن البشر. تسكنني وحشة منهم، كم أرهب سردَ ما حدثَ لي على مسامعهم، وأجتهدُ كيلا يعرفوا بما حدث لي؛ خشية أن أثيرَ في نفوسهم مشاعرَ مقزّزة، أنا لا أتوهّم ولا أبالغ.. رأيت ذلك في أعينِ بعض القريبين مني، لذا جبُنت عن الاعتراف لغسّان بحقيقة ما جرى لي.

حصلتُ على إعجاب الكثير من الناس حينما كنت أتصنّع لأخفي سرًّا ثقيلًا، يكلّ من حمْله الجبلُ العظيم، ترى هل كانت قدرتي على كتمان سرّي هي سببَ نجاحي في الحصول على ثقتهم بأسرع وقت، وهل كان استغنائي عن صحبتهم سببَ سعيهم الحثيث للفوز بصحبتي؟!

ربّما تتساءلون: هل أحببت غسّان من النظرة الأولى؟

هذا هو ما حدث على وجْه التحديد.. أنا مؤمنة بالحب من أول نظرة؛ لأنّه قرارٌ تتّخذه قوى ما فوق الملموس.. الأرواح تلتقي، تربط شبكة وشائج خفيّة في مساحات فيزيقية مهيمنة.. في خانات اللاوعي تتمّ عمليات دقيقة بشفرات لا سلطة للمنطق عليها.. تسخن الشعور.. تنضجُ العلاقة.. يحدث التّزاوج النفسي بين الطرفين رغماً عنهما.

لا ينفلت أيّ شخص من هذا التّخطيط القدري بيسر.. يقع البعض في الكثير من المتاعب بسببِ هذه العملية العصيّة على التفسيرات

العلمية، لكن تبقى ثمّة أمور لا يختلف عليها اثنان، وهجُ الإعجاب.. لذعةُ المتعة.. الدغدغةُ المدهشة.. الانجذابُ الشيق.. اللهفةُ الفياضة.. الشّوق المتدفق.. الدافعُ لتكرار اللّقاء.. الرّغبة في مزيدٍ من الاقتراب.. الخيال الجامح اللّذيذ!!

واااوو!!، كلّ ذلك حدثَ لي بعد أول لقاءٍ جمعني بغسّان!

جاء مِن بلدتهم لينضمّ للمجموعة التي كنتُ أشاطرها حجرةَ نوم في سكن الطّلاب التابع للجامعة، والذي اضطررتُ للإقامة فيه تحتَ ضغط وإلحاح من والدتي، بعدما قرّرت هي وأبي السفرَ لمرافقة شقيقتي الأكبر مني شهيرة في رحلةٍ دراسية طويلة امتدّت لسنوات، بعد أن حصلت شهيرة على منحة لدراسة الطب في جامعة ألمانية ببرلين.

أنا آخر مَن أنجبته أمي بعد ثلاثِ فتيات، هل هي هبةٌ أمِ امتحان أنْ تكون أصغر الجميع في تسلسل أفراد أخوتك!

سؤالٌ فلسفي، لا تحدث الإجابة عليه فرقًا، فليسَ لأحدٍ منّا اختيار موقعه في هذا التسلسل، أنا شخصيًّا وجدتُ في هذا الترتيب هبةً خفيّة، أصبحت قوية الشكيمة برغم هدوئي، كنت مضطرةً طوالَ الوقت لخوض غمار معارك طفوليّة معهنّ لأفوز بحصّة أكثر من النقود. ساعات مشاهدة أطول للتلفاز، مساحات لعب أوسع، أكبر قطعة لحم

محمّرة نضيجة.. مقدار كافٍ من الجبن، الحليب، الشوكلا، الفوز باهتمام أكبرَ من والديّ!

في الواقع، كنت سعيدةً في مرحلة طفولتي المبكرة، حظيتُ بأسرة منفتحة على الحياة.. عادلة في الحكم على الآخر والتعامل معه، تتقبّل سمات الأنوثة برحابةِ صدرٍ وحبّ ورضا، لا يوجد تمْييز نوعي ظالم بين الذّكورة والأنوثة في أسرتي. أبي نموذجُ الرجلِ المُحبّ المهتمّ المرن المُحتوي، يمنح أمي كلّ الاحترام والتصديق، هو يراها أنموذجًا للمرأة الشجاعة، والزوجة الرائعة المقدرة الحنون، وأمي تمنحُه الحبّ والإعجاب والتقدير، شقيقاتي الثلاث فتيات جادّات، مُنهمكات في التحصيل العلمي، ومُهتمّات بتفوقي الدراسي، وبالتزامي بأدبيّات الخلق الرفيع، وفوق ذلك هنّ رحيمات بي، ولطيفات معي للغاية.

كلّ هذا جعل معاناتي محدودةً داخل إطار عائلتي، حتى بعد أن بدأت معالم مُشكلتي المُعضلة تتضخّم وتبرز لهم جميعًا، كان سري يثقلُ كاهلي مع الآخرين فحسب.

سأرجع بكم لتفاصيل قصّة حبي لغسّان، هي الجزء الأجمل والأكثر عذوبة في حياتي!

حينما شعرت بكائنِ الحبّ الجميل يرفّ بين جوانحي، وبدأ شعور الولع يلهبُ قلبي، وصرت مُنجذبة لغسّان بكلّ جوارحي، ذعرت،

تجاهلت، أنكرت، قاومت هذا الشعور الطاغي؛ لكني كنت أنهزمُ أمام سطوته المرّة تلوَ المرّة. بعدها صرت فزعةً ممّا أحسّه تجاه غسّان، خجلت طويلًا من غرقي في طوفان التفكير به بصورٍ لا تليق، جلدني إحساسٌ بالذنب، بكيت عندما أدركتُ في لحظة مكاشفة صادقةٍ مع ذاتي بأنّي أعشق غسّان حتى النخاع.

كان غسّان أكبرَ فردٍ في المجموعة التي أشاركها حجرة النوم في سكن الجامعة، كنّا خمسة زملاء، جميعُنا في أوّل سنة في كلية الصيدلة، شريف هادئ، محافظ، أكثرنا تعقلًا.. سمير سمج، ثقيل الدم، ثرثار، من حُسن الحظّ أنّه ترك الجامعة باكرًا.. محمود عاشق دومًا، صيّاد صبايا من النوع السيئ.

كنت أستمتعُ بالنظر إلى وجْه غسّان حين يتوسّط المجموعة، ويسترسل في أحاديثٍ مدهشة، وتشتعلُ الغيرة في قلبي حين يكشف لنا عن طرفٍ مثير من إحدى مغامراته العاطفية.

قصّ لنا مرةً حكاية له مع فتاة ساذجة، كانت تعشقه وتلاحقه بين البساتين في ضواحي بلدتهم، وصفَ لحظة التصاقٍ ماجنة بأسلوب فجٍّ وقح، أسهب في وصفِ تفاصيل مخجلة عن خفايا الإناث. كان غسّان يكشف لنا أسرارًا عن الجنس الناعم، لم أستطعِ الاطلاع على بعضٍ منها، وأنا أعيش بين شقيقاتي الثلاث.

بدا غسّان للمجموعة مغامرًا خطيرًا «دونجوان» ذا علاقات عديدة، كنّا نتسمّر أمامه وهو يرسم لنا مِن مخزونٍ ضخم في مخيّلته خريطة دقيقة لجسدِ الأنثى، يشرح «فسيونومي» الفتاة الشبقة، يحذرنا من مغبّة الاقتراب منها بلهجةِ خبير.

يقصّ غسّان هذه الحكايات على مجموعتنا الصغيرة، في ساعات الليل المتأخرة في ليالي العطلات الأسبوعية فحسب، لا تتسرعوا في الحكم عليه، هو ليس مبتذلًا طوال الوقت.

تساءلت في نفسي مرارًا، وأنا أستمع لمبالغاته:

- هل هذا مجرّد استعراض ذكوري كاذب من غسّان؟!

لكنْ لماذا يحتاج الرجلُ للبرهنة على فحولته أمام رفاقه بقصص متضخّمة؟!

لعلّها وسيلتُه لجذب الانتباه لحديثه.. أو ربّما أنّ كثيرًا من الرجال يفعلون ذلك عند خلواتهم بأصدقاءٍ مقرّبين، يتلذّذون بأحاديث وقِحَة عن الجنس الآخر.

بعد سنوات، عرفت بأنّ الرجل الذي يكثر الحديثَ عن مغامرات من هذا النوع؛ إنّما يفعل ذلك كنوع من التعويض، هو على الأرجح يخفي قصورًا في قدراته الجسديّة، أو أنه يعاني من جوعٍ غريزي، لم يجدْ له شريكًا ملائمًا يشبعه.

في إحدى العطلات الرسميّة، تورطت لأبعد مدى في صحبتي لغسان، كنا في رحلة قصيرة على شاطئ البحر.. جلسنا لساعات نمرحُ ونلعب دون منغّص، ثمّ فوجئنا بفوجٍ من السائحات الأجنبيات، اكتظّ بهنّ الشاطئ، أجسادٌ مكشوفة، رائحتُهن الشخصية تزكمُ أنفي كلّما عاودتني تلك الذكرى المقزّزة، كانت رائحتُهن الشخصيّة غريبة، يبدو أنّهنّ مُدمنات للخمر!

صعقت وأنا أرى إحداهنّ تتبوّل أمامي دونما خجل، هل هذا هو التّحضر الذي قدّموه للمرأة؟ جرّدوها من ملابسها ومن حيائها، إنّها تتبول أمامي كهِرّة متشرّدة!

لقد أعادوها إلى عصر الإنسان البدائي!

في آخر ساعات المساء، قبل أن تؤذن الشمسُ بالمغيب، بدأن بالتلاشي من المشهد، توارت تلك النسوةُ العاريات عن الأنظار، تنفست الصعداء، غاب غسّان عن المجموعة ساعة، ثمّ عاد متأبّطًا ذراع فتاة شابة متكشّفة. متهتّكة، تعالت دقاتُ قلبي وأنا أراها تتعطف بين يديه، انتهرَه شريف ومضى مُغضبًا، وفارق المجموعة، تسمّر البقية أمام تلك الفتاة، تخيلتهم لوهلةٍ مجموعةَ ذئاب جائعة، محيطة بنعْجَة شاردة، يبدو أنّهم وجدوا في بائعةِ الهوى تلك فرصةً للكشف عن قدراتهم الفحوليّة!

كان الأمرُ يبدو طبيعيًّا لهم، أمّا أنا فقد انتصبَ شعر جسدي وسرت في ثناياه قشعريرةٌ مَحْمومة، ارتجفتُ حتى شعر بي جميعهم، سخروا مني، كنتُ وحدي مِن بينهم.. مختلفًا، غريب الأطوار!

وفي اللحظة التي وددتُ لو أنّ الأرض تنشقّ وتبتلعني، جذبني غسّان من يدي، جرّني وراءه متأبطًا بيدِه الأخرى تلك الفتاة، بلغنا مدخل الاستراحة.. أوقفني غسّان عند بابِ حجرة خاصّة قائلًا:

ـ عليك الحراسة حتى أنتهي، واجبك منعُهم من التلصّص.

حين ولجا للداخل معًا، وأوصدا عليهما الباب، هويتُ في بؤرة شقاء، كم كانَ ذلك الموقف قاسيًا ومؤلمًا!.. سمعت صوتَ آهاتها، ضحكاتها، مجونِها.. كان عليّ أن أكرَهَه منذ تلك اللحظة، لكن هذا لم يحدث، فقط ابتعدتُ لزمن، انسحبت من عالمِه، غادرت بهدوء سكنَ الطلاب الذي كان يجمعنا.

بدا لي غسّان جريئًا جدًّا في سنة تعارفنا الأولى، كم كنت أخافُ من نفسي عندما كان يقتربُ مني أكثر ممّا ينبغي، عندما كان يعانقني، يطوّق خاصرتي بساعديه، يلتصق بي، يمازحني ممازحةً جسديّة وقحة، كانت تجتاحني إرهاصاتُ رغبةٍ متحيّرة.. تشبه زلزال «تسونامي»، شيء لا يوصَف.

بعد أن فارقت السكنَ وابتعدت عنه، اكتشفت بأنّ قراري كان صائبًا، وجاء في وقتِه الصحيح..

خطواتٌ تفصل بيني وبين مقهى سرور، بضعُ دقائق تبعدني عنه. بعد هذا اللقاء، سينفض غسّان ركامَ حيرةٍ أرهقته طوالَ زمن تعارفنا عبْر الموقع الإلكتروني، لستُ متأكدة، هل سيكون سعيدًا عقبَ هذا اللقاء، أم لا؟ هل سيرغبُ في بقاء علاقتِنا وتطورها، أم سيقرّر الفراق الأبدي؟ وقبل ذلك كله، هل سأملكُ الشجاعة الكافية لأخبره بكلّ شيء؟!

هذه التساؤلات المُرعبة جعلتني أؤخّر اتّخاذ قرار لقائنا لسنوات.. لكنّه اليوم غدا أمرًا حتميًّا لا مناص منه؛ فقد وقعت مع صديقتي سميرة في ورطةٍ كبيرة، أحتاجُه ليساندني، يسدّدني، ليقف معي.. ليدلّني على سبيل للخروج من هذا المأزق الخطير.

اقتربتُ كثيرًا من مقهى سرور الذي اتّفقنا أن نلتقي فيه، أبطأت خطواتي، وجوهٌ شتى تجتازُ المجال أمامي بسرعة، الكلّ يلهث وراء شيء ما، نمط الحياة السريع يناسبني، يقطع عنقَ الملل الذي لا أكره شيئًا كما

أكرهه، لكنّي أرى كثيرًا من البشر ينسون في خضمّ هذه الوتيرة السريعة للحياة فنَّ الاسترخاء، والتمتّع بمفردات الدنيا وبهجتها، أخشى أن أغدو يومًا ما مثلهم.

يطوف حولي شابٌّ متسكّع، يرميني بنظراتِ اشتهاء دنيئة، يقترب مني، يشير بيديه نحوي بجرأة، هل يقصدُ مغازلتي، غوايتي؟! يا له مِن أخرق بغيض.. لماذا يظنّ بعضهم بأنّ كلّ فتاة تسير وحيدةً في الشارع هي صيد سهل؟!!

أووووف، متى يكفّ الشبان عن هذا التفكير المقزّز؟!

أنا مُنشغلة بما هو أهمّ مِن هذا الكائن التّافه..

هل أتراجع عن فكرة لقاء غسّان، ومكاشفته؟

لا يمكنني تخمينُ ردّة فعله، أنا خائفة حتى التلاشي من أنْ يرفضني.

آه.. يا إلهي، متى ينصرفُ هذا الضئيل المُستعرض لوقاحتِه من أمامي؟!

يبدو أنّه قليل الصبر، بدأت علاماتُ اليأس تظهر عليه، أخذ يقلّب ناظريه في المارات بعيدًا عني، أوه.. لقد ذهب بعيدًا، يبدو أنه وجدَ ضالته، فتاة متسكّعة تشبهُه.

سأتنفّس بعمقٍ لأستجمع كافة قواي، يا ربّ كنْ معي، حسنًا، لقد قرّرت، الأفضلُ أن أتدرّج في كشف الحقائق لغسّان، يجب ألّا أصبّ عليه كلّ هذه الوقائع دفعةً واحدة كيْلا يصاب بصدمة.. آه، كم أحبّه..!

هو أجملُ شيء حدثَ في حياتي، كلّ ما أتمناه هو أن يتقبلني، يبادلني الحب.. يدخلني إلى عالمه، يرتضيني نصفه الثاني، شريكة لحياته،

أتخيّله الآن جالسًا في المقهى، يمسح الاتجاهات بعينيه.. ينتظر لحظة وقوفي أمامه، قال لي بالأمس:

ـ كيف سأعرفك؟!

ـ لا تقلق بهذا الشأن، أنا أعرفك.

ـ حسنًا، سأجلسُ في أقصى الركن الشرقي للمقهى.

بعد أن فارقتُ الجامعة، وسافرتُ إلى برلين، بقيت متواصلة مع غسّان طوالَ مدّة فراقنا، عبْر تلك النافذة المفتوحة من العالم الافتراضي الشاسع، بقيتُ قريبة منه، أكلّمه معظم الوقت، باسْم مستعار، ثمّ

ظهرت له في واقع الحياة، بشخصية ثانية أشدّ إثارة وغموضًا!

سألني ذاتَ مرّة، ونحن ندردشُ في خانات عالمنا الافتراضي، بعد أن شرّحته بتحليلٍ دقيق لشخصيّته:

ـ مَن أنت، أنّى لكِ معرفة كلّ هذا عني؟!

ـ ولماذا يجب أن تعرفَ مَن أكون، ألَا يكفيك أني أفهمُك جيدًا، أتيح لك مساحات بوحٍ نادرة، أمنحُك فرصة التعرّي النفسي أمامي؟!

ـ وهل هذا شيء جيد؟ إنّك تسمّينه تعرّيًا، مَن ذا يحبّ أن يتعرّى؟!

ـ كلّنا يستعذب ذلك أحيانًا، نشعر بالخفّة والتحرّر حين نتخلّص من الكثير مِن الضوابط في الكلام والتعبير.

ـ لكنّك لا تفعلين هذا معي، أنا فقط مَن يبذخ في المكاشفة والبوح.

ـ هذا شأنك، هل أرغمتُك على شيء؟

ـ لا، لست أدري، بدأت أشكّ بأنك تمارسين الشعوذة!

ـ ههههههه، مجنون!!

ـ ماذا؟! انتبهي لألفاظك.

ـ عفوًا، ما بك؟ أحسّك عصبيًّا نزقًا في الآونة الأخيرة، هل وقعت في غرامي؟!

ـ مغرورة، لست مراهقًا لأقع في غرام شخصيّةٍ وهمية، ما يدريني، قد تكونينَ رجلًا، أو عجوزًا هَرمة، أو فتاة شوهاءَ بشعة، أنت لا تضعين صورتَك الشخصية، ولا بياناتك الحقيقية على الصفحة.

ـ أها، إذًا.. لماذا تثق بي؟!

ـ إممممم.. لست أدري، سألت نفسي عنْ هذا فلم أجدْ جوابًا، أوف، توقّفي عن هذا الأسلوب البوليسي، ما بك يا روحَ الحياة؟ غدًا كلامُك كأنّه اسْتجواب.

ـ وأنت كفَّ عن العصبية والشكّ، نحن صديقان منذ ثلاثة أعوام، هل سبق أنْ تسبّبت لك بمشكلة؟ اليوم ترتابُ مني، ما الذي يحدث معك؟!

ـ أنا قلقٌ بشأن صديقي كمال.

ـ ماذا حدث له؟!

ـ هو مختفٍ منذ يومين.

ـ حمدًا لله، أكثرُ شيء كان يزعجني هو ظهورُه في كلّ مرة أبدأ فيها الدّردشة معك، دعكَ منْه، أنت في سنة التّخرج، اهتم بدراستك.

ـ كم أنتِ باردة!!

ـ لماذا..؟

ـ أقول لك صديقي الحميم مُختفٍ، ولا أعرف ما هو سببُ اختفائه؛ فيكون ردُّك تشفّيًا وسرورًا ونصائح سمِجَة! اغربي عن وجهي يا روح، أنت اللّيلة لا تُطاقين.. سأخرج.

ـ لحظة، لحظة، انتظر.. لا تكنْ نزقًا، حسنًا، أقرّ بأني تكلّمت بغلظة، لكن لا داعٍ للقلق، إنْ أصابه مكروه، لا سمح الله، ستعرفُ فورًا، الأخبار السيّئة تصلُ سريعًا.

لم يتفهّمني، لم يغفر لي..

يغدو غسّان عصبيًّا ومتوترًا في كلّ مرةٍ يغيب فيها كمال، في تلك الليلة عاقبني لمجرّد أني لم أهتمّ بشأن اختفائه..!

أغلقَ نافذة الدردشة دون أن يجيبني، أو يودّعني!

وفي الليلة التالية، اعتذر لي، بعد أن اطْمأن على صديقه الحميم.

أنا فتاة في السادسة والعشرين من العمر، اسمي كاميليا، أحملُ دبلومًا في الإدارة وآخرَ في الحاسوب، ودبلوماتٍ لغات، حصلت مؤخرًا على عمل في الجامعة التي تركتُها قبل أربع سنوات.. «مؤرْشِفة لمكتبة الجامعة»، فكّرت بأنّ عملي في الجامعة سيتيحُ لي رؤية غسّان كلّ يوم.. الآنَ حتمًا سيولد سؤالٌ كبير في ذهنكم:

ما الذي كانت تفعلُه فتاة في حجرةِ نومٍ مشتركة في سكن الطّلاب، وبرفقة شباب؟!

هذه هي عقدةُ الحكاية، امنحوني صبرَكم، سأخبركم لاحقًا لماذا كنت هناك؟

أنا على يقين بأنّي سأجعلُكم تحبونَني، والذي أتمناه بعمقٍ هو أن تحتفظوا بهذا الشعور الجميل تجاهي حتى النهاية.

ورقة من مذكّرات غسان..

قرّر صديقي الحميم كمال فجأةً ترك الجامعة، والسفرَ إلى ألمانيا لإكمال دراسته الجامعية هناك. هو شابٌّ ذكي، يستحقّ هذه الفرصة، لكنه هادئ وخجول، كيف سيتدبّر أمورَه في ذلك المجتمع؟ وهل سيتجاوز تجربة بُعْده عني، وفراق الوطن بسهولة..؟!

لقد أحسستُ بالغربة حين سافر كمال، واشتدّ الأمر عليّ حين أخبرني بأنّه قدْ يبقى هناك إلى آخرِ عمره! كيف يمكنُه العيش الأبدي في بلاد الغربة؟!

الاغترابُ شعورٌ مُوحش، هو ليس مجرّد سفر جسدٍ، بل هو سفرُ روح!

يختزله البعضُ في البعد عن الحبيب: جسدِه، عطرِه، صوتِه، دفئِه؛ أو بعد عن الوطن: ترابه، عبقِه، سمائِه، هوائِه.. أيّا كانَ، فهو تجربةٌ قاسية، ينتج عنها وحشةٌ تلفَّ القلب، وشتاتُ روحٍ يمزق الوجدان!

هل تسافر الروحُ عند اغتراب الجسد، أم تبقى لصيقة بموطنها، هل ستبقى روح كمال قريبةً مني؟ هل سيدوم حبلُ وفاء يجذبه دومًا نحوي، وحبل انتماء سرّي يربطه بوطنه، ببقعةٍ من الأرض عشقَ ثراها، تنفّسَ عبير هوائها؟

نفارق الأماكن، وتغيب عنا وجوه، وتبقى الروحُ ترفرف وتحنّ لشيء ما، تراب..عطر.. حضن.. روح.. ذكرى... شيء ملتصقٌ بذاكرة الشعور، يغدو طيفًا، يرافق الغريب في حِلّه وترحاله، لا يمكن للذكرى أنْ تتلاشى، ولا للرّوح أن تنقطعَ من كلّ مادّة إلّا بالموت، قد تسافر إلى أكوانٍ بعيدة غريبة.. تلتصق ببقاع قصيّة، أو تعاين عالمَ الأطياف، والأرواح؛ لكنّها تبقى تحنّ لموطنها الأول.

عمومًا، كلّ هذه مجردُ أحاسيس، والأحاسيسُ كونٌ آخر لا نعرف عنه سوى النزر القليل، تخرصات، نظريات، غير أنّا نلمس أثرَ ذلك جليًّا في اعتصار الألم لوجداننا حين تهبّ رياح الشوق لتلهبَ الشعور، وتحرقَ فؤاد المتغرّب عن أحبته.. وإنّ أشدّ وأسوأ أنواع الغربة.. هي الغربةُ الداخلية!

كنت دومًا غريبًا بين سرْبي وأترابي، غريبًا بين أهلي وأقربائي، غريبًا عن ذاتي.. مستوحشًا من نفسي ودنياي وناسها، حتى التقيتُ بكمال، لكَمْ أحبَبْته!

شيء غامض شدّني إليه منذ اليوم الأول، أحسستُ بأنّي أعرفه منذ الطفولة، فيضُ حنانٍ طاغ تفجّر بداخلي تجاهه.. عطفني عليه، ربما لأنّه كان أصغرَ فردٍ في المجموعة التي أشاركها حجرةً في السكن الجامعي، أو ربّما لأنّه كان رقيقًا.. مرهفًا.. وكنت أخشى عليه من التعرّض لأي اعتداء، أو لعلّي كنت مستمتعًا بوجوده في محيطي؛ حيث يمنحني الفرصة لألعب دورَ الفارس المِقدام.. الرّفيق القوي الذي يحتاجُ له شخص ضعيف، المهم.. ودون أيّ تبرير للأمر، غدا كمال صديقي المقرّب من بين أفراد المجْموعة. العجيب حقًّا، هو كيف حصلَ كمال على هذه المكانة لدي، وهو الشابّ المهذّب جدًّا، والمستقيم أكثرَ ممّا يجب، كم يدهشني زعمه بأنه لم يقعْ في زلّة ولو لمرّةٍ واحدة!

ملامحُه بسيطة لا تخلو من الجاذبية، مستقيمٌ لدرجة الملل، الشيء الوحيد المعوجّ فيه هو أنفه الطويل!

متنسّك برغم أنه يعيش بعيدًا عن عائلته، متعفّف وهو حرّ طليق، يحيا بمنأى من الضوابط الأسرية، يمارس رقابة أبويّة صارمة على ذاته، يقسو على نفسه كثيرًا.. لماذا يا ترى يفعلُ ذلك؟ أنا لا أفهم مبررات سلوكه المعقد!

كان يلازمني طوالَ الوقت، يجلس بجواري في قاعة المحاضرات.. في مقهى سرور، على مدرّج القاعة الرياضية المغلقة، في المكتبة.. بقينا

رفيقي دراسة في قسم الصيدلة على مدى عام، اتّخذته خليلًا لي.. كاتمًا لأسراري.. صدى بوحي، متكأ وجعي، حارس نزواتي، توهّمت لحين بأننا لنْ نفترق حتى المات، لكنه فجأة قرّر السفر، ابتعد عني ببرودة ولا مبالاة سبّبت لي ألمًا، طويت عليه جوانحي وسكتّ على مضض.

كمال دائمُ الفكر.. قليل الكلام.. نادر المزاح، يبدو أكبرَ من سنّه.. سمعته ذاتَ مرّة يقول لصديقنا شريف:

ـ أشعر بأنّ عمري الشعوري مليون عام أو أكثر.. أحسّ كأني موجود على هذه الأرض منذُ بدء الخلق!

على سيماهُ مسحةُ تأمّل ووميض حكمة، بعكسي تمامًا، أنا أكثِرُ من المزاح واللّهو والحركة والضحك، قال لي مرّةً ونحن جالسان في المقهى:

ـ لماذا تضحِكُك أشياء لا تستدعي الضحك؟! تبدو جذلانَ منتشيًا طوال الوقت، ترى ما هو الجرحُ الذي تستُره بضحكاتك الهستيرية المتعالية؟!

ألْجمني سؤاله لوهلة، ثمّ عدت وأطلقت ضحكةً مجلجلة، قمت على إثرها وتركتُه في المقهى متحيرًا، ركضت مبتعدًا، هاربًا من نظراته العميقة!

كمال.. هو الإنسانُ الوحيد الذي شعر بأنّي مجروح من الأعماق، احتل مكانةً خاصة في قلبي بعدما لامسَ وجعَ روحي، ابتعد عني بجسده لكنه لم يفارقني بحضوره الدائم في وجداني وعلى خانة الدردشة، نحن نثرثرُ معًا كلّ ليلة، برغم كلّ هذه المحادثات المطوّلة، أحنّ إليه، أشتاق له كثيرًا، أشتاقُ حتى لرائحة عطره.

اليومَ بدأتُ بكتابة مذكراتي...

اتّخذت هذا القرار بعد فراق كمال الذي أثارَ في نفسي شجونًا، بعث بداخلي رغبةً جامحة لبوحٍ خاص..

تعيشُ أسرتي في بلدتي الصغيرة التي فارقتها للدراسة في الجامعة، لي أمٌّ حنون. لكنها دائمةُ الانشغال، تدور في البيت كالنحلة، وأبٌ حازم مُهتمّ، يعملُ في دائرةٍ حكومية.. يذهبُ للعمل كلّ صباح، وفي المساء يجلس في ركنِه الخاص في البيت ساكنًا، يديم القراءة، يمتلك أرضًا زراعية شاسعة، تدرّ عليه ريعًا سنويًّا يغطي به نفقاتِ أسرتنا الكبيرة، راتب الوظيفة الحكوميّة لا يساوي شيئًا، هو يعمل لأنّه مؤمن بأنّ قيمة الرجل في عمله، ويؤمنُ كذلك بأنّ البطالة رذيلة، يردّد عبارته الخالدة:

«ترابُ العمل خيرٌ من زعفران البطالة»!

لي سبعٌ من الأشقاء وشقيقتان، لست أدري لِمَ أنجبت أمي هذا العدد المَهول؟!

أنا أوسط إخوتي، الكبار يشكّلون تكتلًا قويًّا في منظومة أسرتنا، يؤثّرون في عملية اتّخاذ القرارات في كلّ شأن من شئون العائلة، والصغار يمثلون جبهةَ معارضة متذمرة دومًا.

كبرتُ لأجد نفسي مهمشًا بين هاتين الكتلتين؛ لذا حرصتُ على إقامة علاقاتٍ صداقة قوية مع آخرين، حلّقت بعيدًا عن سرب عائلتي، سمة الاستقلالية واضحة في سلوك أفراد الأسرة جميعهم، أرى كلّ واحد منهم له اهتماماتٌ خاصة به، عالمٌ خاص مميز. عندما نلتقي في الإجازات أحسّ بأنّنا جزرٌ متفرقة دفع بها المدّ فالتقت عنوة، ثمّ بعد قليل سيدفع بها لتفترق من جديد. في أحايينَ كثيرة أرى بأنّ اجتماعنا وفراقنا سيان، مجرد طقوس وواجب أسري. عشتُ سنوات من عمري بعيدًا عن بيتنا، كانت النتيجة اغترابًا نفسيًّا فصلني عنهم، جفاءٌ عاطفيٌّ غلّف علاقتي بهم، لم أستسغ أن أخبرَ أيّا منهم عن طرفٍ من مغامرة عاطفية تعتصرني تفاصيلها.. عن زلّة وقعت فيها.. عن شعورٍ بالضعف تجاه احتياج ملحّ..

لم أحدّث أحدًا منهم في يومٍ ما عن أحلامٍ طالما تحدّثت عنها أمام صديقي كمال.

أعيشُ بإحساس غربةٍ دائمة صامتة خفيّة، تتبدّد فقط حينما أكون مع كمال، حتى أنّي أصبحت أتوقّف عن الغرق في هستيريا الضحك عندما أختلي به!

في دردشة البارحة، سألته ممازحًا بخبث:

ـ هل ستبقى صفحتُك بيضاء.. حتى وأنت في أوروبا؟ متى تلوّنها بحمرة العشق؟!

لمْ يجبْني، هو هكذا في غالبِ أحواله، متحفّظ، وعندما لا يعجبه حديثي يلوذُ بالصمت، ثمّ يتوارى بهدوء..

كاميليا في رحلة العودة إلى الذّات..

ما معنى أن تكون متواجدًا حسًّا على خارطة الحياة، رقمًا.. اسمًا.. نوعًا.. جنسية.. عمرًا.. مهنة.. مجردَ بيانات.. سوادًا يحبّر أوراقًا رسمية.. حروفًا ونقاطًا مصفوفةً في خانة إلكترونية، ضمن ملايين من الخانات المشابهة؟! تقبعُ في إحدى هذه الحجرات المظلمة كشيء من الأشياء، تقابلك في خانات ليست بالبعيدة أرقّامٌ لمحسوسات شتّى من غير ذاوت الأرواح.

كأنّي بعالم الناس يسير نحو التجمّد بوتيرة متسارعة، وبرودةٍ قاتلة، كلّ هذا الاتساع الفارغ من نبضِ الأرواح يتحكّم في حياتنا، في لحظة ما تشعر بمدى تعقّد الأمور، عندما تضطرّ لتغيير موقع بياناتك من خانة لأخرى!

في يوم ما، فجعتُ بقطرات دماءٍ تتناثر على ملابسي الداخلية، خلعتها.. أشهرتُها في وجْه أمي.. صكّت وجهها وتنهّدت بحرقة.. تهاوت بجسدها متضَعْضعةً على الأريكة، ثمّ:

ـ قضي الأمر، اتّضحت الرؤية يا...

تسمّرت أمامَ باب حجرتي لوهلة، تساءلت برعبٍ وقد جحظت عيناي:

ـ ماذا تعني بكلامِك هذا يا أمّاه..!؟

ـ لا بدّ من إخضاعك للعملية.

ـ لا.. لا، لا أريد..

تحرّكت أمي نحوي بخطى وئيدة، ضمّتني بقوة، منذ زمن لم تضمّني بهذه الحميميّة، بكتْ، نشجتْ، انتزعتُ جسدي المتألم من بين يديها بصعوبة، تصدّعت من وجعي النفسي والجسدي، جثوتُ على ركبتي وسط البهو، صرختُ:

ـ لماذا يحدث لي هذا يا إلهي..؟!

وانخرطتُ في البكاء، وقفت أمّي متسمّرة على بعد مسافة مني.. رفعت وجهَها للأعلى، نظرتُ إليها بصمت، أكاد أسمعُ همسَ روحها وهي تناجي الله، كمْ هي مؤمنة وقويّة! كم أنا فخورة لأنّها أمي!

تسامتْ على انكسار نفسها، مسحتْ دموعَها بمنديل ورقي، ودنَتْ مني.. طافتْ حولي، دسّت أناملها بين خِصلات شعري القصير، همست:

ـ شعرُك جميل، سيطولُ ويصبح أروعَ من شعور أخواتك.

زفرتْ ثمّ أردفت وهي ما تزال تداعبُ خصلات شعري:

ـ لماذا الصدمة الآن يا حبيبتي؟ إنّه حمق، لقد انتظرنا حدوثَ هذا طويلًا، كنّا بحاجةٍ لبرهان يقوّي يقيننا، يؤازرنا، يمنحنا المبرّرَ الأكبر لنقدم على هذه الخطوة المصيريّة دون أن نشعر بأنّنا نقترف إثمًا.

سكتتْ لوهلة ثمّ أضافت بصوتٍ عميق ونبرة راضية:

ـ إنّها إرادة الله جلّ وعلا.

رفعتُ وجهي نحوها، قلت لها بأسى:

ـ لماذا أنا مَن تقعُ عليه هذه المصيبة؟ إنّني متألّمة جدًّا.. لا أحتمل ثقل هذا البلاء.

ـ لست وحدَك المعنية بهذا الامتحان يا صغيرتي، الإرادة الكونية ليست شرًّا يقع على أشخاص بأعينهم، هي اختيارٌ من ربٍّ حكيم تظهر جانبًا من قدرته. يجب ألا نعترضَ على مشيئة الله.

ـ لست سوى جرم صغير في مملكة ربّ عظيم، لا أملك حقّ الاعتراض، لكنّ هذا لا يمنع كوني متألّمة ممّا يحدث لي، إنه أمرٌ فظيع، فظيع للغاية يا أمي.

جلستْ أمي قُبالتي على الأرض، ضمّت كفي بين يديها بلطف، رفعتهما إلى صدرها، ألصقتهما هناك بحنو.. قالت لي وهي تثبتُ عينيها العسلية المشرقة في عيني العميقة السوادِ الناعسة:

ـ كوني قويّة يا حبيبتي، أنا ووالدُك وأخواتك جميعنا سنكون معك، لن تواجهي الحياة والناس بمفردِك، ما الضير فيما حدث وسيحدث!؟ لقد حدّدت هويتك قبل نزول هذه القطرات من الدّماء بزمن، لقد عرفت مَن تكونين قبل أن تصدرَ البيولوجيا حكمَها الأخير، روحك أشدّ ذكاءً من جسدِك، بهذه الروح القويّة ستتجاوزين المحنة، أنا أثق بك..

قمتُ واقفة، سرتُ خطوات نحو النافذة، تنفّست بعمق، زفرت ثمّ قلت:

ـ أنا مُدركة لحقيقة ذاتي منذ زمن، رسمتُ معالم شخصيتي بجهد خارق، لكنّ هذا لا يمنع أن أتزلزلَ عند حدوث ذلك يقينًا، ثمّ إنني...

سكتّ بغصّة عبرة، قالت أمّي بتحفز:

ـ أنت ماذا؟ هيا قولي كلّ ما في خاطرك، لا تخفي عني شيئًا..

ـ أنا، أنا خائفة جدًّا من العملية، سيكون ذلك مؤلمًا.

قلتُ لها ذلك وعاودت البكاء، جذبتني إلى صدرها بقوّة، ضمّتني بشدة، شعرتُ بأنّها تتمنّى أن ينشقّ صدرها لأدخل وأسكنَ فيه، أرادت أن تواريني عن كلّ ألمٍ تنضحُ به الحياة، بعد أن هدأت نوبةُ بكائي، قالت أمي:

ـ مخاوفك طبيعيّة يا حبيبتي، لا تخجلي من كونِك خائفة، وضعك شائك، فوقَ العادة، عبّري عن مخاوفك كما تشائين لكنْ لا تدعيها تمنعُك من فعل الصّواب.

ـ أنا خائفة لدرجة الذّعر.

ـ اطمئنّي يا حبيبتي، سأعملُ مع الطبيب على تخفيف آلامِك، لقد كلّمته في هذا مرارًا، أكّد لي بأنّها آلام مُحتملة ، كوني شجاعة كما عهدتك، لا تفكّري في هذه الجزئية كثيرًا، فكّري في الوضوح الذي ستحيينه بعد العملية، التخلّص من الشتات النفسي والقلق، التطلّع لفرص جديدة في الحياة، التمتّع بمباهج مختلفة، تتوافق مع هويتك الجديدة..

كانت كلماتُ أمي تنساب على مسامعي بلسمًا شافيًا، مبدّدة جميع مخاوفي، كمْ هي رائعة!

كنتُ قلقة عندما اتّصلت بها لأخبرها بأنّي تركت الجامعة، خشيت أن تغضبَ مني، لكنها تلقّت قراري بهدوء وتقبّل، عادت من فورها

لتبقى بقربي، شعرتْ بحاجتي إليها دون أن تحوجني لتعليل أو مزيدِ شرح، باعتْ جزءًا كبيرًا من الأرض التي ورثتها عن أبيها لتغطي بثمنها تكاليف عمليّتي الباهظة. ساندتني بشجاعة وحبّ ويقين، سرتْ طاقتُها الإيجابية في كياني، غيث ثلجٍ وبرد أطفأ بعضَ ألمي، وملأني طمأنينة..

رأيتُ أمّي تواري بشجاعة حلمًا فطريًّا يومض في خاطرها، كان يبرق، ويتلألأ في مآقيها يومَ أصرّت أن ألتحقَ بالسكن الجامعي؛ لأحتكّ أكثر بعالم الذكور، في محاولةٍ أخيرة منها لقطفِ حلم العمر، أرادت أن تحظى مثلَ كلّ إناث الأرض بولدٍ ذكر، لقد حرمتُها من تحقيق هذا الحلم الأثير عند كلّ امرأة، لم أستسغْ فكرة الاعتذار لها، قبّلتها بين عينيها وقلت بصمْت:

- هو أمرٌ خارج عن إرادتي، لم أقصدْ أن أقتل حلمك يا أغلى الناس.

ثمّة شيء آخر أعانني على تقبّل ما سوف يحدث لي، إنّه حبي الكبير لغسّان..!

سافرتُ مع أمي إلى برلين، ووجه غسّان يلوح لي في الأفق، سوف أبدأ رحلةَ العلاج التي طالما تلكّأت في الإقدام عليها.. سأتعرّض لشيء يشبه حالةَ ولادة متعسّرة..

يقال بأنّ ألمَ الولادة هو الأول في سلّم الآلام الجسديّة، يولد كلّ إنسان من رحمِ مُعاناة طبيعيّة، يخرج للدنيا ملطّخًا بدماء أمّه، يقع على الأرض، أو بينَ الأيدي، يستهلّ حياته صارخًا:

ـ ما الذي جاء بي إلى دنياكم؟ أنا خائف، ضمّوني بحنوّ.. أنا موجود، اهتمّوا بي، أنا لديّ احتياجات، أغيثوني بها وإلّا سوف أملأ الكون صراخًا!

كلّ هذه الأمور طبيعية، يتلقّاها جميعُ البشر بسرورٍ ورضا.. يصدحون بالزّغاريد وأهازيج الفرح، لكنْ أنْ يولَد إنسان مرّة أخرى وقد شارف على العشرين من عمره بألمٍ ودماءٍ وصراخ، طقوس مشابهة، بنتيجة مغايرة.. يستقبل البشرُ مولدًه بردّة فعل مُحبطة، كلّ ذلك يحدث لي ولا أملك إلّا الاسْتسلام له، والسير حثيثًا لخوض تجربة ولادةٍ من خاصرة قدري، كم هي تجربة مُوجِعة مُرْعبة!

ورقةٌ من مذكّرات غسّان..

بالأمس، ظهر عنصرٌ جديد في حياتي، أو بالأصحّ في عالمي الافتراضي، كلّ أفراد مجموعتي الخاصة على موقع التواصل هُم أصدقاء وأقارب، أفرادُ أسرتي.. عددٌ من أساتذتي في الجامعة.. زميلات وزملاء في قسم الصّيدلة.. أصحابٌ في مجموعة الأنشطة الجامعية.. جيران قدامى من أهالي بلدتي.

فقط هذه الفتاة المجهولة، هي الشخصُ الوحيد الغريب بينهم، أنا في العادة لا أحبّذ إضافةَ الغرباء إلى مجموعتي الخاصة، أو إقامة علاقة صداقة حميمة مع مجهولين، علاقاتي بهم تبقى سطحيّة، عملية.

تردّدت طويلًا في قبولها عندما طلبتِ الانضمام لمجموعتي، ثمّ بعد أن رضختُ لطلبها هجست مرارًا:

- لماذا قبلت انضمامَها إلى مجموعتي الخاصة؟.. هل أحذفها من المجموعة؟

تردّدت، تراجعتُ، لقد رغبت في بقائها. في الواقع، أنا مُرتبكٌ بسببها وهذا شيء لم أعتدْه، عندما استشرتُ كمال في قصتي معها وحيرتي، قال لي:

ـ إنْ كان وجودها يزعجك فقمْ بحذفِها فورًا، ما الذي ستخسره إنْ أنت فعلتَ ذلك؟!

ـ لا شيء، لكنّ الموقف لا علاقة له بالرّبح والخسارة يا صديقي، لقد تورّطت وقبلت بوجودِها ضمن مجموعتي، وليس من اليسير عليّ طردها دونَ مسوّغ أو عذر مقبول.. أنت تعرفني.. أنا حسّاس جدًّا بشأن العلاقات الإنسانية.

ـ إن كنتَ قد حسمت الأمر، فلماذا تستشيرني إذًا؟!

ـ أحبّ أن أفكّر معك بصوتٍ مسموع.

ـ التفكير بصوتٍ مسموع! أحبّ تعبيراتك الدقيقة..

ـ وأنا أحبّ تفكيرك التأمّلي.

ـ أشكرك، هيّا أخبرني ما الذي جذبك إليها، وجعلك تقرّر ضمّها لمجموعتك؟!

ـ أدهشتني، بدتْ مهتمّة بكلّ ما أطرحه، تسلّلت بهدوء إلى مساحة اهتمامي بتعليقاتها الذكيّة على منشوراتي، ثمّ أنها واضحة وجريئة وموفقة في ما كلّ تكتبُه من تعليقات، بدتِ الفتاة الأشدّ ذكاءً بين الأخريات.

ـ وهل تجذبك الفتاةُ الذكية؟ إنّ هذا النوع من الفتيات مثير للمشاكل، ويكثرنَ من الجدل والتحاذق!

ـ أنت تعلم بأني لا أطيقُ الفتيات الغبيات، المكتظّة رؤوسهن بتوافه الحياة، كم يثرنَ أعصابي بتعليقاتهنّ السمجة!

ـ وهل هي مختلفةٌ عنهنّ في هذا؟

ـ جدًّا، مدهشة!

ـ جعلتني أشدّ شوقًا للتعرّف على فتاتك هذه، ما اسمها؟!

ـ هي تستعمل اسماً مستعارًا، كانت صادقة معي منذ البداية.. صرّحت لي بذلك منذُ أوّل رسالة.

ـ صادقة، كيف لك الجزمُ بذلك؟

ـ إنّه الحدس، أنا أثقُ بحدسي الذي لم يخنّي في يوم ما.

ـ لا تغترّ يا غسّان، وكنْ على حذر.

ـ ولماذا التشكّك والتخوف؟ هي مجرّد ذرة في عالم افتراضي، طيف.. روح فحسب.

ـ حسنًا. ما هو الاسمُ المستعار الذي تستعملُه هذه الساحرة التي أثارت اهتمامَك وأدهشتك؟

ـ روحُ الحياة.

ـ واو، رائع، لطيف للغاية!

ـ هل أعجبك؟

ـ أعجبني كثيرًا، هل هي هنا الآن؟!

ـ للأسف لا..

ـ تأسفُ لغيابها، ما الذي يحدث يا غسّان؟!

ـ لا تحاصرني بتخميناتِك، المسألة ليست كما تتوهّم.

ـ ليس توهمًا، أنتَ مهتمّ بها، هل لاحظت بأننا لم نتحدّث في هذه الليلة إلّا عنها؟!

ـ حسنًا. سوف أكفّ عن ذلك فورًا، لكن مهلًا هل شعرت بالغيرة منها؟

ـ ربّما!

ـ حمدًا لله، لو كان من حسناتِ ظهورها أن جعلتك تشعرُ بالغيرة عليّ فهذا معروفٌ كبير أسدتْه لي روحُ الحياة، منذ زمن وأنا أنتظر أن تصرح بمودّتك لي، أستحثّك لفعل ذلك بشتّى السبل، دونَما جدوى،

يا عزيزي أنت لم تقلْ لي ولو لمرّة واحدة بأنّك تحبّني.. أين أنت من المبدأ النبوي في الحبّ «اذهب، وأخبره بأنّك تحبّه»؟!

ـ أحبّك والله يا غسّان؛ فهدّئ مِن روعك.

ـ أوه، لقد فعلتها أخيرًا، شكرًا لك يا روحَ الحياة.

ـ هههههه، هل كنت محبطًا منّي لهذه الدرجة؟!

ـ أنت متحفّظ أكثر ممّا ينبغي.

ـ حقًّا؟ أعتذر، لم أقصد أنْ أبعث مشاعرَ الإحباط في نفسك.

ـ لقد فعلت ذلك بمهارة تُحسد عليها، هههههه..

ـ سأقولها لك مرارًا حتى أمحو مِن نفسك هذا الأثر السلبي.

ـ وأنا سوف أسعدُ برؤيتها على نافذة الدردشة في كلّ مرّة تكتبها لي.

كان ذلك الحوارُ بيني وبين كمال عن روحِ الحياة لذيذًا جدًّا. في الواقع، لستُ أدري أيّهما كان أمتع لي، هل تعبيرَ صديقي كمال الصريح عن حبّه لي، أم حديثي عنها؟!

الذي أحسّه بقوّة، هو أني فعلًا مهتمٌّ بهذه الرّوح التي اقتحمت خاطري، وساعات خلوتي، وخانة دردشتي، وأوراق مذكراتي بحضور قوي، وسطوة مدهشة!

كاميليا موظفةٌ في الجامعة..

في اليوم الأول لعملي، توجّهت نحو الجامعة في وقتٍ مبكر. قرأت في كتب عدّة عن مهارات النّجاح العملي قبل أن أتقدّم لطلب الوظيفة؛ جميعُها تؤكّد بأنّ الانطباع الأول الذي أرسمُه في ذهن صاحبِ العمل هو الأهمّ، وهو الذي سيحدّد ما إذا كنتُ سأفوز بثقته على المدى الطويل، أم لا؟

تقدّمت للوظيفة عبْر موقع الجامعة الإلكتروني، أدخلت جميعَ بياناتي وصورًا لوثائقي وعناويني ورقمَ جوالي بعد أن قمتُ بالإجابة على الأسئلة المدْرَجة تحت الإعلان.

بعدها بأيام، استلمت اتّصالًا من سكرتير الجامعة، قال لي:

ـ مبروك يا أستاذة كاميليا، اخترنا ملفّك ليكون أولَ ملفّ ضمن مصفوفة الذين تمّ قبولهم للترشّح للوظيفة. غدًا عند الثامنة صباحًا سيكون موعدُ المقابلة الشخصية، ننتظرُ حضورَك، ونتمنى لك التوفيق.

اجتزتُ المقابلة بنجاح، فزتُ بالعمل، علمتني الحياة بأنه إذا حالفكَ الحظ منذُ البدء؛ فهذه علامةُ تيسير سوف يرافقكَ حتى النهاية.

حين وضعتُ قدمي على أولى درجات السلّم المفضي لمكتبة الجامعة في صبيحة يوم عملي الأول، سرتْ بداخلي نشوةٌ عارمة غمرت كياني، ارتسمتْ على شفتي ابتسامةُ سرور عريضة، غالبت ضحكة ابتهاج كادت تنبعثُ مني عُنوة، تلفتّ حولي لأرى.. هل شاهد ذلك أحدٌ ما؟

منذ سنوات، لم يتفجّر في قلبي شعورُ فرحةٍ غامرة كهذه، كمْ هو إحساس جميلٌ ذلك المسمّى فرحًا!

وبقدر ما هو لذيذٌ وممتعٌ وغني، بقدر ما هو خفيفٌ.. بخيل.. سريعُ التلاشي. إنّه كوميض برق يلمعُ في الوجدان، فيمنح النفسَ شعورًا بالقدرة والتمكّن واتّساع الدنيا وفسحة الأمل.. لحظة انبعاث شعور الفرح وتدفّقه في النفس، يتمدّد القلب بأعجوبةٍ لا تقاس.. تصبح تلك المضغةُ الصغيرة قادرةً على ضمّ الكون بين جوانبها..

تطيرُ الروح في لمح البصر، فتطوفُ بسرعة الضوءِ في فضاء فسيح مشرق؛ لتغترف مِن بقاع غنّاء مشاعرَ أخّاذة لا توصف!

أجملُ شعور في الحياة شعورُ الفرح، ومع ذلك فهو أقلّ المشاعر انبعاثًا، والتصاقًا بالحسّ، أعسرها استرجاعًا من الذاكرة، أبعدها نوالًا

على الإرادة، لماذا يا تُرى نفرح قليلًا ونحزن كثيرًا في هذه الدنيا؟ ينزاح الحزنُ عن نفوسنا بصعوبة بالغة.. ويغادر الفرحُ مساحاتِ وجداننا، ويتلاشى مثل فقاقيعِ الصابون؟!

عندما سألت أمي يومًا هذا السؤال؛ قالت لي ببساطة:

ـ قال الله تعالى: لقد خلقنا الإنسانَ في كبد.

سكتّ عند سماعي ذلك منها؛ لأنّ هذه الكلمات الربانية تعطي تفسيرًا ظاهرًا لا أملك أن أناقشه، لكنّي لا أعتقد بأن الله- جل وعلا- أراد لنا أن نكابدَ العيش، ونحزن ونتعس في هذه الحياة!

ثمّة خلل في أنفسنا، يجعل لحظاتِ الفرح في وجداننا قصيرة سطحية باهتة، وساعاتِ الحزن طويلةً ممتدّة عميقة، ترى هل هو جينٌ وراثي قديم؟!

المهمّ هو أني فرحتُ بعملي في الجامعة فرحًا لن أنساه.. بعدها، سرعان ما خابَ أملي برؤية غسّان، اكتشفت بأنّ غسّان أصبح لا يزورُ مكتبة الجامعة إلّا نادرًا.

كان عملي في المكتبة شاقًّا ومرهقًا ويستهلك كلّ وقتي، مرّ الأسبوع الأول في ساعاتِ تدريب ممتدّة، كنت أشردُ أثناء التدريب عن المشرف على المكتبة.. أجولُ بناظري بحثًا عن غسّان فينبهني المشرفُ بقسوة.

انتهتْ دورة التدريب، مرّت أوقات انتظار ظهور غسّان بطيئة ثقيلة، انقضى شهرٌ بأكمله، ولم أرَه خلالَه ولو لمرّة واحدة. حزنت، غضبت، ندمتُ لوهلة لقبولي بهذا العملِ التنظيمي المملّ، ثمّ حدث أخيرًا ما كنت أنتظره.. لقد جاء، بردتْ أطرافي وأنا أتتبّع خطواته وهو يطوفُ بأحد الرّفوف.. كم هو جميلٌ وآسر.. هل تَراه كلّ الفتيات هكذا، أم أنا فحسب مَن يراه كذلك؟!

اشتعلَ قلبي بشعورِ شوقي له، تخيّلتني أركض نحوه.. أحتضنُه.. أشمّه بقوة.. أقبّله، يتكوّن كلّ هذا الخيال في لَمْح البصر، لا يملك الضميرُ منعَ الدّماغ من تصميم تلك المشاهدِ الوهميّة. في كلّ مرة يحدثُ لي هذا، أعاتب نفسي طويلًا بعد انتهائها!

عندما يئسَ غسّان من العثور على بُغيتِه بين مَصفوفة الكتب على ذلك الرّف، التفتَ يمنة ويسرة، ثبتَ ناظريه تجاهي، تحرّك بخطوات واسعة نحوي، أقبل بقامتِه المتوسطة، وجسدِه الرشيق عليّ، جمدت ببقعتي، غاب الجميعُ عن المكان، تلاشت كلّ المحسوسات من حولنا.. صرت أنا وهو فحسب أبطالَ المشهد، توقّف أمامي، صرفتُ ناظري عنه بارتباك، تظاهرتُ بالتشاغل بترتيبِ حزمة بطاقات كانت بين يدي، قبل أن يفوه بأيّة كلمةٍ قفز سؤالٌ إلى ذهني.. تعالى رنينُه كجرسٍ أصابه مسَّ جنون: ترى هل سيتعرّف عليّ ؟!

جاءني صوتُه الرّنان، المحبّب لنفسي:

ـ لو سمحت يا أستاذة، أين أجدُ المراجع الجديدة الخاصّة بقسم الصيدلة، التي قيل بأنّها وصلت إلى المكتبة مؤخّرًا؟

صرتُ أتنفّس بصعوبة.. أطرافي ترتعش، شعرتُ بأنّ وقتًا طويلًا مرّ قبل أنْ أستردَ هدوئي، وأجيبه:

ـ لم تصلْ بعد.

ـ أوه، متى ستصل؟ يجب أن أنهي بحثَ التخرج.

ـ لا تبتئس يا أستاذ..

ـ غسّان شكري.

ـ لا عليك يا أستاذ غسّان، سوف أتابع الأمرَ بنفسي.

ـ سأكون ممتنًّا لك إنْ فعلت ذلك، يجبُ أن تصل المجموعة للمكتبة بأسرع ما يكون.

دنا منّي أكثر، وهمس:

ـ أستاذتي لا ترْحم.

تباعدتُ بحركة لا إرادية، أحسّ بارتباكي، ثبّت عينيه في وجهي لوهلة ثمّ أردَف:

ـ هل أنت جديدة هنا يا..

ـ كاميليا.

ـ كاميليا، يا لهُ مِن اسم جميل!

أطرقتُ خجلًا، سكت هو هنيهات قبل أن يسأل:

ـ أين رأيتك من قبل يا أستاذة كاميليا، هل أنت طالبة في أحدِ فروع الجامعة؟!

ـ لا، لا.. مطلقًا، أحملُ دبلومات.. ليس أكثر.

ـ ألمْ تشاركي في إحدى ندواتِ منتدى الجامعة الثقافي، المسابقات، أو أي شيء من هذا القبيل؟ أنا على يقينٍ بأنّي رأيتك من قبل في مكان ما، لكن أين؟!

ـ كما يقال «يخلق من الشبه أربعين»، أنا شخصيًّا لا أتذكّر بأني رأيتك من قبل..

ـ لي ذاكرة كمبيوتريّة قلّما تخطئ، لكن.. سبحان الله!

رنا بعينيه بعيدًا عني.. بدا كأنّما يقلّب صفحات ذاكرته.. كان مصرًّا على تذكّر متى وأين رآني من قبل، تنهّد وأطرق برأسه بعدما هزمَه اليأس، ثمّ:

ـ ربّما أنّي مخطئ، حسنًا، سوف أكِلُ أمرَ المراجع إليك، متى أجيء ثانية؟

ـ المفترض بطالبِ الجامعة أن يلازمَ المكتبة معظمَ الوقت.

رماني بنظرةٍ جريئة مُخترقة.. ازددتُ ارتباكًا.. يبدو أنّي تكلّمت دون تحفّظ أو تفكير؛ فقلت مُستدركة:

ـ أقصدُ ليضاعف مخزونَه العلمي، يستغلّ فترة تواجده في الجامعة لمزيدٍ من المطالعة الجادّة، والقراءة المثمرة.

في تلك اللحظة، أقبل محمود علينا عجلًا، قال له معاتبًا:

ـ أنتَ هنا ونحن نبحثُ عنك!

ـ تبحثون عني، لماذا؟!

ـ لا أصدّق بأنك نسيت!

ـ نسيتُ ماذا؟ لا ترْبكني.. أنا مشغولُ الذهن ببحثِ التخرج، هل نسيت بأنّ أستاذتي هالة؟ وما أدراك ما هالة!

ـ لا شأنَ لنا بهذا، لا عذرَ لك على الإطلاق، لقد وعدتنا بتحضير فقرات حفلِ تكريم الفائزين في المسابقة الثقافية، لن نتسامحَ في هذا مطلقًا.. لقد اعتمدْنا عليك، والجميعُ ينتظر سماع خطّة الحفل التي يفترض أنّك ستعرضُها علينا اليوم.

علا صوتُهما، فطرق مديرُ المكتبة بأصابعه على المنضدة منبّهًا، لوح غسّان بيدِه نحو المدير معتذرًا، جرّه محمود من ذراعه ومضى به خارج المكتبة، تتبّعتهما بناظري حتى ذهلتُ لبرهة عمّن حولي، دنتْ مني سميرة- طالبة في الجامعة، تحضّر الماجستير في قسم الكيمياء- تعرّفت عليها خلال الأسابيع الأولى لعملي في الجامعة، وذلك لكثرة تردّدها على المكتبة، همستْ لي ممازحة:

ـ هيه، صباح الخير يا كاميليا.. أين شردت؟! مِن الخير لك أن تركزي في عملك.

قلتُ لها بارتباك:

ـ ماذا تعني بكلامِك هذا؟!

ـ حقيقةً لا ألومك؛ هو جذّاب، ذو حضور قوي.

ـ لم أفهم، إلى ماذا تلمحين؟!

ـ لا يهمّ، اسمعي، ركّزي في عملك، أنتِ ما تزالين في مرحلة اختبار.

قالتْ لي ذلك ومضتْ نحوَ أحدِ الرفوف، فهمتُ تلميحاتها، احتملت فضولها لأنّي أحسستها صادقةً في نصحي، لكنّ الذي أزعجني حقًّا، هو أنّها اكتشفتْ اهتمامي بغسّان بهذه السهولة! هل هي متفوّقة الذكاء، أم أنا مَفضوحةٌ للغاية؟!

ورقةٌ من مذكّرات غسّان..

لماذا هذا التردّد؟ لم أنا خائفٌ من التحدّث مع كمال عن فتاة المكتبة؟!

تفقدُ الصداقة معناها حين يتردّد الصديق في البوحِ لصديقه بما يختلجُ في نفسه، أرى أنّه مِن الأفضل ألّا أخبره الليلة، حتماً سيقول لي: متى تكفّ عن هذا العبث والمجون؟!

حدثتُه قبل عدة أيام عن فتاةٍ ثرية تغازلني، عرضت علي مُمارسة الدّعارة الذّكورية مدفوعةَ الثمن معها، ظلّت تلحّ عليّ، وتُغريني بالهدايا لأقبل بمضاجعتها. حاصرتني، أحالت عيشي كابوسًا لا يُطاق حتى خلّصني محمودُ منها، إنْ حدّثتُ كمال اللّيلة عن كاميليا؛ فلن يدع الأمر يمرّ بسلام!

لكنّي أريد أن أفكّر معه بصوتٍ عال، لقد رفضتُ عرض الثرية الماجنة دون تردّد، أريدُ مشاركته هواجسي حول فتاة المكتبة.. أنا على يقين بأنّي رأيتُها من قبل، لكنْ أين؟

عصرتُ ذهني لساعات دون جدوى، لمتُ نفسي طويلًا لأنّي لم أستطع تذكّر.. أين، ومتى رأيتها؟!

في منتصف الليلة التالية للقائنا، أفقتُ لأجدَ فمي جافًّا من شدة العطش، غادرت فراشي، مشيت نحو الثلاجة، صببتُ كأسًا من الماء البارد، بعد أول رشفة، طاف بخيالي وجهُ زينب، أطلقت صيحةَ نصر:

ـ آه، تذكّرت، إنّها زينب، كاميليا تشبه زينب.. لماذا لم أخبرْ كمال عن قصّتي مع زينب؟ هل تعمّدت تحاشي ذكرها؟!

كانت زينب ابنةَ جيراننا، ورفيقتي المفضّلة في مرحلة الطفولة، شريكة لعبي، الفتاة التي ألفتها من بين فتيات الحي، في الواقع كان جميعُ رفاق طفولتي من الصّبيان المشاكسين، وكانت زينب الفتاة الوحيدة بينهم.

انتهرتني أمّي مرارًا بسبب صُحبتي لها، صرختْ في وجهي ذاتَ مرة:

ـ ما الذي يُعجبك في تلك القرويّة اللئيمة؟!

تعتقد أمّي جازمةً بأنّ القرويّات لئيمات، تردّد دوما «كيدهنّ عظيم»!

هي عانت في بدْء زواجها من أبي من بعضِ مكائد عمّاتي، اللاتي كرهنَ بشدّة أن يتزوّج شقيقُهنّ الوحيد بفتاةٍ من المدينة، لكنّ هذا لا

يعطيها الحقّ في إصدار هذا الحكم القاسي وتعميمِه على جميع القرويّات. عمومًا، الكبار يملكون خبراتٍ لا يُستهان بها، سألت نفسي لمرّات: هل أمّي محقّة في حُكمها؟

وصلت يومًا لنتيجة، قد تكون محقّة بالفعل، الأنثى القروية تعيش في بيئة ذكوريّة ظالمة، مضطرّة باستمرار لاستعمال قدراتها الكيديّة؛ كي تنجو من تسلّط الرجل القروي ونرجسيّته الفجّة، هي تحتال كثيرًا كي تحصل منه على بعض حقوقها.. المرأة في بيئة القرية تمثّل العنصرَ الأضعف في منظومة المجتمع، هي كائنٌ مطحون، مخلوقٌ من الدرجة الثانية أو الرّابعة بعدَ الرجل والأرض والبهائم. هذا شيء لمستُه بقوة من خلال أحاديث والدي عن الحياة في القرية، ورأيتُه في ثنايا معاناة صديقة طفولتي زينب،

كانت تجربةُ فقْدِها مُرّة ومؤلمة جدًّا!

كانت زينب طفلة طيّبة وساذجة، تتصرّف ببساطة وعفويّة، ربما لو بقيت حتى تكبرَ وتصبح امرأةً سوف تتضخّم لديها سمةُ الكيد القروي، قد تغدو لئيمة مثل جميع القرويات كما تعتقد أمّي.

مرّ أكثر من عقدٍ من الزّمن منذ أن فارقتني زينب.. كبرت وصرت شابًّا، انشغلتُ بمفردات حياتي، ونسيت لفترة كلّ تلك القصص التي روتْها لي، اليومَ تقذفني ذاكرتي عُنوة إلى خانة ذكرياتي معها.

في الماضي، بعد أنْ رحلتْ زينب عن دنياي، زارتني في نوْمي كلّ ليلة، تكرّر ذلك لعدة أشهر.. عشت معها ساعاتٍ طوالًا في عالم أحلام اليقظة، تألّمت بشدّة لأنّها تعرّضت لكلّ ذلك الاضطهاد والظلم، ثمّ تغلبت على وجعي، قرّرت أن أتخلّص من ذكرى فقْدِ زينب، مررتُ بمنعطف وعْرٍ بعد موتها ونسيت، لكنْ ها هو وجه كاميليا الصغير يُرجعني إلى تلك الذّكريات الحلوة المُرّة، ملامح وجه كاميليا الدقيقة وتلك العيون المحاطة بهالةِ حيرةٍ لا تغيب، بعثتْ في نفسي – مِن جديد– وجعَ مأساة زينب.. الصفحات تفتح تباعًا، أدلف إليها باندفاع، أعيش بين سطورها.. عندما أسترجعُ تفاصيل ما كانت تقصّه عليّ زينب من أحداث عاصرَتْها في قريتهم النائية التي قدمتْ منها إلى بلدتنا بصحبة والديها وشقيقها الذي يكبرُها بعامين؛ أشعرُ بأني أغيبُ بين دفتي أسطورة خرافيّة، حكايات من عصر الكهوف!

حكتْ لي مرةً عن البائع الذي حاول اغْتصابَها لمرّات عدة.. وفي ظهيرة يوم خريفي في ساعة القيلولة، كادَ أنْ ينال منها بالفعل حين أوى جميعُ أهلِ قرية زينب لمساكنِهم، بعدما انتهوا من تقليب تربةِ أراضيهم وبذْر الحبوب استعدادًا لموسم الأمطار الذي تجاوزَ قريتهم إلى سواها لعدّة مواسم مضت، حتّى قنطوا وظنّوا بأنّ الله غضب عليهم غضبًا شديدًا. اجتمعوا لتأديةِ صلاة الاستسقاء.. مرّت عدةُ أيّام بعدها دون

أن يغاثوا، التزَموا مساكنَهم بعدما أثقلَ اليأس نفوسَهم، في ساعة السكون المشئومة تلك، بدت القريةُ كأنّما خلتْ منَ البشر!

قرصتْها أمّها، قبل أن تخرج بأذنها، وقالت لها بحَزم:

ـ اسمعي يا ابنتي، اشتري صلصة وفلفل وعلبة دخان لأبيك وعودي بلمح البصر، أفهمت؟

رمت زينبُ بتحذيرات أمّها عرضَ الحائط، ركضت في دروب القرية تلعبُ وتمرح، طاردتْ دجاجة بنيّة هربت من قنّ جارتهم، وأعادتها له.. قذفت بالحجارة عشَّ عصافير خالٍ متدلٍّ من شجرة سدر عتيقة فأسقطته أرضًا، تناولتْه بنشوةِ منتصر، ودسّته وسط زنبيل القشّ الذي كانت تحمله، ومضتْ فَرِحة جَذْلة إلى مخزن القرية الوحيد.

عندما اقتربتْ من مخزن عسران، جمدتْ لوهلةٍ حين تذكّرت بأنه فركَ حلمَة ثدْيها بقسوة، وقضمَ شفتيْها بعنفٍ في آخر مرّةٍ أتت فيها للشراء من عنده، لم يخلّصها من بين يديه سوى صوتِ امرأته حين صاحتْ به من شرفة المخزن الخلفيّة:

ـ هيا يا عسران، الغداء جاهز..

لكنْ لا حيلة لها، يجبُ أن تشتري منه ما طلبتْه أمُّها.

قلتُ لزينب وهي تقصّ عليّ ما حدث:

ـ لماذا لا ترسل أمّك شقيقك لشراء حاجاتكم؟!

أجابتني بعد تنهيدةِ بؤس:

ـ هي تدلله، إنه بغيضٌ وكسول.

ـ وكيف تخلّصت يومَها من عسران؟!

ـ عندما وصلت لباب مخزنِه كان نائمًا، بمجرد أن أحسّ بي فتح عينيه، نظرَ لي مثلما ينظرُ ثعلب جائعٌ لدجاجة شاردة، تلفّت يمنة ويسرة، اطمأن بأنْ لا أحد يراه، جذبني للدّاخل بقوّة، هجمَ عليّ مثل الوحش!

ـ ماذا فعلَ بك؟

ـ لا أدري لماذا كان يحبّ فرْك حلماتي، وقضمَ شفتي؟!

حاولتُ أن أصرخَ، فلم أستطع.. أدركت بأنّ زوجته كانت خارجَ بيتهم الملاصق للمخزن، لمحتُ خنجرَه على الطاولة، مددتُ يدي وتناولته، طعنتُه في خاصرته، تدفّقت الدّماء بكثرة، فزعَ عند رؤيتها...

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟!

ـ انشغل بجرحِه، فاستطعت الإفلاتَ من قبضته.

ـ هل مات؟

ـ لم يمتْ، كان جرحًا بسيطًا.

ـ ماذا فعلتِ بعد ذلك؟

ـ أخذت علبة صلصة وعلبة دخان وفلفل، ورميت له بقطع النقود، وفررْتُ قبل أن ترجعَ زوجته، بقيت خائفة لأيام، أتحسّس أخباره، الخبيث لم يخبرْ أحدًا بما حدث!

ـ كمْ أنت شجاعة يا زينب، هو يستحقّ ما فعلته به.

ـ بعدها لم يعدْ يتحرّش بي مطلقًا.. هههههه، هو مجرم.. قذر.. كلّ فتيات القرية أخبرنَنِي بأنّه يفعل بهنّ ذلك، قالت إحداهُن:

ـ عندما أخبرت أمّي بفعلته ضربتني بقسوة، وأقسمتْ بأنّها ستذبحني كما تذبحُ الدجاجة إنْ أخبرت أبي، أو أحد إخوتي بما فعله عسران!

قالت أخرى همسًا:

ـ أهلُ القرية يخافون من عسران لأنّه ساحر.

كنت أصغي لقصصِ زينب بانْدهاش، تخيّلت، لوهلة، عسران طويلًا هزيلًا، على رأسه قرونٌ مدبّبة، وله أنيابٌ طويلة حادّة ومخالب أطول وأشدّ حدّة، لكنّ زينب بدّدت هذه الصورة الذهنيّة من رأسي قائلة:

ـ كان سمينًا، ذا وجهٍ عريض وكرشٍ ضخمة، يوم مات أخذَ ينتفخ، وينتفخ، خاف أهلُ القرية من أن ينفجرَ وينتشر خدّامه من الجنّ بين الناس؛ فركضوا بجثّته للمقبرة دون غسْلها، حفروا له قبرًا كبيرًا يسع ثلاث جثث، قذفوه وسط تلك الحفرة، ثمّ أهالوا عليه التراب بسرعة، وهربوا دونَ أن يصلّوا عليه!

ثورةٌ في الجامعة..

الأملُ كلمةٌ مشرقة، يتّسع الأفق بسطوة أنوارها؛ فيشعّ الشعور بقوةِ اليقين بأنّ الحلم أصبح قرينَ اللحظة الآتية..

الأملُ كذبة التفكير الإيجابي الكبرى، غيْر أنّها الكذبة الأرْوع على الإطلاق.!!

الأملُ عقدُ لؤلؤ، يزيّن وجهَ الرّغبة الساذجة المنفلتة من قيْد الممكن، والمعقول،والواقعي، ويصيّرها جذّابة آسرة.

كلّ شيء مُحال يصبح بفضلِ طيف الأمل، كأنّه حقيقة ماثلة لها سلطةٌ على السلوك.

بالأمل نغذُّ السير حثيثًا نحو قطفِ حلمنا، عندما يحدوكَ الأمل بأهزوجته المُسكرة، المذهبة للوعي الكامل.. تنفكّ مِن قيْد الوجل، وتنطلقُ خلفَ وميض يتألّق في الأفق، يدعوك للسّير خلفَه هامسًا: ولمَ لا؟! قد أفلح.. هذا شيءٌ مُمكن، وقد حدث قبلُ للبعض!

الأملُ صديقُ البؤساء المنكوبين، المنكسرين، طوقُ نجاة الغارقين في لجّة الألم من كثرة صفعات القدر القاسية.

رفيقٌ ملازم لأصحاب القلوب الطيّبة البريئة، الذين ينظرون إلى طيفه المُبهج بوداعة، ويصدّقون همساته دومًا، وينتظرون بحماسٍ غدًا مختلفًا عن الأمس الموجِع.

هو ابتسامةٌ بلْهاء تلمعُ على شفة قضمَها شقاءٌ قديم، لوحةُ وهمٍ يرسمها الأمل بعبقرية الساحر المُتمكّن على سحنة سفعاء!

الأملُ مع غياب الأسباب، قد يعدّه البعض حمقًا مركّبًا، وقد يكون كذلك إلّا أنّه أرحم بكثيرٍ من صحبة اليأس القاتل.

كلّ يوم أمضي فيه إلى الجامعة، أقضي دقائق سيري في غياب مع حبيبي غسّان، مستمتعةً بحلم جميل، يكلّله طوقٌ مُزهر بالأمل، كلّ صباح أراني عروسًا أزفّ إليه.. كلّ صباح أمرّ بمحلّ لبيع أزياء العرائس، وأنتقي واحدًا مختلفًا؛ لأصوغ مشهدًا مغايرًا! وهكذا تتكرّر الحكاية التي لا أملّها مطلقًا، يتوقّف العرض حين أصل إلى بوابة الجامعة، لكنّي اليوم أفقتُ من حلمي على هديرِ ضجيج.. فجِعْت وأنا أدلُف من خلال بوابة الجامعة بمرأى ساحتِها مزدحمةً بحشدٍ هائج.. شققتُ طريقي بينهم بصعوبة، ما الذي يحدث في الجامعة؟!

إنّهم جمهرةٌ من الطلاب والطالبات تقف وسط باحةِ الجامعة تردّد هتافات رفضٍ وتنديد، لم أفهم ما الذي يريدونه تحديدًا..

توقّفت بدافع الفضول محاولةً اسْتجلاء الأمر، مسحتُ بناظري المكان بحثًا عن سميرة، رأيتُها تجلس في الخلف قريبًا من السور على أحدِ الكراسي الخشبيّة، تقضمُ شطيرة وتشرب عصيرًا.. بدتْ غيرَ مُبالية بما يفعله حشدُ الغاضبين!

مضيتُ نحوها.. وصلتُ لمكان جلوسها بصعوبة، جلستُ إلى جوارها وسألتها:

ـ ما الذي يحدث هنا؟!

هزّت كتفيها ثمّ:

ـ مجانين!

ـ مجانين، مَن همُ المجانين، طلاب الجامعة؟!

ـ أجل، مجانين!

ـ لماذا تقولين هذا عنهم؟!

ـ ماذا تسمّين مَن يريد مَناطحة غولٍ ضخم، أليس مجنونًا؟!

ـ غول! أنا لا أدري عمّا تتحدّثين، ما الذي يريدُه هؤلاء المتجمهرون في ساحة الجامعة؟!

ـ يريدون إسقاطَ رئيس الجامعة.

ـ أوه، لكنْ لماذا؟!

ـ يقولون بأنّه فاسد.

ـ وهل هو فاسدٌ حقًّا؟!

ـ بالتأكيد، رائحةُ فساده تزكُم الأنوف!

ـ سحقًا، إذًا.. لا بدّ أن يُقالَ من منصبه، كيف نقبلُ باستشراء الفساد في أعلى مؤسسةٍ علميّة في البلد؟!

ـ ههههه، أنت مسكينة جدًّا يا عزيزتي، الفساد أخطبوط ضخم، رأسُه هناك على قمّة الهرم، وأياديه قابضة على أكثر المؤسسات حساسية وأشدّها تأثيرًا!

ـ إذًا، لا بدّ من قطع الرأس.

ـ صدقت، هذا هو الحلّ الجذري لمشكلة الفساد.. هيا انهضي، انضمّي إليهم، قفي بينهم خطيبًا، وقولي لهم ذلك، هيّا أروني كيف ستقطعونَه؟!

ـ ماذا، أنا!

ـ هل أنت خائفة؟!

ـ لست خائفة، لكن...

ـ لكن ماذا؟!

ـ هذا فعلٌ خطير، بصراحة هو أكبرُ من قدرتي!

ـ حسنًا، رحمَ الله امرأ عرف قدرَ نفسه.

سكتْنا لوهلة، ثمّ أطلقت سميرة تنهيدةً حرّى، وقالت وهي تضمّ حشدَ الطلاب بعينيها:

ـ انظري إليهم، أليسوا رائعين؟!

ـ هيه، ما بك؟ ألمْ تقولي قبلَ قليل بأنّهم مجانين!

ـ شعرةٌ واحدة فقط تفصل بين العبقرية والجنون، هؤلاء هُم زُبدة المجتمع يا عزيزتي، هُم حصادُ الأمس وثمرةُ اليوم وأملُ الغد، جنونهم سرّ الحياة النّابضة.

ـ لقد حيّرتني بتناقضاتك، مرةً تذمّينهم ومرّة تمتدحينهم!

ـ كلّ شيء في حياة العرب مُتَذبذب، مُرْتبك، مُحيّر، هؤلاء الطلاب مثلًا هُم الزّبدة والغثاء معًا، هُم النوابغ والسفهاء المجانين، هُم كلّ ذلك، وأنا أرضى عنهم تارةً وأغضبُ من بعض سلوكياتهم تارةً

أخرى.. أتذمّر من رعونَتهم، وآمُلُ أن ينجحوا في مَسْعاهم، ساخرة من حراكهم ومُعجبة به.. يائسة من نتائجه ومتفائلة!

ـ كفى، كفى، هذا كثير، سأنفُذُ بعقلي.. الجلوس معك أسهلُ طريقة للجنون!

قلتُ لها ذلك، ووقفت لأمضي نحو عملي، تشبّثت بيدي ثمّ:

ـ إلى أين؟ هل ستنضمّين إليهم؟ هذا ليس من شأنك..

ـ بالتأكيد لن أنضمّ إليهم، ليس لأنّي جبانة، أو لأني اقتنعت بما قلتِه عنهم وعن الواقع المُتَذبذب؛ بل لأني لستُ على يقين مِن دعواهم، أنا أحترمُ عقلي، لست ريشةً تتطاير في مهبّ كلّ داعٍ وناعق، ثمّ إن لدي الكثير من المهام عليّ إنْجازها اليوم، العملُ في المكتَبة مرهقٌ للغاية.

ابتسمتْ لي سميرة بإعجاب، ودَّعَتني بإيماءة رضا، مشيتُ نحو المكتبة وعيناي تتفحّص الوجوه، هل غسّان معهم؟

عندما دخلتُ للمكتبة رأيته جالسًا في ركن بعيد عن مكتبي، منكبًّا على مصفوفةِ كتب، يقلّب ناظريه فيها تارةً وفي كومةِ أوراقه تارةً أخرى!

تنفّست الصعداء، لا أريدُ أن يتسبّب لنفسه بأيّة متاعب..

توجّهت بهدوء صوبَ مِنضدتي، فتحتُ جهاز الحاسوب لأبدأ عملي، كانت المكتبةُ شبهَ خالية، التفت لأجدَ مكتب مدير المكتبة خاليًا أيضًا..

يبدو أنّ الجميع متجَمْهر في ساحة الجامعة. كان ثمّة جمهرة من طلاب الجامعة غاضبين جدًّا، انقسم الأساتذة إلى مؤيّد للحراك الغاضب، وآخر متردّد خائف، وبمقابل جمهرة الحِراك الغاضب وقف جمعٌ غفيرٌ من الطلاب وعددٌ قليلٌ من الأساتذة مُعلنين شجبَهم للحِراك المطالب بإقالة رئيسِ الجامعة، تبدو ثورةً مكتملةَ الأركان!

فرقعتُ أصابعي لعلّ غسّان يشعر بوجودي، ترى فيما هو غائب، كيفَ لم تثرْ هذه الفوضى العارمة في الجامعة اهتمامَه؟!

جاءت هالة، الأستاذةُ المعيدة في قسم الصيدلة، والمشرفة على بحث تخرّجه، تحدّثا لبعض الوقت، تناقشا بهدوء وهُما يقلبان كومةَ أوراق البحث، بعد مضي نصفِ ساعة وقفتْ هالة بتخشّب، قبل أن تغادرَ قالت بصوتٍ عميق:

ـ جيّد يا غسّان، قطعت شوطًا كبيرًا في إعداد البحث.

ـ الشكر لك يا أستاذتي، هذا بفضل جهودك.

ـ بل بفضل اجتهادِك، استمرّ هكذا.. أنت شخصٌ مثابر ومتميّز، أتمنّى لك التوفيق في جميع مناحي الحياة.

تلألأ وجهُ غسّان سرورًا عند سماعه تلك العبارة من هالة التي ينذُر أن تقولَ مثلَها لأحد!

التفتتْ هالة نحوي، وابتسمت لي ابتسامةً عريضة، غادرت، ملوّحة بكفّها لي بالتحية، عجبت لذلك، هي اليوم لطيفة أكثرَ من أي مرّة سابقة، ما الذي جدّ عليها، تبدو مختلفة!

لملمَ غسّان أوراقَه، أعاد الكتبَ إلى الرّفوف المخصّصة، استدار ومشى نحوي مشيةً متبخْترة، وابتسامةٌ عذبة تنبعثُ من مبْسَمه، تزيد جبينَه توهّجًا، بدأت دقّات قلبي تتعالى، تزاحمتِ الأفكار في ذهني، تداعتِ الأماني على قلبي، اكتظّ شعوري بالأحاسيس المُرتبكة، عندما كاد أن يبدأ الحديثَ معي، وكادَ قلبي يطير سرورًا، دخل علينا شريفُ فجأة، وقبضَ على كفّه قائلًا:

ـ لماذا أنت هنا؟!

انزعج غسّان، وقال له بنبرةٍ ساخرة:

ـ وأينَ يجب أن يكون طالبُ الجامعة المُنهمك في إعداد بحث تخرّجه؟!

ـ ثمّة ثورة في الخارج، ألا تسمع؟!

ـ وما شأني بما يفعلون؟!

ـ تعالَ وقفْ معنا، كثّر عددَنا فحسب.

ـ حسنًا، سآتي، اسْبقني وسوف ألحقُ بك.

ـ لا تراوغ، لن أذهبَ بدونك.

ـ أمري لله، سأمضي معك، مع أنّي غير واثق من جدوى ما تفعلونه.

ـ ليس كلّ مَن يقف في الساحة مقتنعٌ بالفكرة، في كلّ ثورة ثمّة رؤوس وثمّة أذناب.

ـ وهل تراني ذنَبًا؟!

ـ لا تقوّلني ما لمْ أقل، الذي قصدتُه بأنّ العديد من الطلاب خرجوا لمساندتنا وهُم غيرُ متأكّدين من نجاح هذه الثورة مثلك تمامًا، خرجوا كمُساندين للمحرّكين لهذه الثورة.

ـ عمومًا، سامحك الله يا صديقي، مشكلتي هي أنّي أحبّك، ولا أطيق إغضابَك.

لم يعلّق شريف على عبارة غسّان الأخيرة، تأبّط ذراعه، ومضى به حتى أوقفَه بين جمهرة الطلاب الغاضبين.

ورقةٌ من مذكّرات غسان..

يبدو أنّ كلّ تجربة قاسية تجتاحنا، نصارعُها، ثمّ ننفيها إلى خانة النسيان؛ لننفي معها جزءًا من ذواتنا.. ونفقد بذهابها إلى هناك حيزًا من وجداننا، ثمّة تجارب تعصفُ بنا كإعصار، تغيّر مسار حياتنا.. تبدّل أسلوب تفكيرنا، وتحرفُ زوايا نظرنا. بعدها، قد ننكرُ أنفسنا، نتُوه عن هويّتنا لزمن!

الناس يردّدون منذ زمن مقولة «كلّ ضربة لا تقتلك تقوّيك»، لكنني مؤمن بأنّ القضية ليست مختزلَةً بضربة تقتل أو تقوّي، القضية أعمقُ من ذلك، وأبعدُ شأوًا؛ لأنّ الأثر في كثير من الأحايين يضعُ وسمًا على الروح والنفس والقلب، وهذه جواهر لا يمكنُنا إدراكُ مدى تأثرها بالتجربة، ولا نستطيعُ قياس حجم النُّدب الحاصلة فيها، بذات المعايير التي قدْ نقيس بها أثرَ ضربة تقعُ على الجسد!

ماذا لو امْتلكنا الشجاعةَ الكافية لفتح خزائن خانةِ النّسيان وبعثرة الأوراق المطويّة فيها؟ ماذا لو اسْتطعنا البدءَ بكشف حسابٍ للتدقيق في هذه التراكمات؟ ربّما بعدها ستعود إلينا أبعضُنا التي فقدناها، وسنسترجعُ ذواتنا القديمة، ستحيى فينا من جديد مساحاتٍ قُمنا بوأدها في قاعِ وجداننا، بمحاولاتنا الحمقاء للهروب مِن ذكرى مؤلمة.

سميرة وكاميليا.. صديقتان..

لن أخجلَ مِن القول بأني بذلت جهدًا في التقرّب من سميرة، لم يدُرْ بخلدي لوهلةٍ بأنّ حبّي لها وإدخالها إلى حياتي، سيكون الدافعَ الأكبر الذي يجعلني أكشفُ لغسّان عن طرفٍ من حقيقتي!

تقرّبت إلى سميرة برغبةٍ صادقة للحصول على صديقة، لم أفعلْ ذلك مع أيّ أحدٍ من قبل، أظهرت لها اهتمامًا مبالغًا فيه، قدمت لها الكثير من الخدمات في البحث عن كتب، وتحضير ملازم لكي أحوزَ على رضاها وأفوزَ بها صديقةً حميمة لي..

فعلت ذلك لأنّها بدتْ لي إنسانة جادّة.. واثقة وصريحة، هي مختلفة كثيرًا عن الأخريات التي عرفتهنّ في معهد الحاسوب واللّغات.

كان لدي مجموعةٌ من الزميلات في برلين، لم ترتقِ علاقتي بهنّ لمرتبة الصّداقة، كنا زميلات دراسة فحسب، اهتماماتهنّ تفصلني نفسيًّا عنهن، جوالاتُهنّ مكتظّة بمواقع الأزياء والطبخ والنّكات السمجة، كانت «سجى» مدمنةَ دردشة، «صافي» مولعةٌ بالتجول في صفحات نجوم

الفن، «رغد» مهووسةٌ بالموضة والتقليعات الغريبة، لن أنسى عندما غابتْ عن المعهد في إجازةٍ طويلة غير مبرّرة، ثمّ عادت، كمْ صُعقت لمرآها، لقد غيرت لون جلدِها الأبيض إلى اللون البنّي، وعلقت خرزةً ذهبية على شفتِها السفلى!

تحلّقنا جميعنا حولها، عندما رأتني أكثرهنّ اندهاشًا، همست لي قائلة:

ـ علقت واحدةً مثلها على....

وقعت على الأرض مُنهارة عند سماعي ذلك منها، وغرقَ الأخريات في الضّحك.

بعدما أفسحتْ سميرة لي المجالَ لأغدو صديقة لها؛ عرفت بأنّ حكمي عليها كان صائبًا..

إنها فتاةٌ رائعة.. نشيطة ومُنْجزة.. طيبة القلب رغمَ البرودة التي تغلّف سلوكياتِها، موسوعة مُتنقّلة، لديها كمٌّ كبير من المعلومات التي لم أطّلع عليها من قبل، ثقافةٌ متنوعة، بزخمٍ مُدهش!

يقال بأنّك عندما تحيطُ نفسَك بأصدقاء ذي عقليّات مختلفة، وثقافات متنوعة تضيفُ لعقلك عقولًا، وتثري رصيدَ معارفك.. قالت لي مرّة، ونحن نحتسي القهوة في استراحة الجامعة:

ـ يظنّ كثيرٌ من البشر بأنّ المظهر الخارجي.. طريقة الكلام.. نوع التعبيرات هو ما يخلقُ التّجاذب بينهم.. لكنّ هذا حكم غير دقيق.

ـ ربّما، برأيك كيف يحدثُ التجاذب؟!

ـ اسمعيني يا كيمي، هذا هو اسم الدّلع الذي منحتني إيّاه سميرة، الكيمياء هي الشّفرة السريّة التي تخلق هذا التجاذب، لكلّ إنسان منا كيمياء جسد خاصّة، تميّزه عن غيره، إنّها شيء يشبهُ البصمة، هذه الكيمياء عالمٌ فوق حسّي، لا يدرك كنهَه الكثيرون!

دهشتْ عند سماعي ذلك منها.. سكتّ أقلّب كلامها في ذهني، شعرت سميرة بحيرتي تجاه ما قالته، ضربتْ على جبيني بلطفٍ وأردفت:

ـ أنت مثلًا يا كيمي، ألا تشعرين بأنّك تملكين كيمياء جاذبة جدًّا؟!

تفاجأت، هززتُ رأسي بتعجّب، ثمّ:

ـ ماذا، أنا؟.. لا.. مطلقًا، لم أفكّر بهذا، في الحقيقة هذه معلوماتٌ جديدة، لم أسمعها من قبل!

ـ لولا أنّ كيميائك قويّة جاذبة لما أفلحتِ في تبديد الحواجز التي أحيط بها نفسي.

ـ ولماذا تحيطين نفسَك بحواجز؟ هل تكرهين الناس؟!

ـ لا علاقة لمشاعر الحبّ والكراهية بذلك، معظمُ الناس مزعجون، وأنا منشغلةٌ جدًّا بقراءاتي، وببحث الماجستير..

ـ وماذا عن هالة؟!

ـ أوه، هالة.. ومَن مثلها! إنّها صديقة العمر، ثمّ هي شريكتي في البحث.

سكتتْ سميرة بغتة، تنحنَحَت وحاولت تغْيير منحَى الكلام، بدتْ مرتبكة، كأنّما كشفت سرًّا بحديثها عن البحث!

ألححْتُ لأعرف المزيد، قلت:

ـ أيّ بحث هذا الذي يجمعكما؟! هي تحضّر الدكتوراه وأنت تحضرين الماجستير، أنت كما فهمت في فرع الكيمياء، وهي في فرع الصيدلة!

ضحكت سميرة بتصنّع، ثمّ:

ـ كلّها فروع تؤدي إلى أجساد البشر..

ـ لماذا تتكرّر مفردات الجسد في كلامك كثيرًا؟!

ـ لأنّه يحوي سرّ الحياة. هل سبق أن رأيتِ الهالة الأثيرية التي تحيط بجسد الإنسان؟

ـ سمعتُ عنها مرّة، لكني لم أرَها، لم تثرِ اهتمامي.

ـ هل مررْتِ بتجربة حسّ قويّة، لا إرادية؟!

ـ سؤال غيرُ مفهوم، وضّحي لي أكثر!

ـ مثلًا، هل مررْتِ بمنطقةِ خطر، وفجأة تحرّك جسدُك لا شعوريًّا لتفادي الاصطدام بشيء ما كان سيتسبّب لك بأذى؟!

فكّرت قليلًا ثمّ:

ـ نعم، تذكرت، حدثَ ذلك مرّة، كنت أسير على حافة الشارع، وعندما اقتربتُ من معمل للحِدادة يقع على الجهة اليمنى ارتفعتْ كفّي لا شعوريًّا وأمسكتْ بحديدة رفيعة جدًّا، كانت مشرعة من تلك الحدادة بمحاذاة عيني، لم أرَها، لو لمْ تتحرّك يدي وتمسكُ بها لكنت الآنَ عوراء، أو في عداد المكفوفين، هههههه..

ـ لم يحذّرك أحد، ولا حتى صوتٌ انبعث من داخلك؟!

ـ مطلقًا، ولم أرَ تلك الحديدة قبلُ، ولم أشعرْ بها، حدثَ كلّ شيء كلمح البصر!

ـ هذا بعضٌ مِن مهامّ الهالة الأثيرية التي تحيط بنا، هي شفرة جسدٍ وطوق حماية، إنّها تشبه الطبقات التي تحيطُ بكوكب الأرض لحمايته، وهي من عناصرَ كيمياء الجذب التي قصدتها..

ـ واوو، بدأت أحبّ تخصصك.. هل تقومين ببحوثٍ خاصة في هذا الشأن؟!

تردّدت هنيهات قبل أنْ تقول:

ـ لا، لا تبدئي بممارسة التطفّل الأنثوي البغيض.

ـ ألسنا صديقتين؟!

ـ هيّا كيمي، توقّفي عن ابتزازي عاطفيًّا.

ـ ماذا..؟..ابتزاز! ألا ترين بأنّها كلمة كبيرة جدًّا، أحيانًا تقذفين بالكلمات أحجارًا تشجّين بها رأسي!

ـ لا تغضبي، حبيبتي أنتِ يا كيمي، أعدكِ بأنّي سأخبرك في يومٍ ما بتفاصيل أكثر عن بحثي.

أقبلتْ هالة علينا من بعيد، هبّت سميرة واقفة لاستقبالها، تعانقا بحميميّة، مدّت لي هالة كفًّا دافئة، ابتسمت لي بحنوّ، وجلست بجوار سميرة.

هالة تبذخُ في التلطّف معي يومًا بعد يوم، هل سنصبح صديقتين؟

انصرفتْ سميرة بالكليّة نحو هالة، شعرتْ لوهلةٍ بالغيرة منها، سميرة لا تمنحني هذا الدفء في العلاقة كما تفعل مع هالة، متى سيصبح لي عند سميرة ذاتُ المكانة التي لهالة؟!

ورقةٌ من مذكّرات غسّان..

في أعماق كلّ واحد منّا ثمّة مساحات مُبهمة، نخفي فيها شخوصَنا القبيحة، ربّما نخفي طرفًا من أحزاننا، شيئًا من ضعفنا، هفواتنا، نفوسنا الدنيئة.. وهناك أيضًا توجد كواكبُ فسيحة مُشرقة، أسمّيها «بلاد الآمال»، فيها كوكبٌ صغير جميل، تمرحُ فيه أمنياتنا المعضلة.. تنتظر المطر لتغرسَ بذورَها في تربة المُمكن، وتغادر حيّز المستحيل.

وفي كوكب آخر، ليس بالبعيد، يسكن حلمٌ كبير، يتلهّف للإعلان عن نفسه في مهرجان البوح، وثمّة أهداف نبيلة وغايات سامية، ألفُ حلم وحلم، وأمنيات شتى، وأقاصيص جميلة.. مجرّات ومجرّات، تحوي الكثير من الأحداث، والرؤى، والرّغباتِ المكبوتةَ في أعماقنا، نروحُ ونغدو معها في عالم الخيال.

تتشعّب وتجسّد كونًا كبيرًا، بشرٌ كُثْر يجيئون ويذهبون في هذه المجرّات، التي لا نمَلّ من زيارتها في شتّى مراحل أعمارنا، يا لَهُ من كوْنٍ شاسع، ذلك الذي يسكننا، تُرى أيّ الأكوان أعظم: الأكوانُ الداخلية،

أمِ الأكوان خارجَ نفس الإنسان؟، سؤالٌ ليس له إجابة!

اليوم وأنا أرى تغيرًا كبيرًا في سلوك ومظهر الأستاذة هالة.. تعبيراتها.. مُفرداتها.. رائحة عطرها.. بريقُ عينيها وهي تتكلّم أو تفكّر أو تتأمّل، تساءلت:

- أيّ عنصرٍ عبقري ذلك الذي انبثقَ منْ كوْنها العميق؛ فأضفى هذه الصبغة الجديدة على شخصيّتها؟! شيء غامض ولد فيها، سحرٌ أخّاذ يصدرُ منها.

كانت الأستاذة هالة- وعلى مدى سنوات الدراسة- تمثّل رعبًا لطلاب وطالبات الدّفعة، قاسية.. صارمة.. مُتحفّظة، ترى ما الذي تسلّل من وجْدانِها إلى ظاهرها، وأحدثَ فيها هذا التغيّر الكبير، والغيْر متوقّع؟!

البارحة، همستُ لمحمود قبل أن نخلُدَ للنوم بدقائق:

ـ ألمْ تلاحظ التغْيير الذي طرأ على الأستاذة هالة؟!

ـ ههههه.. مستحيل، قد يتغيّر موضعُ الأهرامات ولا تتغيّر هالة.

ـ أنت تبالغ لتبرّر فشلَك في الفوز بإعجابها، خسرت رهانًا كبيرًا بسببها.

ـ لا تذكّرني بتلك الحادثة، خسرتُ ساعتي الثمينة، الأوغاد، كانوا يعرفونها قبلي، ومع ذلك أوقعوني في رهانٍ على إغوائها ليسرقوا مني السّاعة، الكارثة أنّي كدتُ أفصَل من الجامعة بسببهم.

ـ لا.. لا تلمْ أحدًا، غرورك هو مَن أوقعَك في هذا الشَّرَك، تحرّشت بها بغباءٍ مُنقطع النظير، حسبت بأنّ جميع الإناث سواء.

ـ جميعُ الإناث سواءٌ عدا السيدة هالة.

ـ لا تنكر أنوثتَها الطاغية لمجرّد أنّك فشلت في النَّيْل منها.

ـ أنوثة..! اسمح لي يا غسّان، أنتَ مُصابٌ بالعمى النوعي، أيّ أنوثة تملكُها هذه الجامدة المتخشّبة؟!

وقتها، تدخّل شريف الذي حسبناه قد غرقَ في النوم، قال بتأفّف:

ـأفٍّ لكما، أيّ نوعٍ من طلاب الجامعة أنْتما؟ هل نسيتما بأنّها أستاذتنا، قليلًا من التهذيب!

شعرْنا بالخجل مِن تعليقه فسكتْنا، كأنّما صبّ دلو ماءٍ باردٍ فوقَ رؤوسنا، لكنّي بقيتُ مهتمًّا بمعرفة أسباب التغيّر الذي طرأ على هالة.

عندما أدخل بطاقة اهتمام بفلان مِن الناس في خانة دماغي، أجدُه يعمل تلقائيًّا لجذب كلّ معلومةٍ عن هذا الشخص، صرتُ أرى الأستاذة هالة في أماكنَ شتّى، لم أكنْ أجدُها فيها مِن قبْل، ألتقي بأناس يسْردون لي معلومات جديدةً عنها، قال لي أحدُ جيرانهم:

ـ هي إنسانة جادّة ومتفوّقة، لكنّها غريبةُ الأطوار، تخيّل أنّها تعشق القرود!

ـ ماذا.. قرود!

ـ أحالت جزءًا من فِناء منزلهم الواسع إلى غابةِ قرودٍ صغيرة، مُحاطَة بشباك مَتينة، تمنح قرودَها جلَّ وقتِ فراغها، كان أخي معجبًا بها، ويفكّر جديًّا بخطبتها، لكنّه تخلّى عن هذه الفكرة، بعدما رآها مولعةً برعاية القرود.

رأيتُ هالة في مقهى سرور مرّات عديدة، تبدو مختلفةً خارج قاعة المُحاضرات، طلّتها رائعة وهي بكاملِ أناقتها، تضعُ على وجْهها القوي الملامح «مكياجًا» ناعمًا، تغرق عينيها البارزتيْن بالكُحل، ترتدي ملابسَ شبابيّة مريحة ذات ألوانٍ فاتحة، تحملُ حقيبةَ يدٍ صغيرة مُزركشة، تضع عطرًا باريسيًّا مزيجَ الورد والخوخ، عرف ساحرٍ يدعوك للّحاق بها.

أحيانًا، كانت تجلس لأكثرَ من ساعة تنتظر مجيء أحدِهم، تعلّق ناظريها على بوّابة المقهى بتلهّف وولع جليّ، وعندما يظهر ذلك المنتظر، تنفرج شفتاها المكتَنزة بابتسامةٍ باذخةٍ تجعلني أتساءل: هل هذه الأستاذة هالة؟!

وذلك المجهول، الذي أخرجَ الأنثى الرقيقة من بيْن سترِ الأستاذة هالة الكثيفة، بدا لي شخصًا غامضًا، مريبًا، مثيرًا للفضول.

العيّنة الأخيرة..

رنّة جوالي تنبعثُ من مكان ما، فتحتُ جفوني بصعوبة بالغة، تحسّست فراشي بحثًا عنه.. ضغطتُ على زرّ الإنارة الخافتة المثبّت على حافة السرير، نظرتُ إلى ساعتي المنبّهة، إنّها الثالثة فجرًا، مَن سيتّصل بي في هذا الوقت؟!

ندمتُ لأني لم أغلقْ جوالي قبْل نومي، شعرت بنغمتِه الناعمة استحالت جرسًا ضخمًا يصدّع رأسي برنينه، غضبت:

ـ مَن هذا الثّقيل، المتطفّل؟!

غادرتُ سريري، قلبت وسائدَ الأريكة، أخيرًا وجدته.. يا للَعجب، إنّها سميرة!

ـ آلو، مرحبًا عزيزتي سميرة، ماذا وراءك، إنّها الثالثة فجرًا!

ـ أعتذر جدًّا، لكنّي بحاجة ماسّة إليك، أحتاجُك في عملية إنقاذ.

ـ إنقاذ مَن؟!

ـ هيّا لا تبدئي بالتّحقيق معي، كوني إيجابيّة كما أحسبك.

ـ حسنًا، أنا لم أقلْ شيئًا، فقط أسالُ ما هو المطلوب مني؟!

ـ أنا في الطريق إليك.

ـ كيف تخرجينَ لوحدك من البيت في هذه السّاعة؟!

ـ كاميليا، ما بك مَصدومة، مُرتبكة، مُشوّشة، كأنّما اقترحت عليك السطو على بنك.

قلتُ لك هي عمليةُ إنقاذٍ عاجلة، ثقي بي، استعدّي للخروج فحسب، سأكون أمامَ بيتكم بسيارتي بعد دقائق، لا تخذُليني، إنّها العينة الأخيرة.

أغلقتُ جوّالي وأنا أسيرةٌ لحالةِ ذهولٍ شديد، هززتُ رأسي، فركتُ عيني، عاودتُ النظرَ في المكالمات المُستلَمة لأتأكّد بأنّه رقم سميرة، همست وتوترٌ مقلِق يهزّني:

ـ إذًا.. هذا واقع، أنا لا أحلم، لكن.. ما الذي تريدُه مني في هذه الساعة؟!

ارتديتُ ملابس ثقيلة، الهواءُ باردٌ خارج المنزل في ساعات السّحر، لو كانتْ أسرتي موجودةً لما تجرّأت على الخروج من البيت في هذا الوقت، يبدو أنّ الرقابة الأبويّة مفيدةٌ رغم إحساسنا بأنّها قيدٌ مزعج.

تسمّرت لحظات على الشّرفة في انتظارها، عندما رأيتُها مقبلة بسيارتها بسرعةٍ جنونية ازددتُ توجّسًا وقلقًا، هُرعت لملاقاتها، انتهبت الدرج ودوّامة تساؤلات شتى تدورُ في خاطري، فتحتْ لي سميرة بوابة المقعد الأمامي قائلة:

ـ ادخلي بسرعة.

ألقيتُ بجسدي على المقعد، ثمّ:

ـ إلى أين ستأخذينَني؟ لم أتوقّع بأنّك مجنونة لهذه الدرجة.

ـ ولماذا استجبتُ لرغبتي وخرجتُ لملاقاتي إن كنت مجنونة بنظرك؟ كاميليا، إنْ كنت قد فقدتِ احترامك لي وثقتك بي؛ فارجعي لبيتك فورًا.

سكتَ لوهْلة ثمّ:

ـ حسنًا، لا تغضبي، لكن أليسَ من حقّي أنْ أعرف إلى أين سنمضي؟!

ـ مهمّة مصيريّة يجبُ أن أقومَ بها قبلَ طلوع الفجر، وأحتاجُ لمساعدة شخصٍ أثقُ به.

ـ ألم يكنْ بوسعك الانتظار حتى طلوع النهار؟!

ـ لا، إنّني أسابق الزمن، كانت هالة ترافقني في كلّ مرة، لكنها لا تردّ على اتصالاتي، تغيّر سلوكها في الآونة الأخيرة، كم أنا قلقة عليها، لكن ليسَ هذا وقت مناقشة سلوكها، إنّه وقت العينة الأخيرة، والتي ستمكّننا من الانتهاء من البحث الذي عكفنا عليه طوال سنوات، لن أغفرَ لهالة إن فاتتني فرصةُ الحصول على هذه العينة، لقد تأخّرت بسببها، إنني أتصل بها منذ العشاء، دون جدوى.

كانت سميرة تتحدّث بسرعة كبيرة، وتقود السيارة بسرعة أكبر، وأنا مَبهوتة، أعاين الموقف بتوجّس، ازدادَ قلقي حين رأيت وميضًا مخيفًا يشعّ من عينيها.

أوقفت سيارتها خلفَ مبنى المستشفى التعليمي التابع للجامعة، يبدو أنَّا وصلنا، قبل أن أنبسَ بحرف قبضت على يدي، وثبتت عينيها في عيني، ثمّ:

ـ كاميليا، أنا أثق بك كثيرًا، ستدخلين التاريخ بمدّك يدَ العون لي، تماسكي وأصغي جيدًا لما سأقوله.

أشارت بيدِها نحو بوابة موصدة، وأردفت:

ـ خلف هذه البوابة تقعُ مشرحة المستشفى التعليمي التابع لكلية الطب.

شهقت رعبًا، وضعت كفَّها على فمي، ثمّ:

ـ اسكتي، ما بك؟ سينكشفُ أمرنا.

هززتُ رأسي بإيماءةِ موافقة، قالت لي بنبرةٍ عميقة:

ـ لو لم أكنْ متأكدة من شجاعتك لما جئتُ بك إلى هنا، نعمل أنا وهالة منذ سنوات في بحث علمي لإنتاج دواء جديد، سوف يُحدث نقلةً نوعية في علاج الإدمان من المخدرات وعلاج المصابين بالاكتئاب النفسي الناتج عن خللٍ يصيبُ كيمياء الدماغ، أحتاجُ لعينة أخيرة من دماغ جثة شابٍّ مُدمنٍ، تجعل البحثَ صادقًا مثبتًا.

أزحت يدَها عن فمي، ثمّ:

ـ ماذا، دماغ شابّ!

ـ صه، اهدئي، ليس شابًّا، إنها جثة.

ـ جثة، وعينة من دماغ ميت، هل جننت؟!

ـ عدتِ لاتهامي بالجنون؟!

كنت مرتاعةً ممّا تفعله، لكنّي استجمعت شتاتَ هدوئي، ثمّ:

ـ عفوًا، اعذريني، أنا مرتبكة.

ـ شرحتُ لك الأمر للتوّ، أوه، أرجوك يا كيمي، الوقت يداهمنا.

ـ هيه، رفقًا بي، سميرة افهميني، أنا لست شجاعةً لدرجة التجوّل بين الجثثِ في ساعة السحر، سأصاب بانْهيار.

ـ مهلًا، ثقي بي، لن أعرّضك لهذا الموقف. أصغي إليّ بهدوء وتركيز، أرجوك يا كيمي، أنا أدفعُ الكثير من المال للحارس ليسمح لي بأخذ عينات من أدمغة ضحايا الإدمان الموتى حديثًا، وكذا المُنتحرين بسبب مرض الاكتئاب النفسي، مجرد خزعة صغيرة من منطقة معينة في جمجمة الميّت، شيء يسير لا يؤثّر، وهي ضرورية لنجاح البحث الذي أقوم به.

ـ تسرقينَ عيّنات من جثث الموتى؟!

ـ ليست سرقة، أنا لست مُجرمة، لكن ثمّة عراقيل تقف أمامي، رئيس الجامعة الفاسد، يسرقُ البحوث المتميزة من الباحثين الشباب؛ ليبيعها بأسعارٍ خياليّة لمراكز بحثٍ أجنبية، السريّة ضرورية في هكذا أوضاع.

كانت الدهشةُ ترسم على وجهي بلهًا، زفرت سميرة ثمّ أردفت:

ـ أوه يا إلهي، ليس هذا وقت سردِ التفاصيل، كان يجب أن أخبرَك المزيد عن هذا البحث قبل أن أطلبَ منك مساعدتي، لكنّ ثقي بما أقوله يا كاميليا، إنّه بحثٌ مهمّ ونافع للبشرية، هيّا بنا، الوقت يمرّ..

اقتنعتُ بما قالته، بدتْ لي صادقة، تنهّدت ثمّ:

ـ حسنًا، أنا أثقُ بك، لكني لن أخطو خطوةً واحدة إلى داخل المشرحة.

ـ لن أجعلَك ترَيْن جثثًا!

ترجّلت من السيارة، وأردفت:

ـ هيّا بنا قبل أن يأتي غيرُنا ويفسد الأمر.

ـ وهل يوجد مَجانين كُثْر في هذه الجامعة؟!

تحرّكت سميرة، ورفعت غطاءَ الخانة الخلفية للسيارة، أخرجت منها صندوقَ المعدات الخاصة بأخْذ العينة وأغلقت الخانة.. مشت نحوي وفتحتْ باب السيارة وجذبتني من مِعْصمي، وقالت بتذمّر:

ـ هيّا بنا.. هذا ليس وقتَ المزاح.

يا لها مِن تجربة مُخيفة! لم يطفْ بمساحات خيالي الشاسعة من قبل شيء يشبهُها!

بدا المكانُ فارغًا باردًا موحشًا، سمعت مواءَ قطط شاردة.. نباح كلاب جائعة، اهتزّ جسدي برعْدَة رهيبة، احتملت كلّ ذلك وتظاهرت بالشجاعة، مشتْ سميرة أمامي بثقة، بدتْ رابطة الجأش غير مُكْترثة، يبدو أنّها فعلت هذا لعشرات المرّات، تحادثت مع الحارس لوهلة،

دسّت في جيبه ظرفًا سمينًا، تحرّك بدوره وفتح لنا بوابةً مصنوعة من الصلب يتمّ التحكم بها إلكترونيًّا، أعطى سميرة مفتاحًا وهمسَ لها بأمرٍ قبل أن نجتاز تلك البوابة للدّاخل، دلفتْ خلفها بخطًى متعثّرة، أوصدَ الحارس علينا البوابة، فاجتاحتني حالةُ هلع، ركضت نحو الباب الحديدي، ضربت عليه بشدّة، صرخت:

ـ لماذا أوصدتَه؟! دعْه مفتوحًا.

كنت أتصرّف بهستيريا فظيعة، كمَن أصيب بمسّ!

أهوتْ سميرة على خدّي بصفعةٍ قوية، أعادت لي رشدي وبعضًا من رباطةِ جأشي.

صاحت بي:

ـ ما بك؟ تماسكي، سيفتحُه عندما أطلب منه ذلك.

هدأت قليلًا، شعرتُ ببعض الخجل، أشحتُ بوجهي عنها، تمتمْت:

ـ أنت قاسية جدًّا.

ربتتْ سميرة على كتفي وضمّتني، ثمّ قالت بنبرة حازمة:

ـ الوقت يداهمنا، لا تخيّبي أملي فيك، سأمشي خلال هذا الممرّ حتى أصل إلى مربّع الثلاجات، ستمشين معي، لا عليك، سأدخلُ بمفردي،

وصل الليلة إلى المشرحة جثّتان حديثتان، إحداهُما لفتاةٍ تعرّضت لحادث، والأخرى لشابٍّ مُدمن انتحر، اتّصل بي الحارس وأبلغني بذلك، وها هو قد أعطاني كالعادةِ مِفتاح الثلاجة.

حمدًا لله، الليلة سأحصلُ على العينة الأخيرة لبحثي، الفتاة لا تعنيني، أريد جمجمةَ الشابّ المُدمن، كلّ ما عليك فعله هو الوقوف خارج بابِ الثلاجات والتيقّظ جيدًا؛ فإنِ ارْتبت بشيء نبّهيني بضرباتٍ خافتة على الباب، هل فهمت؟!

هززتُ رأسي بالموافقة، وأنا أجتهد لحلْب قطراتٍ من ريقي الذي جفّ.

لم أتوقّع بأنّ ما سيحدث بعد ذلك سيكون شيئًا مروّعًا ومربكًا لأبعد الحدود!

مرّت الدقائق بطيئةً كئيبة، وأنا في انتظار خروجها، أخذ الزمنُ يعذبني، يسير متباطئًا محمّلًا بأثقالٍ من الخوف والتوجّس، طفقت أعدّ مربعات البلاط الممتدّ تحت قدمي لعلّني أنفكّ من قيد القلق، بعد أقل من ساعة مرّت كأنّها سنة أقبلت سميرة مُهرولة، كانت في حالةِ صدمة، رأيت شبحَ ذعرٍ مصلوبٍ بين عينيها، تهاوتْ بين ذراعي، صحت فزعًا:

ـ ما الذي حلّ بك، ماذا حدث؟ تكلّمي!

لم تنبسْ، كان الرعب يتراقص بين جفْنيها، قبضت على معدتها متوجّعة، كادتْ أن تتقيأ لعدة مرّات، أعطتني حقيبتها وهي تتوسّل بصوت متحشرج:

ـ أرجوك.. احملي عني الحقيبة وهيّا بنا لنغادر فورًا.

أمسكت بمقبضِ الحقيبة بتقزّز..

اعتمدتْ سميرة على كتفي، وسارت مُثقلة النفس، تغالب نشيجَ نحيبٍ مكبوت.. حينها حسبت بأنّ ما تعانيه شيء معتاد، كانت قبل لحظاتٍ تتعاملُ مع جثة!

قلتُ في نفسي.. يبدو أنّها تشعر بقرف وتقزّز ورغبة في التقيؤ بعد كلّ عملية سحب عينة، هذه حالة مُتوقَّعة، وضعٌ طبيعي جدًّا، لكنّ حديث الحارس جعلني ألغي هذه الفكرة، قال لها متعجبًا حين رآها مُتوعّكة:

ـ ما الذي أصابك يا أستاذة؟ هل شممْتِ رائحة سيئة في الداخل، ما الذي يحدث لك؟!

هزّت سميرة رأسَها بالنفي، ومشت من أمامه، وهي تدفعني دفعًا نحو السيارة، أخرجت المفاتيح قائلةً لي:

ـ تولّي أنتِ القيادة.

ارتمتْ بجسدها على الكرسي الوسط، وهي تتلوّى وجعًا، وتدافع العبرات.. حرّكت السيارة، سرت بسرعةٍ متوسطة فصاحت بي:

ـ ضاعفي السرعة، أخرجيني من هنا.

وبدأت بالانتحاب، ازددتُ تحيّرًا في أمرها.. صرخت:

ـ سميرة، ما بك؟ إنك تخيفينَني، المفترض أنك اعتدت على هذا الأمر، لماذا الانهيار الآن؟!

تعالى صوتُ بكائها، صارت تتوجّع بشدة، تقيأت على الكرسي، حينها توقّفت، صحت:

ـ يا إلهي ما هذا البلاء، ما الذي أصابك؟

لم تجبْني، هجست: ما الذي يحدث لها؟ كانت منذ ساعة رابطة الجأش، متماسكة.

لم أتوقّع حدوث شيء كهذا لسميرة، أنا مَن ينبغي أن يصاب بهذا الانهيار!

خرجت من خلفِ المِقْود، وحاولت إخراجَها من السيارة، لكنها كانت في حالة سيئة، ارتخى جسدها.. أنفاسها تتقطّع، عيناها زائغة،

فقدت جميع قواها.. عدت لخلف المقْود وتوجّهت بها فورًا لأقرب مستشفى.

أصيبت سميرة بحالةِ انهيار عصبي كامل.. هذا ما قاله الطبيب بعد أن كشف عليها، ثمّ سألني:

ـ ما الذي حدث لها، إنها في حالة انهيار مروّع، هل تعرضت لاعتداء؟!

ـ لا، مطلقًا، جاءت لزيارتي ليلة البارحة وعندما تأخّر الوقت قررت أن تبيتَ عندي، كانت نائمة في حجرةٍ مجاورة عندما سمعتها تصيحُ وتتوجع، هُرعت إليها، وجدتها تتقيّأ، عندما خارت قواها بالكلية؛ جئت بها إلى المستشفى.

ـ يجبُ الاتّصال بأهلها فورًا.

ـ لا يمكن.

ـ لماذا؟! هل هي هاربة عندك بسبب مشكلة عائلية؟

ـ لا، لم يحدثْ شيء من هذا القبيل، لكن..

ـ لكن ماذا؟! علينا معرفةُ السبب الذي أوصلها لهذه الحالة المزرية.

ـ ليس لها أحدٌ سوى أمّها.

ـ اتصلي بها، ولتحضر على الفور.

ـ حسنًا، سأفعل، هل حالتها خطيرة؟

ـ لا تقلقي، لقد أعطيتها مهدئًا قويًّا، ستنام لعدة ساعات، ابقي قريبة منها حتى تحضر أمّها، قد نعرف منها الأمرَ الذي سبّب هذا لابنتها!

اتّصلت بأمّ سميرة، اكتشفت بأنها ليست في المدينة، سافرت منذ يومين إلى بلدتِهم البعيدة لرؤية جدّ سميرة الطاعن في السنّ والمريض مرض الموت، عندما عرفت ذلك، سكتُّ ولم أخبرْها بما حدث لسميرة، ادّعيت بأني أتصل لأسأل عن سميرة.. قلت لها:

ـ عذرًا يا خالة، أعلم بأنّ الوقت متأخر، اتصلت بسميرة فوجدت جوالها مغلقًا، لا بدّ أنها قد نامت.

بعدها، اتصلت مرّات عدّة بهالة، لم تجبني، كان جوّالها خارج نطاق الخدمة.

شعرتُ بتوجّس شديد من اختفاء هالة المريب.. بكيتُ بحُرقة لأجل سميرة، توجّعت لها بشدّة، تساءلت: ما الذي رأتْه في المشرحة فأوقعَها في هوّة هذا الانهيار المؤلم؟!

أفاقت سميرة في صباح اليوم التالي، استدعتِ الممرضةُ الطبيبَ الذي جاء مِن فوْره، وأخرجني من حجرتِها ليتمّ فحْصها، دخلت إليها

ملهوفةً بعد خروجِه، فجعتُ وأنا أرى قناعَ شحوب ثقيلٍ يغلّف وجهَ سميرة الطويل. .القمحي اللّون، غارت مَحاجرها، تشقّقت شفتاها، غابَ عن عينيها ذلك البريق المشعّ، تاهَ في غمار حزن مطبق، بدتْ لي سميرة متخشّبة كالجثّة!

كانت تقلّب ناظريها بغياب، بين وجْهي ووجْه الممرضة التي كانت تحقن لها إبرةً في الوريد.. قلتُ لها:

ـ حمدًا لله على سلامتك.

لم تجبْني، لم تبدِ تفاعلًا مع ما يدورُ حولها، لمحتُ شعرات بيضاء تبرق من مِفرق شعْرها لم أرَها من قبل، صعقت، تراجعت خطواتٍ للوراء، هجست: لقد ابيضّ مفرقُ شعرها من هوْل ما رأته في تلك المشرحة اللّعينة.

أنهتِ الممرضة عملَها، وهمّت بالمغادرة، قبضت على يدِها، ثمّ:

ـ ما بها، لمَ لا تتكلم؟ هل ستكون بخير؟

تنحّت بي الممرضةُ بعيدًا، ثمّ همست:

ـ كان الله في عونها، ضغط دمِها منخفضٌ جدًّا، ودقّات قلبها خافتة، حالتها سيئة.

قالت لي الممرضة ذلك ومضَتْ، هجستُ وأنا أمشي نحو سرير سميرة: ما الذي حدث لك يا غاليتي؟! ليلةٌ واحدة قلبت حالَك رأسًا على عقب، كمْ أتمنّى أن أكتشف ذلك الأمر الخفي الذي أفقدك توازنَك.

ذهبَ بصديقتي سميرة الواثقة الشجاعة، وأبدلها بهذا الشبحِ المرعوب.

بتّ أخشى أن تفقدَ حياتها، أو أنْ تصل لحافة الجنون..

شعرتُ بدوار خفيف، أغمضتُ جفوني خشية أن أقعَ على الأرض، تمنيت أن أنامَ وأصحو لأجدَ بأن كلّ ما حدث ليس أكثرَ من كابوس مزعج، تمنيت لو عادتْ عقارب الساعة للوراء ليلة واحدة فقط، لتلك الساعة التي اتصلت فيها سميرة لتطلبَ مني مرافقتها، ليتني رفضتُ طلبها بشدة، ليتني حلْتُ دون ذهابها.. آه، صداع قاسٍ، كمطارق حدّاد تهوي على جمجمتي!

أصرّ الطبيب على أن تبقَى سميرة في المستشفى لثلاثة أيام على الأقل، فبقيت بجوارها، لم أفارقها سوى لجلْبِ ملابس أو شراء دواء، أطعمة، عصائر، امتنعت سميرة عن الأكلِ والكلام، كانت حزينة وفزعة.. كظيمة.. شاردة النّظرات، حقنها الطَبيب بمحاليل تغذية وأدوية مهدئة وفيتامينات مقوّية.

اضطررتُ أن أكذبَ على أمّها حين اتصلت لأكثر من مرّة لتطمئن عليها:

ـ مرحبًا يا خالة، ابقي بجوار والدك كما تشائين، سميرة بخير، أنا معها طوالَ الوقت، هي فقط منشغلةٌ للغاية في معملها الخاص، تعرفينها عندما تنهمكُ في العمل، سوف تتّصل بك عندما تنهي هذا الجزء الهامّ من تجاربِها المعمليّة، كوني مطمئنّة، لن أفارقها.

اطمأنّت الخالة، سوف تبقى إلى جوارِ والدها، إن مات وهي بعيدة فسوف يحتالُ عليها أخوتها الذكور.. قد يخفون الكثيرَ من أموال التركة، هذا ما طلبتْ مني أن أبلغه لسميرة.

انتظرت ظهورَ هالة، لكنّها لم تظهر، اختفت، وسكّت جوالها على غير العادة.

قبلَ أن أتعرّف على سميرة، وتغدو صديقة مقرّبة مني كنت أعيش في دائرة ذاتي فحسب، كنت أظنّ بأنّ مشكلتي هي المعضلة الأعقدُ على الإطلاق.

اليوم أحسّ بأنّ ما حدث لي لا يعدو كوْنه مفردةً صغيرة من مفردات الألم، قياسًا بملْحَمة البؤس التي أوقعتْ سميرة نفسَها فيها لتروي

شغفها بالبحث العلمي، أيضًا لتحقّق رغبتها في الشهرة، قد تجني ثروةً طائلة من بيع الدّواء الذي ستخترعه.. أو ربّما أنها تريدُ أن تصبح امرأةً خالدة، من غير المَعقول بأنّها تحتمل كلّ هذا الشقاء من أجل إنقاذِ البشرية.

تتصارعُ هذه الخواطر في ذهني، طوالَ ساعات جلوسي بقربها في المستشفى، أراقبُها عن كثبٍ وهي ذاهلة.. تذْوي بتهاوٍ مهول.. تحبسُ ذاتها في سجنِ صمتٍ رهيب، تموت ببطء.

أخيرًا، أذن الطبيبُ بإخراجها من المستشفى، موصيًا بإدخالها مصحّة نفسيّة. رفضت مقترحَه متحجّجة بضرورةِ موافقة والدتها على هذه الخطوة، سكت الطبيب قليلًا ثمّ أكّد على ضرورة أن يلازمها شخص مقرّب منها إنْ لم ندخلها إلى مصحّة.. قبل أن نغادر، همسَ لي قائلًا:

ـ كوني شديدةَ اليقظة معها، سميرة تغرق في حالةِ اكتئاب متقدّمة، لم يؤثر الدّواء فيها كما ينبغي، قد تحاولُ الانتحار إن بقيت وحيدة وهي بهذه الحالة.

لم تصدمْني كلماته؛ فأثناء مكوثِها في المستشفى، رأيتها تتصرّف كالمَعْتوهة، إن غبتُ عنها برهة أعودُ لأجدها منكمشةً تحت السرير، أو منْحَشرة في زاوية الحمّام، عندما قلت لها: سوف أعودُ بك إلى منزلكم،

وسأبقى معك؛ تمنّعت بشدة، فهمتُ بأنها لا تريدُ العودة إلى بيتهم، لكن لماذا؟!!

لمْ أسألها، أخذتُها إلى بيتي، مكثتُ بقربها في البيت طوالَ الوقت، لازمتها على مدارِ أسبوع، لا أفارقها إلّا لدقائق معدودة، بعد أن أتيقّن بأنها شربت الدّواء المهدئ الذي وصفَه لها الطبيب، وذهبت في سباتِ نومٍ عميق.

تغيّبت عن عملي دون أخْذ إذن، انشغلتُ تمامًا بوضع سميرة، تحملت وحدي مسئولية رعايتها، لم أشأ أن يعرفَ أحدٌ بما حدث لها.

اتصلَ بي مدير المكتبة، وأبلغني بأنّه تمّ الاستغناء عن خدماتي، قال لي بنبرةٍ جادّة، وبلهجة شديدة:

ـ تغيّبت عن العمل لأكثرَ من أسبوع دون استئذان، وأنت لا تزالين في مرحلةِ الاختبار.. قرارُ الاستغناء عنك نتيجةٌ طبيعية جدًّا، تعالي غدًا وخذي متعلقاتِك، وسلّمي العهدة رسميًّا، وإلّا سوف تلاحَقين قانونيًّا.

كم هو باردٌ وقاس!!

بعد أن تمّ فصلي من العمل، قرّرت مصارحةَ غسّان بكل ما حدث، أنا بحاجةٍ له، هو غايةٌ في الذكاء، حتمًا سوف يجدُ لي حلًّا لهذه المعضلة،

ثمّ إنّني لا أطيق احتمالَ معاناة سميرة بمفردي، وقطعًا لن أرميها في مصحة نفسيّة.. ماتَ جدّ سميرة وانشغلت الأمُّ بمراسيم الدّفن، ثمّ انهمكت في صراعٍ مع أختها على تقسيم التّركة.

قبلَ أن أقرّر الالتقاء بغسّان، توجّهت للجامعة لتسليم عهدتي، فجُعْت برؤية صورة هالة معلّقة على جدار فِناء الجامعة.. مكتوبٌ تحتها (الأستاذة هالة فهمي، أستاذة معيدة في كلية الصيدلة وهي مفقودة منذ أيام، مَن يجدُها أو يعرف شيئًا عن سببِ اختفائها يتّصل بالرقم التالي،..) وثمّة جائزة مالية كبيرة لمَن يجدها.

لطفَك يا ربّاه، ستسوء حالةُ سميرة إن بلغها خبرُ فقْد هالة، ويْلي، ما الذي يحدث؟ أين اختفتْ هالة؟!

ورقةٌ من مذكّرات غسّان..

حظيتُ بفرصةٍ ذهبية لكتابة مزيدٍ من ذكرياتي وخواطري؛ أنا في شبه إجازة، بحثُ التخرج متوقّف عند مرحلةِ الجمع، الأستاذة هالة متغيّبة عن الكليّة منذ يومين، لم تعدْ تأتي للمقهى، سألت عن الشخص المجهول الذي كانت تلتقي به في المقهى، وعرفتُ بأنه أستاذ التشريح في كلية الطب البشري، استقدمَه رئيس الجامعة مؤخرًا؛ ليحلّ مكان الدكتور السابق الذي تمّ الاستغناء عنه منذ شهرٍ دون ذكْر الأسباب..!

كان قرارُ إقالته التعسّفي أحدَ أسباب ثورة الجامعة التي أخمدت بالقوة الناعمة، استغنوا عن بعض رؤساءِ الأقسام، وتمّ فصْل مجموعة من طلاب الجامِعة، سيق بعضهم للنيابة العامة بتُهم مختلقة، هذه تفاصيلُ مؤكدة حصلتْ عليها من صديقي شريف الذّي أفلت منْ تبعات هذه الثورة الموءودة بأعجوبة!

لا يعنيني كثيرًا معرفةَ حقيقة ما حدث، الشيء الذي أثارَ فضولي،

وأوقد سمةَ حبّ الاستطلاع فيّ، هو التغْيير الذي طرأ على الأستاذة هالة، ودكتور التشريح الجديد الذي يبدو أنّها أحبّته!

لست أدري ما الذي أثارَ إعجاب هالة به؟ إنّه كائنٌ قبيح للغاية، أسود، ضخمُ الأنف، جاحظُ العينين، منتفخُ الأوداج والشّفاه بشكلٍ مقزّز، لا أدري لماذا تخيّلته يشبه ذلك الساحر الذي حدثتني عنه زينب؟!

كيف استطاعَ هذا الكائن الغريب أن يستحوذَ على قلب هالة التي لا يعجبها العجب؟! كيف أحبّته بهذه السرعة؟ يبدو أنّني سأقتنعُ أخيرًا بأنّها حقًّا فتاة غريبة الأطوار!

ها هي ذي مختفيةٌ عن الأنظار، أعطتْ نفسها إجازة، هكذا فجأة ودون سابقِ إنذار.. عطّلت سيرَ بحوثنا دون تبريرٍ أو اعتذار، وفتاة المكتبة أيضًا مُختفية! والغريبُ والمزعج حقًّا هو أنّ صديقي كمال هو الآخر مُخْتف! تلحّ عليّ رغبةٌ جامحة منذ يومين لإخبار كاميليا بأنّها تشبه زينب، أنا أثرثرُ مع أصدقائي في مواضيعَ شتى، ويبدو أنّني أتجنّب الحديث عن صديقتي زينب عمدًا!

أحيّد تلك المرحلة الحرجة من طفولتي عن وجداني وعن ذاكرتي وعن أحاديثي.. أهربُ من مواجهة غسق التي أرقني وجودُها في حياتي

لزمن، لكنّي أحسّ الليلة برغبةٍ مُسيطرة تدفعني للكتابة عن مقتل زينب وعن غسق، ربما بعدها سوف أملكُ الشجاعة الكافية للحديث عنهما مع أصدقائي المقرّبين، سأتحرّر من قيود الماضي التي تجلدني بصمت.

في ضحى يوم من أيام كانون الشديدة البرودة، كانت بداية النهاية، كنتُ أسابقُ زينبَ في ممرّات حيّنا، لمحت زينب أمَّها مقبلةً من بعيد برفقة أخيها علي، جذبتني زينب من ساعدي بقوة وتوارينا خلفَ بناءٍ قديم متهتّك الجدران، كان الحي ساكنًا، معظمُ الكبار احتموا من البرد، ولزموا بيوتهم، فتيانُ الحي يقيمون مباراةً في كرة القدم على مساحة ترابية قريبة من بيتنا، أنا لا أحبّ لعبة كرة القدم، ما معنى أن يركضَ الجميع خلفَ الكرة ساعات لإحراز هدفٍ أو اثنين، وفي أحايين كثيرة تنتهي المباراة دونَ إحراز أي هدف!

شيء مملّ للغاية، أنا أفضّل الألعاب التي أحرزُ فيها أهدافًا عديدة، مثل كرة السلة، اليد، الطاولة،

أمّا رفيقات لعبنا، فقد فتشنا عنهنّ أنا وزينب طويلًا، فلم نجدْ لهنّ أثرًا. بعد دقائق من اختبائنا في المبنى القديم المتصدّع الجدران عثرنا عليهن، كان مشهدَ تجمعهنّ صادمًا! كنّ خمس فتيات ما بينَ سنّ الخامسة والثامنة، واثنتين في سنّ العاشرة، جلس جميعُهنّ في إحدى زوايا ذلك المبنى بعيدًا عن أعْين المارة، اجتمعنَ ربّما بسابق تخطيط

لإقامة حفلةِ استكشاف لأعضائهنّ التناسلية، استرقْنا النظرَ إليهنّ مِن ثقبٍ في الجدار، لم يشعرن بوجودنا إلّا بعد أن أطلقت زينب ضحكةً عاليةً، بعدها أرسلْنا سيقاننا للريح فرارًا من غضبتهنّ!

لم نلتفتْ ونرى هلْ لحقْنَ بنا؟ لم نتكلّم أنا وزينب عن هذا المشهد المقزّز، لكني اكتشفت يومَها وجودَ فارق كبير بين الشيء الذي بين ساقي، وتلك الأعضاء التي حدقت فيها مليًّا، غابتْ زينب عني بعدها لعدّة أيام.. وفي ضحى يوم ماطر كنت في حجرةِ نومي، مستلق على السرير.. أترقّب لحظة توقّف المطر لأخرج وأمرحَ مع رفاق لعبي، طرقت جارتنا الثرثارة على باب شقّتنا، فتحت لها أمّي الباب، طفقتِ الجارةُ مِن فورها تقصّ على أمي ما حدث لزينب:

ـ صباح الخير، هل سمعت بما جرى لتلك القروية المسكينة؟

ـ صباح النور، تفضّلي بالدخول، كنت على وشكِ وضع القهوة على النار، ادخلي نشربها معًا وقصّي عليّ أخبارك.

ـ لا.. لا.. أنا على عجلةٍ من أمري، ألم تسمعي بما حدث لزينب؟!

ـ لم أسمع شيئًا، ماذا حدث لها؟

ـ المسكينة.. لم تقترف جرمًا تستحقّ عليه هذه العقوبة القاسية، تأخرت في العودة إلى البيت حتى غابت الشمس، وماذا في ذلك؟

إنّها مجردُ طفلة تحب اللّعب، اختبأ لها أخوها عند باب بيتهم وباغتَها بضربةٍ قوية على ظهرها ثمّ أتبعها ركلًا ولكمًا وعضًّا، أصيبت بإغماءة بعد أن تعب أخوها من ضربها.. نقلوها للمستشفى، بعد ظهور نتائج الفحوصات قال الطبيب بأنّ البنكرياس تلفَ من شدّة الفزع.

بكيتُ بحرقةٍ على زينب عند سماعي بما أصابها، العجيبُ هو أن أمي تألمت جدًّا لما حدث لزينب، لأول مرة لم تنعتْها بصفة القروية اللئيمة، بعدها صارت تتقبّل وجودَها في بيتنا ولعبي الدائم معها.

كنت أتوجّع لزينب، وأنا أراها تحقنُ نفسها بإبر الأنسولين كلّ يوم، جلد بطنِها رقيق للغاية، هزلتْ وخبا مرحُها، قلْ نشاطها، كانت أمي تحذّرني من إطعامها أيّ حلوى، شغفت زينب بالحلوى بعد مرضها، تضاءل جسدُها، غارت عيناها. في إحدى الليالي، أفقتُ على صوت طرقاتٍ على باب منزلنا، فتح أبي الباب، سمعت أمّ زينب ناحبة تتوسّل لأمي كي تأتي معها للقيام بغسل زينب. ماتت زينب، قتلَها ذلك الفتى البغيضُ الذي يقال له أخوها.. جالَ شكٌّ كاذب في خاطره تجاهها جعلَه يحكمُ عليها بالموت البطيء.

فكّرت طويلًا: ماذا لو كانتْ زينب تملك قوة جسديّة ضعف القوة التي يملكها أخوها؟ ربما كانت ستتمكّن من الدفاع عن نفسها، ولن تمرض وتموت..

بعد أيام من موتها، سألت أبي:

ـ لماذا لم يخلق الله للإناث قوةً جسدية ليدافعن عن أنفسهن؟!

نظرَ لي والدي باستغراب، سكت لوهلة متأملًا، ثمّ نظر إلى أمي، وقال مازحًا:

ـ ومَن قال إنهنّ لا يملكن القوة الكافية؟ ههههه.

شاركته أمي الضّحك، نظرت لهما بانزعاج، وقمتُ متوجّهًا إلى حجرة نومي وأنا أمتاز غيظًا، كنت جادًّا في طلب إجابة لسؤالي الذي قابلاه بالسخرية والضحك.

أحسسْتُ بعد كتابتي لتفاصيل موتِ زينب بخفّة في النفس.. شعرت ببعض التحرر.. كانت فكرة البوح الخاص فكرةً موفّقة، لقد غدوتُ أستمتع بكتابة مذكراتي أكثرَ من أي شيء آخر. تعلّقت بأجندةِ مذكّراتي كثيرًا، حتى أني أبقيها معي معظم الوقت.. يبدو أني سأدمنُ عادة الكتابة.

بقي أن أكتبَ فصلًا عن فناء غسق، ذلك الحدث المفصلي، الذي غيّرني، وسار بحياتي نحو قدر مختلفٍ تمامًا..

عندما فتحتُ أجندة مذكراتي هذه الليلة، أردتُ الكتابة عن هذا الحدث الفريد الذي تلا مقتل زينب بأيام، لكنّي وجدت نفسي أغيبُ في ذكرى مقتل زينب.. عليّ الآن أن أخلدَ للنوم، غدًا يومٌ مميّز في حياتي، سألتقي في الصباح بروح الحياة، في مقهى سرور.. لا أصدّق حتى هذه اللّحظة أنّها قرّرت السماح لي برؤيتها، كم أنا شغفٌ لهذا اللقاء، ترى مَن تكون، وهل سأجدُها كما تخيلتها؟!

التاسعةُ صباحًا.. مقهى سرور..

ابتعدَ ذلك المتسكّع من أمامي، بعد أن جلدتُه بنظراتِ اشمئزاز واحتقار، جعلته يشعرُ كمْ هو ضئيلٌ وتافه، ظفرَ بفتاة متسكّعة.. تشبهه، تلاشيا معًا في الزحام.

قلّبت باقةَ الفلّ التي بين يدي، فكّرت: هل يليقُ أن أذهبَ لاجتماعي الأول مع غسّان وهذه الباقة معي؟! يجبُ أن يكون أولُ لقاء يجمعنا خارج العالم الافتراضي محاطًا بقدر كبير من الكياسة والاحترام، حرصتُ على أن تكونَ ملابسي بسيطةً ومحتشمة، ينبغي أن أوحي له بانطباع رسميّ في أول لقاء، يجبُ أن لا أبدو متهافتةً عليه، عليّ أن أحافظ على كرامتي.

مرّت امرأةٌ مسنّة من أمامي، حيّيتها بلطفٍ وقدّمت لها باقةَ الفل، ابتسمت لي وتناولتها وهي تدعو لي:

ـ جعل الله أيامَك بيضاء مورقة، تعبق بالحبّ دومًا يا بنيتي.

واوو، يا لها من عبارات لطيفة، كبارُ السن طيبون عادة، ويفرحونَ بأبسط الأشياء كالأطفال تمامًا. لديّ اعتقاد بأنّ كبارَ السن سعداء، لقد تخلّصوا من توتّر الحاجات، من القلق على المستقبل، من الرغبةِ في التفوق والتميز، مِن روح التنافس المرهقة، تحرّروا من مخاوف رفضِ الآخر لهم، من الرغبة في الظهور، حتى ربّما تخلصوا من الحسد والغيرة، هذا ما أحسبه؛ مع أنّي في الواقع لا أملكُ الجزم بشيء منه قبلَ أن أشيخ!

يا إلهي، الوقت يمرّ وأنا متسمّرة في هذه البقعة من الشارع، حتى متى سأبقى هكذا؟ غسّان ينتظرني، عليّ استجماعُ كلّ ذرة شجاعة لدي، والسيرُ بثقة للقائه.

دلفتُ من أحد أبواب المقهى الذي يحيطه صاحبُه بواجهات زجاجية؛ ليغدو أكثر راحة وأمانًا لشباب وشابات الجامعة، مسحت المكان بناظري، رأيته جالسًا في الزاوية التي أخبرني عنها، يوزّع نظراته على جميع أبواب المقهى، مرّر ناظريه حولي بغياب، لم يثرِ اهتمامَه وقوفي قريبًا من باب المقهى الأمامي، مشيتُ نحوه بخطى وئيدة، لمَحني مقبلةً عليه، ندّتْ منه ابتسامة متحفّظة، لوّح لي بيده محييًا، يبدو أنه لا يرغب في أن أقتربَ منه أكثر، في تلك اللحظة ولد في داخلي شعورٌ بالغيرة من روح الحياة، تقدّمت نحوه بخطى واسعة، وما إن اقتربت منه حتى بادرتُه بالتحية ثمّ جلست قبالته دونَ استئذان، تصرّفت بجرأة استنكرها، ارتبكَ لوهلة ثمّ:

ـ مرحبًا يا أستاذة كاميليا، كيف حالك؟ لم أركِ منذ أسبوع.

ـ مرحبًا بك أستاذ غسّان، الحمد لله.. أنا بخير، انشغلتُ في أمرٍ هام، أرجو ألّا أكون قد أزعجتُك بجلوسي على طاولتك، عذرًا.. لكن كما ترى، المقهى مزدحمٌ وأنا لا أعرف هنا شخصًا سواك.

تنحنحَ ومسحَ بعينيه جميعَ أبواب المقهى، ثمّ:

ـ لا، لستُ منزعجًا.. مرحبًا بك يا أستاذة.

سألته:

ـ هل تنتظر أحدًا؟

ـصديقة، لكنْ يبدو أنّها لن تأتي.

هبّ واقفًا وأردف:

ـ أعتذر، أنا مضطرّ للمغادرة، هل أخدمك بشيء؟

ـ لحظة من فضلك، انتظر، سوف تأتي حتمًا.

ـ ماذا؟!!

اتّسعت أحداقُه، وفغر فاه، وأردف:

ـ وما الذي جعلك واثقة بأنها ستأتي؟

ـ أنتَ تنتظر روح الحياة، أليس كذلك؟ سوف تأتي، فقط امْنحها بعض الوقت.

اهتزّ مندهشًا، تسمّر واقفًا لوهلة ثمّ عاود الجلوس، وأماراتُ التعجب ترتسم على محيّاه ثمّ:

ـ كيف عرفت بالأمر؟ هل أنتما صديقتان؟!

ـ جدًّا، ومنذ زمن بعيد.

ـ حقًّا؟ مفاجأة غير متوقّعة!

ـ وهل هي مفاجأة سارة، أم لا؟

ـ بالتأكيد سارة، أنا فقط مندهش!

ـ ولماذا الاندهاش؟!

ـ لم تكلمني روح عنك مطلقًا.

ـ صدقت، هي تعمّدت ذلك.

ـ لماذا؟!

ـ الأمرُ في غاية التعقيد، ألن تطلب لنا شيئًا؟!

ـ أوه، عذرًا، ماذا تشربين؟

ـ أحبّ شرابَ الليمون.

ـ حسنًا، أنا أيضًا بحاجة لشراب، الليمونُ ملطّف ومهدئ.

أشارَ للنادل الذي تحرّك نحونا بخفّة ورشاقة، طلبَ منه العصير.. قائلًا:

ـ ثلاثة أكواب عصير.

قاطعته:

ـ لماذا ثلاثة؟!

ـ الثالث لروح.

ـ لا داع، اثنان فقط.

ـ لماذا، ألن تأتي؟!

صرفتُ النادل، ولم أجبْه، استعذبتُ العبث بأعصابه لبعض الوقت، ازدادَ استغراب غسّان وبدأ يتضايق من الموقف، شعرت بذلك.. أخذتني رقّة له؛ فقلت:

ـ هل تحبّ المفاجآت؟

ـ ومَن لا يحبها! بشرط أن تكون مُفرحة.

ـ اسمع، لن أتلاعبَ بأعصابك طويلًا، أنا أشدّ رغبة منك في تجاوز هذا الخطوة نحو الحقيقة،

كان يستمعُ لي شاخصًا ببصره، أردفت:

ـ أصغِ لي بهدوء، التي تجلس أمامَك الآن واسمها كاميليا، هي ذاتها روحُ الحياَة، صديقتك في العالم الافتراضي.

اندلقَ فكّه السفلي قليلًا، كان يجلسُ على حافة الكرسي فاستند، ألقى بساعديه على فخذيْه، ونفثَ نفسًا عميقًا، ثمّ:

ـ لا أصدّق، غير معقول!

ـ لماذا؟!

لفّنا الصمت، كسرتُ رتابتَه بقولي:

ـ يبدو أنني خيبت آمالك، هل حطمت لوحة توقعاتك؟

هزّ رأسه، وأرسل ابتسامةً ناعمة، ثمّ:

ـ عفوًا، لماذا تقولين هذا؟! لا.. لا.. مطلقًا، أنا متفاجئ فحسب، ومصدوم.

صكّ جبهته وأخذ يضحك، سألته:

ـ لماذا الضحك؟ ولماذا أنت مصدوم؟!

ـ أضحك من نفسي، التقيتُ بك لأكثر من مرّة في مكتبة الجامعة، لكنّني لم أتوقّع مطلقًا أن تكوني روحَ الحياة!

ـ وما هو سبب الصدمة؟!

ـ مصدوم؛ لأنّ ذكائي خانني.

ـ ما علاقة الذّكاء فيما حدث؟ أنا لم ألّمح لك بشيء عن حقيقتي.

ـ روح الحياة ذكيّة للغاية، لقد غلبتني، لكنْ مهلًا..

ـ ماذا؟

ـ هل عليّ أن أصدّق هكذا بسهولة أنّك روح الحياة؟ ما أدراني قد تكوني...

ـ أكون ماذا؟! مشعْوِذة مثلًا، أم مُنتحلة لشخصية روح؟!

ـ لا أقصد الإساءة، لكن..

ـ فهمتك.. عمومًا لا بأس، مِن حقّك أن تشكّ وتطلب دليلًا.

ـ نعم، أريد دليلًا على صدق ادّعائك.

ـ قلت لك ذات مرة: ألَا يكفي أنني أمْنَحك مساحةً للبوح، للتعري النفسي..

التفتَ يَمنة ويسرة ثمّ:

ـ يكفي، قد يسمعك أحدُهم ويسيء الفهم.

ـ حسنًا، الآن هل وثقتَ وصدّقت بأني روح الحياة؟

ـ أكيد، اسمك الحقيقي جميل، لماذا اخترتِ اسمَ روح الحياة؟! لا يوجد أي تناسب بين اسمك الحقيقي والاسم المستعار!

ـ سبقَ وأنْ سألتني هذا السؤال في الدردشة..

ـ لم أقتنع بتلك الإجابة، قلتِ لي حينها: لأنّ الأنثى هي روح الحياة.

ـ ولماذا لم تقتنع؟ الأنثى هي فعلًا روحُ الحياة.

ـ وماذا عنّا نحن؟!

ـ أنتم جسدُ الحياة، القوة الفاعلة..

ـ أنت تجرّدينا من سمة الإنسانية بقولك هذا، لسنا كائنات جامدة!

ـ لم أقصدْ هذا المعنى، لقد أسأتَ فهمي..

ـ حسنًا، سأفترض أنّي أسأتُ الفهم، هيّا أوضحي لي ماذا تقصدين بأنّنا جسد الحياة؟!

ـ هل يعمل الجسد دونَ روح؟!

ـ قطعًا لا..

ـ إذًا، ما هي مشكلتك مع تعليلي؟!

ـ مشكلتي هي أنّك تريدين القول بأنّه إن غابت هذه الروح فسيفنى الجسد.. إن غابت الأنثى عن حياة الرجل فسوف يهلَك، وهذا افتراضٌ غير صحيح..

ـ الذي أتذكره أنّنا أمضينا ليلةً كاملة نناقش هذه المسألة، ولم نصل لنتيجة مُرْضية لكلينا، هلا توقّفت الآن؟ لطفًا..

ـ حسنًا، أعتذر.

ـ بل أنا مَن عليه أن يعتذر على مقاطعتك، سيكون أمامنا وقتٌ طويل للحديث عن أنفسنا، اليومَ أنا هنا لأطلب منك أن تساعدني على التخلّص من مأزق خطير.

ـ مأزق خطير! لا تقولي بأنّك قتلت أحدهم وتريدينني أن أدفن الجثة!

ـ يُعجبني فيك خيالَك الجامح، وروحَ الدعابة، لكن ليس هذا وقتها يا غسّان.. أنا في حاجة ماسّة إليك، سميرة تموتُ أمام عيني ببطء، وأنا لا أدري ماذا أفعل لإنقاذها..

ـ سميرة! مَن سميرة ؟!

ـ طالبة الماجستير، صديقة أستاذتك هالة.

ـ نعم، لقد تذكّرتها، الأستاذة هالة مُتغيبة عن الجامعة منذ أيام.

ـ هالة مفقودة، ألم تقرأ خبرَ اختفائها المعلّق على بوابة الجامعة؟

ـ لا. أنا مُتغيب عن الجامعة منذ يومين. هذا خبرٌ مفجِع، هل خطفت؟!

ـ ربّما..

ـ كارثة، كيف حدث هذا؟!

ـ بل قلْ مجموعة كوارث.

ـ ماذا تقصدين؟!

ـ سميرة منهارة تمامًا، بل يبدو أنّها شارفت على الجنون، قد تقتل نفسَها في أية لحظة!

ـ ما الذي تقولينه؟ تلك الفتاة الواثقة، القوية الشخصية..، مستحيل!

ـ هيّا، قمْ بنا.

ـ إلى أين؟

ـ إلى منزلي.

ـ ماذا؟!

ـ لا تقلق، أهلي جميعُهم مسافرون.

ـ ولماذا نذهب لمنزلك وهو خالٍ؟!

ـ بماذا تفكّر؟! انفض عنكَ الأفكار السوداء، سميرة عندي في البيت، أعطيتها حبّة مُنوم، يجب أن أعود قبل أن تفيق ولا تجدني، قد تؤذي نفسها.

شعرَ بالخجل من تفكيره، هبّ واقفًا ومشى معي وهو ذاهل، اصطدم بالنادل الذي تأخّر كثيرًا في جلب العصير على غير العادة، انسكبَ العصير على ملابس النّادل، أخرج غسّان من جيبه ثمنَ العصير ووضعه في الصينية ممتعضًا، ومضى معي..

ورقةٌ من مذكّرات غسّان..

كان المفترضُ أن يكون هذا اليوم من أجمل أيام عمري، لقد تحقّق شيء لم أتخيل حدوثه قط، اكتشفت الشخصية الحقيقية لصديقتي روح الحياة!

كانت روحُ الحياة دومًا جميلة التواجد والحضور في كلّ أحاديث الدردشة المُمتعة، وكنت أظنّ بأنها ستبقى مجردَ روح تحيّر خاطري، وتعبث بخيالي في عالم أحلام اليقظة؛ لكنها اليوم تجلّت أمامي، كائنًا فاتنًا، بعينين ساحرتين، وصوتٍ شجي عذب!

لم أفكّر من قبل بروح الحياة كحبيبة، برغم أنّها عندما كانت تظهر بعضَ الغيرة من كمال؛ أمتلئ زهوًا وسرورًا بشعورها الخافت الذي طالما اجتهدت لإخفائه!

بعدما أخبرتْني برغبتها في أنْ نلتقي، أدركت كمْ تعني لي هذه الفتاة، حتى أنني لم أذقِ النومَ ليلة البارحة من شدّة الفرح والحماس.. حاولت التواصل مع كمال، فلم أجدْه!

تكرّرت أوقاتُ اختفائه في الآونة الأخيرة، ندُرت محادثاتنا، أضحى كمال منشغلًا عني، لا أدري بماذا! كتبتُ له رسالة:

ـ سأرى روحَ الحياة غدًا صباحًا، عند عودتي سأقصّ عليك تفاصيل اللقاء.

خرجت للموعد مبكرًا، فكرت في احتمالات شتى، وأنا أنتظر لحظة ظهورها.. قلّبت في خاطري تخمينات عدّة، لم أتوقّع ولوْ للحظة واحدة أن تكون روحُ الحياة هي ذاتها كاميليا، فتاة المكتبة التي بعثت نظراتها المتحيرة في وجداني ذكرى زينب.

للأسف، لم تمْنحني كاميليا الوقت الكافي لألمس شعوري تجاه الموقف، هل سعدتُ عندما اكتشفت حقيقتها، أم أسفت؟!

أصابتني الصدمة حينها بشللٍ وجداني، ثمّ أدخلتني كاميليا من فورها، وقبل أن أنفكّ من قيد الصدمة، في دوامة مأساة سميرة.. ذهبت بصحبتها لنرى سميرة، كم كان وضعها فظيعًا ومحزنًا.. وجهها شاحبٌ، وعيناها غائرتان، كدتُ أن أنكر بأنّها سميرة!

علمت فيما بعد بأنّ رجال الشرطة يذرعون المدينة بحثًا عن هالة المختفية، بعد بلاغ تلقّوه من والدتها، التحريات لم توصلهم لشيء، يبدو أنها لم تقتل؛ لأنّهم لم يجدوا جثتها، ولم تغادر البلاد؛ لأنّهم حين فتشوا

مكتبَها الخاص في بيتها؛ وجدوا جوازَ سفرها وسط أوراقها الخاصة. الاحتمال الأقوى هو أنّها مخطوفة، لكن لماذا لم يتّصل الخاطفون لطلب فدية؟!

جلست قُبالة سميرة متسمّرًا مصدومًا، أتأمّل كاميليا وهي تغدقُ عليها بالحنان والرعاية، أطعمتها رشفات من شوربة الشعير.. جعلتها تتناول حبّات الدواء بعد توسّلات طويلة.. رنّ جوّال سميرة، تناولته كاميليا، ثمّ:

ـ آلو، سميرة متوعّكة بعض الشيء، مَن يريدها؟ ماذا؟!

ارتعشت يدُ كاميليا، أنهت المكالمة مذعورةً، ثمّ أغلقت الجوال!

سألتُها بفضول:

ـ ما بك! مَن هو المتصل؟!

أومأت لي بالكتمان، ثمّ قالت:

ـلندعْ سميرة ترتاح، تعالَ لنجلس في البهو..

عندما خرجنا من الحجرة أهْوت كاميليا بجسدها على الأريكة، وسط البهو، وبدأت بالبكاء، اعتصرني ألمٌ من نوعٍ خاص، وشعرتُ بالدوار، أحسست حينها برغبة جارفة تدفعني لاحتضانها!

تودّدتُ لها:

ـ أرجوك، لا تبكي، كلّ شيء قابلٌ للعلاج، ستتحسّن حتمًا، لكل شيء نهاية، حتى المرض.

ـالمصيبة هي أنّ الشرطة تبحث عنها!

ـ الاتصال قبل قليل كانَ من قِبَل الشرطة؟

ـ نعم.

ـ ماذا يريدون من سميرة؟!

ـ يريدون سؤالَها حول اختفاء الأستاذة هالة، ماذا أفعل يا غسّان؟ لو علمت سميرة بأنّ هالة مختفية، سوف تسوءُ حالتها، ثمّ أنا لا أريد أن يعرف أحدٌ بما أصاب سميرة، ألا ترى كم هو وضعها مزْرٍ! ماذا أفعل يا غسّان؟ أنا مرتبكة ومتحيّرة..

ـ هل تقبلين نصيحتي؟

ـ بالتأكيد، بل أحتاجها بقوة.

ـ الشرطة سوف تعلم بأنّ سميرة عندك إن عاجلًا أو آجلًا، هذا عملهم.

ـ ماذا تقصد؟ هل أهرب بها؟!

ـ ولماذا الهروب؟! يجب عليك المبادرة، وإعطاؤهم ما يريدون من معلومات، وسميرة أيضًا في وضع سيئ جدًّا، يجب نقلها إلى مصحة نفسيّة..

ـ لا، مستحيل، لن أدخلها مصحّة!

ـ لماذا؟!

ـ سيقال بأنها مجنونة، لن ينسى أحدٌ بأنها دخلت مصحة نفسية في يوم ما.. ستلاحقها وصمة الجنون للأبد.

ـ أنت تفاجئينَني بهذا النمط من التفكير، هل كلّ من احتاج لعلاجٍ نفسي مجنون؟!

ـ هذا ليس نمطي في التفكير، بل هو نمط تفكير المجتمع، لن يرحموها، صدقني، مجتمع ظالم، قاس.

ـ لكن إن بقيت سميرة هكذا؛ فسوف تُصاب بالجنون الكامل.. أو قد تقتل نفسها، وبعدها صدّقيني يا كاميليا، لن ترتاحي من عذاب الضمير طيلة حياتك، أين أهلها؟ أيّ نوع من الأهل هُم؟!

ـ ليس لها سوى أمّ منشغلة بالمطالبة بنصيبها من تركة جدّ سميرة الذي مات وسميرة ما تزال بعدُ في المستشفى، إنّني أحمد الله أن أمّها منشغلة، يجب أن أجد حلًّا قبل أن ترجع، وقبل أن تسوء حالة سميرة، وقبل أن يعرف أحدٌ بما جرى معها.

بدتِ المشكلة معقّدة بالفعل، حاولت إقناع كاميليا بضرورة نقل سميرة للمصحّة، لكنها بقيت مصمّمة على موقفها الرافض، شعرت بأنها تخفي عني شيئًا.

قلت مبديًا لها غضبي:

ـ ما الذي تخفينَه عني؟

ـ لا شيء، لماذا التشكّك؟!

ـ أنا متأكّد بأن ثمة شيء غير صحيح في موقفك، كتمانٌ شديد غيرُ مبرّر، إذا أردت أن أمدّ لك يد العون يجب أن تكوني أكثرَ صدقًا ووضوحًا معي.

قمت متأهبًا للخروج، توجّهت نحو الباب الخارجي، قبل أن أمضي نظرتُ لها.. قلت لها بنبرة جادّة وبحزم:

ـ فكّري فيما قلت لك، وأنا بانتظار أنْ أسمع منك الحقيقة كاملة.

عدت للبيت مغتمًّا، حاولت التواصل مع كمال، عبثًا، أين أنت يا صديقي، لماذا تختفي في الوقت الخطأ؟!

مزيدًا من التعقيد يا دنيا..

لماذا يحبّك الناس يا دنيا؟ لست سوى نهرِ عذاب لا ينقطع!

حبيبي غسّان، يمضي من أمامي مغضبًا عقب أول لقاء يجمعني به، بعد كلّ هذه اللّهفة المتوهّجة، والشوق المتراكم على مُنحنيات قلبي، والعشق المُشعِل لفؤادي والمقضّ لمضجعي، يتلاشى ألقُ اللقاء الأول، وتتبدّد فرحته، وتغيب بهجتُه في مهبّ محنة سميرة، يريدني أن أصارحه بكلّ شيء، إنه سرّ صديقتي الخطير.. كيف أفشيه له دونَ أن تأذن لي سميرة بذلك؟

ليتني لم أتعجّل هذا اللقاء، ليته بقي حلمَ يقظة لذيذ، أمنيةَ خيال ساحرة، ليته بقي أملًا شاردًا أطارده بقيّة عمري في عالم الأحلام، لقد سار كلّ شيء خلافَ ما توقّعت..

تكسّرت كلّ الحواجز النفسية بيننا بعد الدقائق الأولى، وجدتني أكلّمه بأريحية وبساطة وتقارب كما كنت أفعل وأنا في الجامعة، اضمحلتْ سنوات البعد دفعةً واحدة، كأنْ لم تكن، كأني وهو ذلكم

الصديقان في سنة أولى جامعة في قسم الصيدلة، زميلان متوادّان، متجاوران، في مقاعد الجامعة.

هل كان عليّ أن أكلّمه بشأن سميرة؟ لماذا لم أجعل علاقتنا في المرتبة الأولى، أفسح لها مزيدًا من الوقت للبوح.. للفرح باللقاء، ممّ كنت مذعورة؟!

أشدّ ما يزعجني هو عدمُ الفهم، أحسّ بتيهٍ ودوار عندما لا أفهم ذاتي، حين أرتبك؛ فلا أعرف منبعَ ومغزَى سلوكي، الحاصل أني أفسدت الأمر، تصرّفت بغباء غير مبرر. هل فعلت ذلك لأنّ مرض سميرة وحالتها الغريبة يُربكاني ويشلّان تفكيري؟!

في الواقع، إنّها المرة الأولى التي ألعب فيها دورَ المنقذ تجاه إنسان يحتاجني، كنت دومًا ألعب دورَ الضحية في معادلة العلاقات الإنسانية، ألتصق بمنقذٍ قوي ليأخذ بيدي في دروب الحياة، يرعاني، يسندني، يرشدني..

الحاجة لوجودِ آخر قوي رشيد في حياتنا فطرةٌ في الإنسان، جانب ضعف بشري لا ينكره أحد، في طفولتي كان حولي منقذون كُثر، أبي وأمي وأخواتي الأكبر مني، في الجامعة كان غسّان هو منقذي، ثمّ في مرحلة الانسلاخ من الماضي كانت أمي هي سندي بعد الله، ثمّ الطبيبة النفسية، ولن أنسَى مجموعة الرفيقات في معهد الحاسوب واللّغات.

يبدو أنني أخيرًا تغيّرت، قرّرت دون وعي تامّ الكفَّ عن لعب دور الضحية.. سأصبح أنا المنقذ في لعبة العلاقات، وصديقتي الحميمة سميرة هي التي تحتاجني لأنقذها، أنا مستمتعة بهذا الدور؛ لدرجة أني لم أخطّط جيدًا للقائي الأول بغسّان.

لا يهمّ، كلّ شيء قابل للتصحيح، يجب ألّا أقلق، سأتوقّف عن التفكير فيما حدث اليوم بيني وبين غسّان، يكفي أني قطعت خطوة نحو مصارحته.

ألقيت نظرةً أخيرة على سميرة، حمدًا لله، تبدو أحسنَ حالًا هذه الليلة، نامتْ دون تشنّجات أو بكاء. الآن أنا بحاجة للنّوم، مرّت عليّ ليال وأيام عصيبة، آه.. صداع يدقّ رأسي، تناولت حبة مهدئة، توجّهت نحو حجرتي، وارتميت على سريري بملابس الخروج.

في الصباح الباكر، أفقتُ من نومي فزعة؛ كأنّ هتافًا داخليًّا أيقظني.. هرولتُ نحو حجرة سميرة، وجدتُها غارقة في النوم، تنفّست بعمق، وعدتُ أدراجي، سأكمل نومي، ألح عليّ هاجس، تحركت بحثًا عن جوالي، سأرى إن كان غسّان متواجدًا على نافذة الدردشة، أين وضعت جوّالي؟ يبدو أنه ما يزال في الحقيبة منذ الأمس، أخرجتُه، قلّبته بين يدي؛ فإذا به مُغلق، «موديله» قديم، تذكّرت حين قالتْ لي شهيرة قبيل عودتي للبلد بأيام:

ـ اعتقيه، وسأشتري لك جوّالًا أفضل منه، وعلى حسابي الخاص..

ـ ههههه، مازلت تظنّين بأني بخيلة، لن تغيّري فكرتك عني بسهولة.

ـ وهل فعلتِ شيئًا يجعلني أغيرها؟ حبيبتي كاميليا أنت الآن فتاة جميلة، تحملين مؤهلاتٍ من دولة أوروبية، لديك أكثر من لغة، لديك حقيبة ملابس كلها «ماركات» وآخر «موديل». كلّ شيء فيك جميل ومُلفت للنظر، لم يتبقّ سوى أن تتخلّيْ عن هذا الجوال العتيق.

ـ لماذا؟ مازال يخدمني بشكلٍ جيد، ثم إنني أحبّه.

ـ تحبينه؟ إنه مجرّد شيء.. جماد!

ـ ولو.. أنا أحبّه، وأشعر بألفة معه.

ـ آه يا ربي، لو كان كلّ الجيل يفكّرون مثلك فسوف تغلقُ شركات التقنية أبوابَها. انظري حولك، الكلّ يبحث عن الجديد.

ـ لا شأنَ لي بهم، أحبّ جوالي القديم، وسأحتفظ به حتى يتوقّف عن خدمتي.

يومَها، صكّت شهيرة رأسها، وغادرت حجرتي دون أن تضيف حرفًا واحدًا، بعد مغادرتي برلين بشهرين، أرسلت لي شهيرة بهديّة، فتحتها فوجدت جوّالًا ذهبيَّ اللون آخر إصدار، ورسالة قصيرة منها:

« حبيبتي كاميليا، تقبّلي مني هذه الهدية، وأرسلي لي جوّالك القديم مع صورة لك؛ لأشارك في مسابقة أجمل فتاة تحمل أقدم جوال، ههههه»!

تغاضيت عن تعليقها، وبقيت على موقفي، ما يزال الجوّال الذي أرسلته لي شهيرة مغلفًا في علبته، لم أستعمله، لكن يبدو أني سأودّع جوالي القديم مُرغمة.

أرسل لي «الواتساب» رسالة مَفادها بأنّهم سيوقفون الخدمة عبر هذا النوع من الجوّالات، بمعنى إن كنتِ راغبة بالاستمرار في استخدام التطبيق؛ فعليَّ التخلّص منه واستبداله بآخر حديث.

اعتبرت هذا ابتزازًا، لكني للأسف سوف أرضخُ له، «الواتساب»عالم لا يفوّت.

ترى لماذا هي خدمة مَجانية، ما الذي يجنوه منها؟! واو، ما هذا؟! بريدي مكتظّ برسائل من غسّان، ههههه.. متى كتبَها؟!

«عزيزتي روح، عفوًا.. كاميليا، أعتذر بشدّة، كنت بالأمس جافًّا وغليظًا معك..»

«آلووو، أين أنت؟ منذ ساعة وأنا أنتظرُ ردًّا!»

«هل أغضبتك لهذه الدرجة؟!»

«أعتقد أنّ من حقّك أن تغضبي، لقد كان لقاؤنا الأول، كان الأجدرُ بي أن أكون أكثر لطفًا و.. حقيقة لا أدري ماذا أقول؟ هيّا أجيبيني»

«أنا متأكد بأنك هنا، لماذا لا تردّين عليّ؟!»

« ألن تسامحيني؟! لقد اعتذرتُ لك، ماذا يجب أن أفعل لترضي وتغفري لي سوءَ تصرفي؟!»

«حقيقة، لقد وجدتك اليوم أجملَ ممّا كنت عليه حينما رأيتُك لأول مرة في مكتبة الجامعة، ذوقك في اللّبس رائع، ابتسامتك ساحرة، روح.. أعني كاميليا، أووه.. عذرًا أحتاج لمزيد من الوقت لأعتاد على اسمك الجديد»

«آلووو، أجيبيني رجاءً»

«كاميليا، منذ فارقتك وأنا متسمّر أمام الدّردشة، سيطلع الصباح وأنتِ يا شهرزاد صامتة، لقد تعبت، لم أتوقّع أنك صعبة المِراس لهذه الدرجة!»

«حسنًا، لا تريدين أن تجيبي، كما تشائين، عمومًا لدي حلّ لمشكلة سميرة، عندما ترغبين في معرفته كلميني، تصبحين على خير».

ههههههه، يا للمسكين، يبدو أنّه أمضى الليل بطوله ساهرًا! حسب بأني غضبتُ منه، حسنًا، سأجعله يظنّ ذلك، لقد كان جافًّا وغليظًا معي

كما وصف نفسه تمامًا. أوه، لا، هو لطيف ومهذّب، لست غاضبة منه.. اهتمامه جعلني أشعرُ بالأمان، وثقت بأنه سيعينني على حلّ مشاكلي، شعرت بدغدغة ممْتعة في معدتي بعد اللّقاء، استرخاء في ظهري، غرقت في نوم لذيذ لم أذقْ مثيله منذ أسبوع!

أحبّك يا غسّان، أريد أن أقولها، لا أطيقُ الصبر، أو حبس نفسي عن البوح أكثر من ذلك، سأكلّمه..

ـ آلو، صباح الخير.

ـ صباح النور، مَن؟

ـ لم تعرف صوتي؟!

ـ روح!؟

ـ بل كاميليا، انسَ روح.

ـ اعتبري أنّي نسيتها منذ هذه اللحظة، لماذا لم تحادثيني ليلةَ البارحة؟ هل أغضبتك؟

ـ أها، بعض الشيء.

ـ أعتذر. تصرّفت معك بطريقة جافة، كنت مركزًا كلّ تفكيري في إيجاد حلّ لمعضلة سميرة، لم أراعِ مشاعرك.

ـ أمممم، حسنًا، فهمت.

ـ سأعتبر هذا عفوًا..

ـ أها، يمكنك ذلك.

ـ أوه، الحمدُ لله. لم أنمْ طوالَ اللّيل.

ـ عرفت ذلك.

ـ قسوت عليّ، لم أتوقّع أن تكوني بهذه الصعوبة في التعامل!

ـ لا.. لا، أنا لم أطّلع على رسائلك سوى الآن.

ـ هكذا إذًا، نمت بعمق وكأنّ شيئًا لم يكن!

ـ هههههه، يعني، كانت سميرة بالأمس في أحسن حالاتها، لذا نمتُ بمجرد خروجك من عندنا.

ـ إذًا، لم تغضبك طريقتي؟!

ـ طبعًا أغضبتني وأحزنتني، وعندما أشعر ببعض الحزن؛ أنام.

ـ ههههه، طريقتُك مميزة في التعبير عن الحزن!

ـ غسّان..

ـ ماذا؟

ـ أحبّك، أمووووت فيك.

ـ ماذا؟!!

لا أدري كيف واتتْني الجرأة لقول ذلك؟! أصابه الوجوم وسكت، يبدو أنّني تسرعت، شعرت بعدها بالحرج الشديد، أنهيتُ المكالمة وأطفأت جوّالي!

ورقةٌ من مذكّرات غسّان..

تحبّني، لقد قالتها، لم أكن أتوهّم، أحسست بعبير هواها ينسلّ من فمها، ينساب في مسامعي، ينفذ إلى قلبي، سحرًا أبيضَ أخّاذًا، سبق أن قلت هذه الكلمة للكثيرات وسمعتها منهنّ مرارًا، لم يكن لها هذا الوقع المثير! تبعثرت نفسي فورَ سماعها من كاميليا.. طرت شتاتًا لوهلة، ثمّ التأم شعوري على سكون فريد.

هذا هو الحبّ، الفردوس الغائب، الذي ركضت وراء طيفه دهرًا، فتّشت عنه عند فلانة وفلانة؛ فلم أجده، أصابني اليأس من وجدانه، ظننتُ بأنه لن يعبث بشعوري في يوم ما، لن يذلّل حنايا قلبي، لن يأسرني، قلت لنفسي مواسيًا: وماذا في ذلكً؟ سأبقى حرًّا طليقًا، عصفورَ حبّ يتنقل من غصن لآخر إلى ما لا نهاية، وظننتُ أنّي تساميت على وجعي حتى سمعتُ كاميليا تقولها لي.. آه، لقد قطعت بتلك الكلمة مسيرةَ غربتي، بدّدت وحشتي، طهرتني، جعلتني ألمسُ شيئًا مختلفًا في كياني، أحسني لأول مرة كائنًا ملائكيًّا!

سوف نلتقي مرات ومرات.. أنا أيضًا سأقولها لها، كلمة من حرفين لا تملّ، تختزل اسمى شعور في سفرِ الإنسانية، الحاء يخرج من الجوف بحفيف مرهف؛ ليشي بجميع حاجات الجسد، الباء فموي هامسٌ يفشي خفايا الروح!

كنت رحّالًا قبل أن أسمعها منها، واليوم سوف أستوطنُ بين مآقيها المتدفّقة بنظرات حيرة آسرة!

كاميليا، حبيبتي، بؤبؤ عينيك الأسود مضطرمٌ بسحرٍ فريد، بحرُ ليل زاخر يدْعوني للغوص للأعماق، بياضُها شاطئ لؤلئيٍ يطهرني بعد كلّ رحلة غوص، يخفقُ طرف جفنك ببطء ليقطع رحلةَ عشق سرعان ما تتبعُها رحلات، أحتاج لعمرٍ آخر فوق عمري لأشبع من استراق ألقِ تلك العينين!

أحتاج لثورةِ جرأة كي أقتحمَ رعشة شفتيك المتهدّجة برغبة مكبوتة، كي أسافر على منحنيات جسدك الميّاس، وأغيب دهرًا في سكرة عبيره الخافت. هل سأجدُ كلمات مناسبة أصفُ بها شعوري تجاهك لصديقي كمال؟! لا أدري لماذا يرفض الاتّصال المباشر؟!

لم أسمع صوته منذُ أكثر من عامين، يكتفي بالمراسلة والدّردشة الخطيّة، سأنتظر حتى يفتحَ نافذة الدردشة، وأخبره بكلّ هذه التطورات، سيفرح كثيرًا عندما يعلم بأني وقعت أخيرًا في الحبّ الحقيقي، الذي طالما كلّمني عنه؛ برغم ادّعائه بأنه لم يقع فيه من قبل..

كاميليا في قسم الشرطة..

استطاع غسّان بالتودّد والحجج المنطقية أن يقنعني بالذهاب معه إلى قسم الشرطة. جلست أمام مكتب ضابط التحقيق بثبات، اجتهدت كي أبدو له واثقةً مقنعة، أدليت بأقوالي أمامه بهدوء ورباطة جأش، كنت قد تدرّبت طوال الليل على ترديد تلك الأقوال، كان الضابط يستمع لي باهتمام بالغ، قلت له:

ـ سميرة هي صديقتي الوحيدة، قبل شهر جاءت لزيارتي كالعادة، كانت الساعة السابعة مساءً، تناولنا طعام العشاء معًا، جلسنا وتحدّثنا طويلًا، لم نشعر بمضي الوقت حتى قاربت الساعة الثانية عشرة.. همّت سميرة بالعودة لبيتهم، رجوتها أن تبيت عندي، رضخت لطلبي فورًا؛ لأنّ والدتها كانت قد سافرت منذ يومين لقريتهم لزيارة جدّ سميرة المريض جدًّا. عرضت على سميرة أن تنام معي في ذات الحجرة لكنها اعتذرت وفضّلت النوم في حجرة منفردة، فتحت لها حجرة نوم شقيقتي شهيرة المقيمة هي ووالديّ في برلين منذ عدة أعوام، قبل طلوع الفجر

أفقت على صوتِ صراخها، ركضتُ نحوها مذعورة، وجدتها تتلوّى من الألم، بدأت تتقيأ، عندما خارت قواها؛ ذهبت بها إلى أقرب مستشفى، قال لي الطبيب بأنّها أصيبت بحالة انهيار عصبي رهيبة! كانت هذه المرة الأولى ألتي أرى فيها إنسانًا في حالة انهيار عصبي، دخلت سميرة بعد حالة الانهيار في حالة اكتئاب متقدّمة، هكذا قال لي الطبيب.

بعد أن أمضت ثلاثة أيام في المستشفى نصحني الطبيب بإدخالها لمصحة نفسية لكني رفضت ذلك بشدة، أخذتها معي للبيت، لم أشأ أنْ أخبر أمّها التي انشغلت أكثر بعد موت الجدّ بمشاكل التركة وتقسيم الإرث.

اختلقتُ تلك القصة للضابط متجنّبة الحديث عن موضوع بحث سميرة العلمي، وزيارتنا للمشرحة، بعد أن أتممتُ إفادتي أعطيته التقرير الطبّي الخاص بحالة سميرة، وقلت له:

ـ أرجوكم لا تخبروها بأنّ هالة مُختفية، أخشى أن تنتكسَ حالتها، بدأت تتحسّن بعض الشيء في الأيام الأخيرة.

سألني:

ـ ألم تخبرك في تلك الليلة التي أمضتْها عندك بأي شيء يفسّر لنا سبب ما أصابها، هل سمعت خبرًا أزعجها، رأت شيئًا، تعرضتْ لتهديد، أو أي شيء من هذا القبيل؟!

ـ لا، مطلقًا.

ـ فيما تحدّثتما قبل أن تذهبا للنوم؟

ـ أحاديث عادية.

ـ أحاديث مثل ماذا؟ لو سمحت يا أستاذة كاميليا كوني تفصيلية أكثر، نحن نبحثُ عن خيطٍ يدلّنا على مكان الأستاذة هالة.

ـ ماذا تريدني أن أقول؟ أنا لا أتذكر شيئًا يستحقّ الاهتمام، تحدّثنا عن جدّها المريض ومتاعب عملي في المكتبة، أنا لا أتذكر شيئًا ذا أهمية.

ـ هل حدّثتك عن حدوثِ خلافٍ بينها وبين هالة؟

ـ لا، مطلقًا، هالة وسميرة صديقتان حميمتان، لم أرهما على خلاف قط.

ـ هل سألتك عن هالة أو حاولت الاتصال بها بعد تلك الليلة التي انهارت فيها؟

ـ في الواقع لم تسألني عنها.

ـ وهل هذا تصرّف طبيعي؟! المفترض أن تبحث عن الناس المقرّبين منها وهي في حالة المرض!

ـ سميرة ليست في كامل وعْيها، حتى أنها لم تسأل عن أمّها!

ـ يجب أن نأخذ أقوالها.

ـ وأين هي الإنسانية؟ لن أسمح لأحدٍ بإيذائها.

ـ نحن نقوم بواجبنا.

ـهل واجبكم أن تقتلوا إنسانًا لتجدوا آخر؟!

ـ لن نثقل عليها.

ـ قلت لك سوف تسوء حالتها إذا عرفت بأنّ أعزّ إنسانة لديها مفقودة.

ـ ولماذا هي غيرُ مكترثة لغياب أعزّ إنسانة لديها؟! ثمّة حلقة مفقودة، ودورنا إيجادُ هذه الحلقة، وقد نجدها عند سميرة.

ـ إذا كنت مصممًا على استجوابها؛ فاستشر طبيبَها أولًا، وإلّا سوف أقاضيكم إن انتكست حالتها بسبب تحقيقاتكم القاسية.

ـ لا داع للعصبية يا أستاذة كاميليا، ثقي بأننا حريصون على سلامة المواطن بالدرجة الأولى، سوف أزور طبيبَها وأرى بماذا سيوصي، وأعدك بأني سأعمل وفق تعليماته، لو سمحت وقّعي على أقوالك، وشكرًا لمجيئك.

وقّعت على تلك الورقة وانصرفت، كان غسّان بانتظاري خارج حجرة التحقيق، سألني فورَ خروجي بلهفة:

ـ هل مرّ كلّ شيء على ما يرام؟

أومأتُ له برأسي، ومشيت إلى جواره صامتة ممْتَعضة، كان مجيئي إلى هنا مقترحًا متهورًا، لكني لا أنكرُ بأني شعرت ببعض الارتياح بعد الإدْلاء بأقوالي، انخفضت درجةُ توتري رغم أني كذبت؛ لكني مرتاحةُ الضمير، هي كذبات صغيرة ولن تعيقَ سيْر البحث عن هالة، لا يوجد لدي ما يفيدهم بشأن اختفائها المريب.

ورقةٌ من مذكّرات غسّان..

اليومَ، وأنا أدقّق النظر في تقاسيم وجه كاميليا لاحظت كمْ هي شديدة الشّبه بزينب..!

كانت كاميليا متردّدة، وخائفة من الذهاب إلى قسم الشرطة، بالأمس بذلتُ مجهودًا جبّارًا طوال الليل عبر «سكايب» لإقناعها بضرورة الإدْلاء بإفادتها، أنا على يقين بأنها تخفي عني شيئًا!

كانت كاميليا تكلّمني وسميرة تظهر لي من خلفها، لا أدري لماذا رأيتُ جمود الموتى يحيطُ بوجْه سميرة، كانت تجلسُ متخشّبة على السرير.. شاردة، غائبة عن الوجود، وما إنْ سمعتنا نردّد اسم هالة؛ حتى اضطربت بشدّة، وبدأت بالانتحاب. قامت كاميليا إليها وضمّتها لصدرها، وبقيتْ مُلتصقة بها تهدّئ من روعها حتى سكنت، هل يعقل أنْ يكون لسميرة يدٌ في اختفاء هالة؟!

كاميليا لم تكشف لي عن سرّ انهيار سميرة، تنكرُ علمها به، مع أني متأكّد بأنها تعرف السبب؛ لكنّني لا أتخيّل أنّهما يتستّران على جريمة

اختفاء هالة! لا أريد أن أفقد كاميليا اليوم كما فقدت زينب في الماضي. لن أحتمل فاجعةً بهذا الحجم!

كان موتُ زينب المفاجئ أقسى تجربةٍ مررْت بها في مرحلة طفولتي، حتى أنّها كانت أشد وطأة عليّ من حادثة فناء غسق!

بعد أن علمت بموتِ زينب، حزنت عليها حزنًا عميقًا، بكيت طويلًا، وامتنعت عن تناول الطعام، نامت أمي بجواري ليالٍ عدّة، مازلت أتذكر أريجَ عبقها وهي تضمّني إلى صدرها. حنوُّها الباذخ عليّ خفّف عني وطأة الصدمة. كانت أسرتي كلّها مغتمّة لحزني، غير أنه لم يكن لأحدٍ التنبؤ بما سيحدث.

بعد مضي بضعة أيام على موت زينب، عند منتصف الليل، وأمي نائمة بجواري على السرير، أيقظني وجعٌ شديد أحسسته يحزّ أسفل بطني، أطلقت صوتي بصراخٍ شديد أفزع الجميع، هبّت أمي من نومها وأمسكت بي تهدئني:

ـ بسم الله عليك يا حبيبتي، ما بك يا غسق، ما الذي أصابَك يا بنتي؟!

لم أجبْها، كنت أتلوّى في السرير كالملدوغ، ركضتْ أمي خارج الحجرة؛ لتطلب العون من أبي، سمعتها تقول له:

ـ إنّ غسق متوجعة بشدة، أدركها يا شكري.

بعد ساعة، كنت أرقد بسكون على سرير في إحدى المستشفيات بعد أن حقنني الطبيب بإبرة مهدئة بدّدت أوجاعي. في الصباح، سمعت الطبيب يتحدّث مع أبي وأمي في الرّدهة المقابلة، قال لهما:

ـ سنجري لها الفحوصَ اللازمة، عمومًا لا داع للقلق، ربما أنّها آلام الدورة الشهرية.

أجابته أمّي بنبرة أسى:

ـ غسق لم تبلغ بعد، تأخّرت في البلوغ بعكس أخواتها، ربما لأنّها تتصرّف طوال الوقت مثل الصّبيان!

قال أبي مغضبًا:

ـ لماذا لم تخبريني بأنّها تأخّرت؟! أنت تفاجئيني أحيانًا بإهمالك لأمورٍ في غاية الأهمية، ثمّ من الذي يشجّعها على التصرّف مثل الصّبيان؟ كنت تغضبين بشدّة إذا اعترضت على طريقة لبسها وقصة شعرها، البنت ستتوه عن ذاتِها بسبب إهمالك!

ـ لا داع للمبالغة يا شكري، ماذا لو لبستْ غسق البنطلون معظمَ الوقت، مازالت طفلة، ثمّ هي لا تحبّ الشعر الطويل، ما الضيْر في ذلك؟!

ـ ما الضيْر في ذلك؟ لا شيء، فقط أصبح لدينا بنتًا مُسترجلة!

ـ اسكت، ما هذا الكلام يا شكري، سوف تسمعك.

تدخّل الطبيب لإنهاء الجدال بينهما قائلًا:

ـ يجب ألّا تسمعكما تتشاجران بسببها، هذا سيؤثّر سلبًا على نفسيّتها، في الحقيقة، أنا أشكّ بشيء..

سكت الطبيبُ لوهلة، فبادرت أمّي:

ـ ماذا يا دكتور! هل هي مصابة بمرض خطير؟

ـ لا، بالعكس تبدو صحّتها جيدة، لن أتعجّل، سأجري لها كشفًا دقيقًا، وفحوصًا مكثفة، وإن شاء الله يكون خيرًا.

نتيجة الأشعة والفحوصات كانت مضحكة مُبكية، أخبرني أبي ماذا حدثَ بعدها، قال له الطبيب:

ـ مبروك يا سيد شكري، لقد أهداك الله ولدًا!

ـ ماذا؟!!

ـ في الواقع، غسق ليست بنتًا، ليست أنثى، إنها ولد.. ذكر

أعلن الطبيب بأني أملكُ أعضاء ذكريّة منذ بدء خلقي في بطن أمي؛ لكنها كانت كامنة في جوفي!

حين جلسوا حولي يشرحونَ لي الأمر، ويقنعوني بضرورةِ الخضوع لعلمية جراحية وقبول هويتي الجديدة؛ تذكّرت حفلة الفتيات لاستكشاف أعضائهنّ، وعرفت لماذا كان ذلك الشيء الذي بين فخذي مغايرًا لما لديهنّ!!

حين اكتشف الطبيب بأني ذكر ولست أنثى، كنت يومها في الثانية عشر من عمري، لم أصب بصدمة، ولم أجد صعوبة في تقبّل هويّتي الجديدة؛ فقد كنت أشعر منذ سنوات بأني ولد، حتى أنني أتصرّف دومًا كالأولاد!

بعد العملية، انتهى عهد «غسق»، واختار لي أبي اسم «غسّان»، لم يسلك أحدٌ من أسرتي مسلكَ الكتمان؛ ففي اليوم الأول لخروجي من المستشفى عرف نصفُ أهل البلدة بحكايتي.. بعدها، صاروا يلتقطون لي الصور وأنا ألعبُ في الشارع، انتشرت صوري عبر مواقع التواصل الاجتماعي، جاءت مذيعةُ إحدى القنوات وأرادت أن تجري لقاءً معي، فرفض والدي ذلك بشدة.

كانت غسق بنتًا شقيّة، تتصرّف بعرامة وعناد الصبيان.. أضاعت أقراطها الذهبية المرّة تلو المرّة، وهي لم تتجاوز العامينْ حتى انسدّت ثقوب أذنيها، أقسمت أمّي بألّا تلبسَها قرطًا حتى تكبر وتعقل!

كبرتْ غسق ولم تعقل، كانت دائمة الحركةِ والتّعارك مع الفتيان، تتنمّر أحيانًا، ضربت جميع صبيان الحي، حطّمت زجاج عددٍ من سيارات الجيران.. أفسدت بضائع «السوبر ماركت»، وخلطت بهارات العمّ زكي بعضَها ببعض مرارًا، وجعلته ينقل دكانَه من الحي! لذلك عرف الجميع بقصّتها، أو ربّما عرفوا جميعهم الخبرَ لأنّنا نعيش في بلدة صغيرة.

بعد أن تماثلتُ للشفاء، جاء أخوة والدي من القرية لرؤيتي، وأسهموا في اتّساع رقعة الحكاية، أطلقوا أعيرة نارية في الهواء، قال أحدُهم:

ـ كنت أخطّط أن أزوّجها لولدي سعيد، لكنّ الله ستر!!

بعدها، لم ينسَ أحدٌ بأني كنت بنتًا قبل أن يكتشفَ الطبيب حقيقتي، صار كلّ الناس إذا مرّوا بجواري يشيرون لبعضهم البعض قائلين: هذا الولدُ الذي كان بنتًا!!

أرسلتني أمّي للعيش في بلدة أخرى؛ حتى ينسى الناسُ حكايتي، أمضيت بضعَ سنين عند خالتي منيرة التي لم تنجب، كانت تحبّني حبًّا جمًّا، وكان زوجها رجلًا لطيفًا، وحنونًا، ومرحًا، ويحب السفر والغناء والصّخب، كلّ شيء بينهما جميل عدا أنّه مولع بكائن اسمُه المرأة، كان يغازل النّساء أمامي، ثمّ يهمس لي:

ـ أنتَ صديقي، لن تخبرَ منيرة!

فأهزّ له رأسي بالموافقة، ونسير معًا نحو البيت، كنت أحسّ بوخز الضمير أحيانًا وأنا أراها تحبّه وتغدق عليه بالرّعاية والدّلال؛ لكني بعدها تيقّنت بأنها تعرف عنه ذلك وتتغافل، هل هي عاقلة جدًّا، أم متيّمة به ولا تريد أن تخسره؟

ربّما هي لا تحبّه كما تظهر، لا تهتمّ لأمره كزوج، ربّما تبرر لنفسها بأنّه يغازل النساء غزلًا بريئًا فحسب، في الواقع لم أفهمْ حتى هذه اللّحظة كيف احتملت خالتي منيرة من زوجها ذلك السلوك؟!

أتممتُ دراستي الثانوية بنجاح، صرت شابًّا مكتملَ الرجولة، قررتُ العودة لبيتنا، كان حزن زوج خالتي على فراقي يفوقُ حزنها، قبل العودة أطلتُ شاربي وأطلقت لحيتي لعلّ ذلك يجعلهم ينسون غسق..!

في أول يوم لي في جامعة بلدتنا، فوجئت باثنين من بني عمومتي يدرسون في نفس الكلية، رآني أحدُهم من بعيد وركضَ نحوي وهو يقول بصوتٍ جَهْوَري:

ـ غير معقول، غسّان، ابن عمّي؟!

احتضنني بقوة، ثمّ مسح بناظريه فناءَ الكلية، ورفع صوته يدعو الآخر الذي علق بصره في قوام فتاةٍ هيفاء تسير أمامه، قال له:

ـ تعالَ يا مروان أعرّفك على ولد عمّنا اللّي كانوا يظنونه بنتًا!!

تركت لهما الكلية، وسافرت إلى مدينة أكبر، وهناك التقيتُ بكمال وشريف وبقية أصدقائي، ثمّ أخيرًا وجدت كاميليا، حبّ عمري.

عودةُ الخالة حَسَنات..

عادتِ الخالةُ حَسنات «أمّ سميرة» من بلدتها دون أن تشعرنا. جاءت محمّلة بشحنة غضب، ستفجّرها في وجهي. وصلت إلى بيتها في ساعةٍ متأخّرة من الليل، وجدته خاليًا.. مغبرًا.. مهجورًا، اتصلت بسميرة، استلمتُ المكالمة بدلًا عنها؛ لأسمع صخبًا بصوت امرأة تشتعل غضبًا:

ـ أين سميرة، لماذا البيت بهذه الحالة المزرية؟ ما الذي حدث في غيابي؟!

ـ مرحبًا يا خالة، حمدًا لله على سلامتك، سميرة عندي.

ـ أعطها الجوال فورًا، هذه البنت ستصيبني بالجنون!

ـ عذرًا يا خالة، لكن..

ـ لكن ماذا؟ ما الذي تخفيانه عني أنتما الاثنتان؟! هل أصاب ابنتي مكروه؟ لماذا لم تكلمني طوال مدة غيابي سوى مرة واحدة؟! كان صوتها ضئيلًا متحشرجًا، لقد تركت القرية قبل أن ننهي تقسيم التركة بسببها، هيّا أعطها الجوال لتكلمني، ثمّ ما الذي تفعله عندك حتى هذه الساعة؟! قولي لها أنْ ترجع للمنزل فورًا.

قالت لي الخالة حَسنات ذلك، وأنهت المكالمة.

أمّ سميرة أرملةٌ منذ عشرين عامًا، لم تتزوّج بعد وفاة والد سميرة، مع أنها كانت- حينها- شابّة جميلة؛ بل فاتنة، هي نموذجٌ رائع للمرأة

القوية، ممتلئة نشاطًا، متدفّقة حماسًا، بقيت جذابة للرجال في جميع مراحل عمرها، ما زالت تحتفظ بجمالها رغم أنها في العقد السادس. الخالة حسنات مطلوبة للزواج معظم الأوقات؛ لكنها في كلّ مرّة يجيئها خاطب تضحكُ ملء فيها، ترفضُه، وهي ترنو ببصرِها نحو صورةِ زوجها الراحل، المعلّقة على الجدار، وتقول بزهو:

ـ مَن سيملأ مكانَ سرحان في قلبي، كان رجلًا حقًّا، الرجال أمثاله انقرضوا!

يبدو أنها تملكُ نظرة خاصة عن الرجال، تصمُ كلّ واحدٍ من خطّابها بصفة يكتشف مَن حولها مع الأيام بأنّ تلك الصفة موجودة فيه بالفعل، هذا ما قالته لي عنها سميرة!

انكفأت الخالةُ حسنات على تربية سميرة والاهتمام بها، هي تغدقُ عليها بالحبّ والعناية والخدمة والمال، تحصل الخالة حَسنات على نفقةٍ جيدة من أبيها الذي يملك أراضٍ واسعة في قريتهم ومزارع للمواشي ومصانعّ للأجبان والألبان.

تخرجُ كلّ صباح للتسوّق بنفسها، تختار أطيبَ الثمار وتأخذُ قطعة لحم حمراء خالية من الدّهن، ثمّ تعود إلى البيت لتحضّر أطعمة بنكهة فريدًة طيّبة المذاق! هي ودودةٌ ولطيفة معظم الأوقات، لكنها عندما تغضب تستحيل ثورًا هائجًا، على مَن يريد السلامة أنْ يتوارى عنها حتى تهدأ!

قلتُ لسميرة بعد أن أنهتْ أمّها المكالمة بإلقاءِ ذلك الأمر الجازم:

ـ ما العمل الآن؟

أرسلت سميرة ابتسامة باهتة، ثمّ فارقت السرير وهي تقول:

ـ سوف نسمع ونطيع، سأعود للبيت.

ـ هل ستخبرينها بمرضك؟

ردّت عليّ سميرة بانفعال:

ـ لست مريضة.

ـ صدقتِ، أنتِ بخير يا حبيبتي، لكن ماذا سنقول لها عن هذه الأدوية عندما تراها؟

ـ لا داع لأخذها معي.

ـ يجب أن تلتزمي بمواعيد تناول الدّواء كيلا تحدث لك انتكاسة.

ـ لست بحاجة لها.

ـ بل ثمّة حاجة، سميرة أرجوك، أنت تعرفين أكثرَ مني خطورةَ التلاعب بجرعات مضادات الاكتئاب.

ـ هذه سموم، سوف تذهبُ ببقيّة صحّتي النفسية، لن أتناول شيئًا منها بعد اليوم.

ـ لكن...

قاطعتني بغضب:

ـ كاميليا، كفى، لستِ وصية عليّ!

عندما تنفعل تبدأ أطرافُها بالارتعاش، أنفاسُها تتقطع، خلجات وجهها تهتز، وريقها يجفّ، تهاوت على السرير؛ فتلقّفتها ثمّ:

ـ أرأيتِ؟ مازلت بحاجةٍ للدّواء والراحة.

تشبّثت سميرة بكمّي، وبدأت تقضمُ أظافرها، بكتْ مثل الأطفال. أعطيْتها حبّة مهدئة، جمعتُ لها أشياءها وتوجّهنا إلى منزلهم، عندما فتحتْ لنا الخالة حَسنات الباب، كانت متوثّبة للانقضاض علينا بحدّ لسانها، لكنّها ما إن وقع بصرُها على وجْه سميرة الذاوي؛ انكمشتْ حتّى بدت كقطةٍ وجدتْ صغيرها بعد بحثٍ طويل، وهو يلفظُ أنفاسه الأخيرة.

تحسّست وجهَ سميرة بصمتٍ، ضمّتها لصدرها طويلًا، يبدو أنّها فهمت شيئًا، فاجأتني الخالة حَسنات بحكمتها وحنوّها الذكي! أدخلتْ سميرة إلى سريرها، وعادت إليّ ملهوفة، أمسكت بيدي وسألتني بهمس:

ـ أستحلفُك بالله يا كاميليا أنْ تكوني صادقة معي، أخبريني، ما الذي أصاب ابنتي أثناء سفري، كيف فقدتْ نصف وزنها في شهر؟!!

ـ اهدئي يا خالة، أنا أشدّ حيرة منك، في الواقع سميرة أصيبتْ بانهيار عصبي واكتئاب شديد لا ندري ما هي أسبابه، كانت بأحسنِ حالٍ وفجأة سقطت ثمّ وصلت إلى ما ترينه الآن، هذه هي الأدوية التي وصفها لها الطبيب وهذه التقارير الطبية.

اختطفتها الخالةُ من بين يدي، قلّبت ناظريها فيها لوهلة، هي لا تجيدُ سوى اللغة العربية، ثمّ سألتني:

ـ وماذا قال الطبيب عن حالتها؟

ـ نصحني بإدخال سميرة مصحّة نفسية.

ـ لا.. لا، هل جنّت ابنتي؟! ليتني لم أسافر وأتركْها وحيدة، لقد ركضت وراء المال وأضعتُ ابنتي، لماذا لم تخبريني فورَ انْهيارها؟

ـ ظننتُ بأنّه شيء عارض، لكنّ حالتها أخذت تتدهْور باطّراد، لا أدري ماذا أفعل لأجلها، المصيبة أنها ترفض تناول الأدوية، اضطررت لإذابتها لها في العصير.

ـ هل عرفَ أحدٌ بما أصابها؟

ـ لا عليك، لقد اجتهدت لإخفاء الأمر.

ـ شكرًا لك يا ابنتي، أنتِ والله نعمَ الصديقة؛ لكن ماذا عن صديقتها هالة، هل عرفت بما حدث لسميرة؟

ـ هالة ضائعة، مُختفية. لا أحدٌ يدري ماذا حدثَ لها، الشرطة تبحث عنها.

ـ ما هذا الذي يحدث؟ تدافعت المصائبُ فوق رأس ابنتي المسكينة!

ـ اطمئني يا خالة، سميرة لم يصلْها بعدُ خبرُ اختفاء هالة، أرادت الشرطة استجوابها بهذا الشأن؛ لكنني اشترطتُ عليهم استشارة طبيبها أولًا، ذهب ضابط البحث لاستئذان طبيبها في استجوابها فمنعَه مِن فعْل ذلك، وطلبَ منه تأجيل الأمر حتى تتحسّن حالتها.

ـ أحسنت، بارك الله فيك، يا ربّ ارحم وحيدتي وارحمني، هي كلّ

ما أملكه في هذه الحياة؛ بل هي حياتي كلها، سوف أسافر بها.. سأدخلها مصحّة نفسية في أوروبا؛ فالطبّ هناك متطور أكثرَ من بلادنا.

ـ هذه فكرة رائعة، لا تتأخّري في تنفيذها.

ـ هل أطلب منك معروفًا؟

ـ تفضّلي يا خالة.

ـ ابقي معنا هنا بقرب سميرة، حتى أنهي إجراءات السفر، أرجوك يا ابنتي، هي وحيدة، وليس لها أخوات، ثمّ هي تحبّك كثيرًا.

ـ وأنا والله أحبّها كثيرًا، سوف أبقى بجوارها حتى لحظة صعودكما للطائرة، سأذهبُ لأحضر لي بعض الملابس وأعود سريعًا، اصنعي لها شوربة خفيفة، يا حبذا شوربة شعير.

ـ شوربة! تبدو هزيلة للغاية، سأشتري لحمًا وخضارًا، وأطهو لها جميع الأطباق التي تحبّها.

ـ سميرة لا تستطيع الأكل كما يجب، تتقيّأ فورًا، هي بالكاد تشربُ بضعَ ملاعق من الشوربة.

لم تتمالك أمّ سميرة نفسها عند سماع ذلك، أدركتْ بأن حالة ابنتها سيئة جدًّا. بدأت تبكي بصمت كيْلا تسمعُها سميرة، لم أطقِ البقاءَ أكثر من ذلك، هرولت نحو الخارج والدموع تسيل على خديّ.

البوحُ المَمْنوع..

«غسّان أين أنت؟ أنا بحاجةٍ للحديث معك، أشعر بضيق شديد، أكاد أن أختنق». أرسلتُ له هذه الرسالة وانتظرت ردًّا، اتصل بي مِن فوْره:

ـ ما بك يا حبيبتي؟ أقلقتني!

ـ غسّان، أنا مضغوطة، حزينة لأجل سميرة، عجزي عن مدّ يدِ العون لها يكادُ يقتلني!

ـ لا يا روحي. لا تفعلي هذا بنفسك، لا تبالغي في شعورك بالمسئولية تجاه سميرة.

ـ غسّان، لا تخطّئ شعوري، لم أتّصل بك لتقول لي هذا.

ـ أعتذر. لكني أراكِ يا روحي تقسين على نفسك، حبيبتي..

فجأة شعرت بتوتر وانزعاج؛ فقاطعته:

ـ أرجوك يا غسّان كفّ عن هذا الكلام.

ـ ماذا تريدينني أن أقول؟ أسلمُ بأحاسيسك المبالَغ فيها؟!

ـ أعني كفّ عن كلمات الغزل، لا تطوي المسافات كلها.

ـ أها.. فهمت. حسنًا، لكن الذي طوى المسافات أولًا.. أحبّك، أموووت فيك، مَن الذي قالها؟!

ـ لستُ أدري.

ـ بل تدرين. لقد استيقظت يومَها من نومك للتوّ، وكنت بكامل وعيك حين قلتها لي.

ـ أممم، لا أتذكّر أني قلت شيئًا كهذا.

ـ هل تسحبين اعترافك؟!

ـ عن أيّ اعترافٍ تتكلّم؟ غسّان لا تجعلني أندمُ لأني كشفتُ لك سرّ روح الحياة.

ـ أتندمينَ على أشجع خطوةٍ أقدمت عليها في حياتك؟! الله يسامحك، اسمعي، أنا متشبّث بهذا الاعتراف، سواء بقيتِ مُلتزمة به أم لا، كيف تريدينني أن أتجاهل أعذبَ كلمة حبّ سمعتها في حياتي، يا حياتي!

ـ غسّااان، أرجوك.

ـ يا قلبَ غسّان.. يا روحَ غسّان، يا عيونَ غسّان.

ـ أووه، غسّان لا تصعّب الموقف، أحسّ بأنه سيغمى عليّ!

ـ هل هذه أوّل مرة تسمعين فيها غزلًا مِن هذا النوع؟

ـ والله العظيم إنّها أوّلُ مرّة.

ـ لماذا؟ هل أصيب الشباب بالعمى؟ أنت فتاةٌ حلوة وجذّابة.

ـ وإن كنت كما تصف.. غير أنّي لا أسمح لأحدٍ بتجاوز الحدود معي.

ـ ولا حتى أنا؟

ـ ولا حتى أنت، غسّان ما بك؟

ـ حسنًا، لا تنزعجي، بأيّة لغةٍ تريدين أن أعبّر عن شعوري؟!

ـ تكلّم معي كما كنت تتحدّث مع روح الحياة، لنتحادث بالطريقة المناسبة كأصدقاء.

ـ لا.. لا، انسي، نحنُ اليوم أروعُ عاشقين!

ـ غسّان لو سمحت، أنا جادّة فيما أقول.

ـ لماذا يظهر عنادك الآن؟! أنا صدري مشتعلٌ شوقًا ووجدًا.

ـ يبدو أنّي سأكفّ عن الكلام معك تمامًا.

ـ لا.. لا، لا داعٍ للعصبيّة والغضب.

ـ غسّان، افهمني. ربّما أني قلت لك تلك العبارة في لحظةِ امتنانٍ كبير بعدما أظهرت اهتمامًا بمشكلة سميرة، لا تعتبرها إشارةً خضراء تفسح لك المجال لكلّ شيء، لنبقَ في حدود المعقول.

ـ أمرك يا عمري.

ـ أووه، سأنهي الاتصال.

ـ اهدئي.. سأفعلُ ما ترينه صحيحًا رغم أني غير مقتنع.

ـ شكرًا لتفهّمك.

ـ العفو يا سيدتي، أريد أن أراك.

ـ وأنا كذلك، أريدك في أمرٍ هام.

ـ إذًا.. هيّا، استعدي للخروج حالًا، سأنتظرك في مقهى سرور، على نفس الطاولة.

ـ الآن؟

ـ نعم.. الآن.

ـ لا، الوقت متأخر، سنلتقي غدًا.

ـ لا أستطيع الصبر.

ـ ولا أنا..

ـ حقًّا؟!

ـ أقصد لا أستطيع كتمانَ هذا الأمر عنك أكثرَ من ذلك.

ـ أيّ أمر؟! قوليه الآن..

ـ حسنًا، لقد كنت محقًّا في ظنّك بأني أخفي عنك ما أعرفه عن سبب انهيار سميرة.

ـ كنت متأكدًا من أنك تعرفين؛ لكن لم أشأ أن أضغط عليك.

ـ اعذرني، أنا أثقُ بك يا غسّان، لكنه سرُّ سميرة الخاص.

ـ لا داع للاعتذار، أحترمُ فيك الوفاء لصديقتك وكتمانك لأسرارها. كم أنت رائعة يا كاميليا!

ـ سوف أستأذنها في إخبارك، أنا أشكّ بأن انْهيارها له علاقة باختفاء هالة، ربّما إن وجدنا الحلقة المفقودة في هذا اللّغز، سوف نتمكّن من مساعدة سميرة كي تشفى وتعود لطبيعتها، وقد نجدُ هالة.

ـ ليت هذا يحدث، استأذنيها بأسرع وقت، وضعُها متدهْور. مؤلمٌ جدًّا، يجب اكتشاف سرّ انهيارها بأسرع ما يكون.

ـ أوه.. صحيح. نسيت أن أخبرك.. لقد عادت أمّها من بلدتهم، وعندما رأت وضعها قرّرت أن تسافر بها إلى أوروبا، سوف تدخلها مصحّة نفسية هناك، أكاد أجزم بأنّ سميرة لن تنتفع بهذا السفر، أفضّل أن نكتشفَ تفاصيل ما حدث لها قبل أن تسافر.

ـ أنا معك في هذا الرأي، كم أنا شغفٌ لمعرفة حقيقة ما حدث، ومعرفة مصير الأستاذة هالة.

ـ أنا أشدّ شغفًا منك لمعرفة ذلك، لكن هل سننجح؟ سميرة لا تريد أن تفصح، هي لا تفضي لي بجميع أسرارها.

ـ تبدو كَتومة، اسمعي، لقد قرّرت أمرًا...

ـ ماذا قرّرت؟!

ـ سأتبع خيطًا قد يدلّنا على سبب اختفاء هالة، وربّما سيحلّ لنا لغز انهيار سميرة المفاجئ.

ـ أيّ خيط هذا؟!

ـ أنا أشكّ بالرجل الذي كانت تلتقي به الأستاذة هالة وتخرج معه قبل اختفائها بمدّة.

ـ مَن يكون؟

ـ الدكتور الجديد في قسم التشريح.

ـ لم أرَه، لا أعرفه.

ـ مِن حُسن حظّك أنك لم ترينه، إنه شخص مُريب ومُرعب، أحسّ بأن له يدًا في اختفاء الأستاذة هالة، سمعت بأنّ الشرطة استدعته واستجوبته لكنّها لم تتّهمه بشيء.

ـ وكيف ستثبت بأنّ له يدًا في اختفاء هالة إنْ كانت الشرطة قد برّأته؟!

ـ لا أدري، حدْسي يشير بإصبع الاتّهام نحوه، سوف أراقبه، حتمًا سأجدُ ما يوصلنا إلى نتيجة.

في هذه الليلة، أفلتُّ من غسّان بصعوبة، أراد أن نتحادث حتى الصباح، شعرت بصدق أحاسيسه تجاهي، ولسعتني حرارةُ عاطفته، أراد أن يبوح بما يليق وما لا يليق، بذلت جهدًا لأمنعه من البوْح الممنوع، ولأتحكّم في إحساسي وأنا معه، وأمنع نفسي من الانزلاق وراء نهر عاطفتي المتدفّقة تجاهه.. كم كان ذلك مرهقًا بالنسبة لي!

شعرتُ بذاتي العاشقة تتمرّد وتعترض، تصرخ رافضةً وصايتي عليها، تقاومني بشدة، أردتُ أن أقول له: أحبّك، أحبك يا غسّان، أذوب وجدًا وشوقًا إلى احتضانك، أتلهّف لإرساء مركبي على شاطئك، أنتَ يا مرفأ أحلامي، يا أيقونة عمري، يا أعذبَ نغمة تعزفها أوتار أقداري، ضحكتك تبعثُ النشوة في أركاني، صوتُك لحنُ الْتذاذ ساحر يسطو على وعيي، يداعب كلّ ذرة في كياني، كمْ ترهبني غشية الغياب فيك!

هيّا، ثرْ على جلمود تحفّظي، حطّمه، بدّد كلّ الحجب التي أسْدلها بيني وبينك، مدّ يدَك ومزّق حرير شرنقة أحبسُ فيها مشاعري، قلْ ما تشاء، اسكب نهرَ غزل على مسامعي، أغرقني في سلسبيل وجْدك، ألهبني بنار رغبتك حتّى الاحتراق، ثمّ انثر رماد عشقي على وسادتك، وأحيني من جديد بنفثة عطرٍ من أنفاسك.

ورقةٌ من مذكّرات غسّان..

ثورةُ بوحٍ تضطرم في جوفي، تدفقٌ مُذهل للمعاني، رغبة لا متناهية في الكتابة.. الكتابة بتحرّرٍ من قيود شتى، حتّى من قيد قواعد اللّغة. الآن في هذه اللحظة، قد أعذر بعض «الحداثيّين» من عشّاق البوح!

تقرّح روح، وفيضانُ حبر يدفعني بجنون لقول كلّ شيء، مَن يسمّي لي هذه الحالة؟!

لن أتوقّف لانتظار إجابة، سيمضي قلمي المهووس ليملي علي فيض خاطري، شلال شعور غاية في الإمتاع، تسيل الكلمات بين أصابعي دون أن تمرّ على غربال ذهني، دغدغة مثيرة للأنا، تستعرض بعضَ خفاياها وتنتشي من لذة الظهور، مجنونة هذه الأنا التي تثير حولها غبارًا زعفرانيًّا أحمرَ بهيجًا؛ كي تتلألأ في مهرجان التدفّق من أجل التواجد فحسب، تصرخ: أنا ها هنا!

في الواقع، يمكنني الاعترافُ قبل إنهاء هذه المقطوعة من نزْف الروح، وهوس الأنا.. بأنّ ثمّة جنونٍ لا يمكنني نزعُه عن نبرة قلمي وخاطري.. جنونٌ تلبّسني منذ قالت لي كاميليا «أحبّك»!

لهثتُ خلف كمال لأيام كي أقصّ عليه جديدي، حبي لكاميليا وتصريحَها بحبّها لي، كشفت له بأنها هي ذاتها روحُ الحياة؛ فرسم وجوهًا ضاحكة، ساخرة!

قلتُ له بغضب:

ـ هذه المرّة حبّ حقيقي، أقسم على ذلك.

ـ كمْ مرّة قلت لي هذا؟!

ـ أدركت اليوم بأنّ قصص الحبّ السابقة كانت مجردَ علاقات عابرة، لم أذقْ معهن الإحساس العميق الذي أحسّه اليوم تجاه روح الحياة.

ـ روح الحياة، أم كاميليا؟ حدّد.

ـ لا علاقة للأسماء بما أحسّه.

ـ لماذا تردّد اسم روح؟! يبدو أنك مازلت متعلقًا بالشخصية الوهميّة التي رسمتَها لها في خيالك، لو أنك حقًّا أحببت كاميليا فلماذا لم تثرِ انتباهك عندما التقيت بها في المكتبة قبل أن تعرف بأنّها هي ذاتها روح الحياة؟ أخشى أن تحاول حشرَ كاميليا في القالبِ الوهمي الذي صنعته في مخيلتك لروح!

ـ ومَن قال إنّ كاميليا لم تثر اهتمام!؟

ـ لأنّك لم تحدثني عنها حينذاك؛ مع أنّك في العادة تحدّثني عن كلّ شاردة وواردة تخصّ الفتيات اللاتي يدخلنَ محيطك.

ـ لقد تردّدت.

ـ وفيمَ التردّد؟!

ـ خشيت أن تلقي على مسامعي بتلك التّهم القاسية، ما ذنبي إن كنتَ باردَ الشعور منطفئ العاطفة، لا تحرّكك فتاة؟!

ـ شكرًا لك.

ـ أفّ لي، أحيانًا أحسّ بأن لساني حادّ ويستحق القطع، اعذرني يا صديقي، أقسم أنني لم أقصد جرحَ مشاعرك؛ لكنك ستصيبني بالجنون، كيف لم تقعْ في الحبّ ولو لمرّة واحدة، هذا شذوذ!

ـ شذوذ! أنت اليوم تتكلّم دون أدنى تفكير!

ـ عفوًا، لم أقصدِ المعنى الذي تبادرَ لذهنك، عنيت بكلامي أنك مخالف للقاعدة.

ـ وما هي القاعدة الذهبيّة التي خالفتُها؟!

ـ قاعدة الانجذاب الفطري نحو الجنس الآخر.

ـ ومَن قال إنّي لا أنجذب؟

ـ هذا اعترافٌ خطير جدًّا!

ـ ههههه، كم تضحكني بظنونك السطحية، وحكمك البسيط عليّ، الفرق الوحيد يا صديقي بيني وبينك هو أنّني أجيد ضبط سلوكي، وأحترمُ الأنثى لدرجة لا تتصوّرها.

ـ وهل من الاحترام لها تجاهل أنوثتها؟ أو الإيحاء لها بأنّها غير جذّابة، غير مثيرة لأحاسيسك؟ هذه قائمة إهاناتٍ لا تقبلها إيّ أنثى!

ـ أنت تتعامل وكأنّ جميع الإناث مشاعٌ لك، تنثر مشاعرك على الجميع، هذا سلوكٌ مهين.

ـ مُهين لِمَن؟!

ـ مُهين لك بالدرجة الأولى، أنت ترمي بقلبك ومشاعرك لِمَن تستحقّ ولِمَن لا تستحقّ، أليس هذا ابتذالًا؟

ـ أنا مُبتذل؟! والآن، مَن الذي يتكلّم دون تفكير؟

ـ أنت البادئ.

ـ حسنًا، ثمّ ماذا؟ أكمل فلسفتك.

ـ كيف تشعرُ بالاحترام تجاه نفسك وأنت تعطي وعودًا كاذبة لكلّ فتاة تنال إعجابك، كيف تسمح لنفسك بسلب عفّتها ثمّ الفرار؟!

ـ سلبت عفّة مَن؟! هذا لم يحدثْ قط، كلها قصص حبّ عذري، وأقسم على ذلك، ثمّ أنا لم أعِد إحداهن بأي شيء.

ـ خروجك معها، إسماعُها كلمات حبّ وغزل.. كلّ ذلك تعتبره الفتاة أهمّ وأغلى مِن خاتم الخطوبة!

ـ سذاجة، أنا لست مسئولًا عن غبائهن، أنا أبحثُ عن فتاتي التي سأكّون معها أسرتي، وستكون أمًّا لأبنائي وسأعيش معها بقية حياتي، اتخاذ قرارٍ خطير كهذا بحاجة لتفكير طويلٍ وتمحيص واختبارات.

ـ هل قلت ذلك لإحداهنّ قبل أن تمطرها بالغزل البريء والغير بريء؟

ـ هل يجب أن أفصح؟ لماذا لا تستخدم عقلَها، ذكاءها!

ـ المرأة عندما تحبّ يغيب لديها العقل ويضمحلّ الذكاء، ثمّ ألا تعلم بأن الحبّ الصادق هو لونٌ من الغباء!

ـ لا أريد حبًّا غبيًّا.

ـ أرجو أن تكون كاميليا ممّن يتقنّ فنّ الحبّ الذكي، لعلها تضع حدًّا لنزواتك، لكنْ تعال، لن تضحك عليّ.. عن أيّ حبّ عذري تتحدث؟ ماذا عن تلك المغامرات الفحوليّة التي صدعت بها رأسي ونحن في الجامعة؟ الآن تنكرُها وتدّعي أن جميع علاقاتك كانت حبًّا عذريًّا!

ـ هههههه، كلّما تذكرت منظركم وأنتمْ جلوس حولي فاغري الأفواه جاحظي الأعين أستلقي من شدّة الضحك!

ـ يعني كلّها أكاذيب؟!

ـ ليس كذبًا، استعراض معلومات، هل تتذكّر منظرك يوم طلبت منك حراسة باب الاستراحة ونحنُ على الشاطئ؟!

ـ وماذا ستقول عن هذه؟ كنت متسمّرًا أمام الباب وسمعت كلّ شيء.

ـأقسمُ لك بأنها أكبرُ كذبة كذبتها عليكم، العملية لمْ تتمّ، أقسم على ذلك، تلك الفتاة جعلتني أتوب عن مجرد التفكير في مثل هذه النزوات.

ـ كيف ذلك؟!

ـ إففف يا كمال، لو شممتَ تلك الرائحة المُنتنة التي انبعثتْ منها، هل تصدّق بأنها سبّبت لي عقدة من مضاجعة النساء، أخشى أن أتزوّج امرأة عفنة مثلها!

ـ يععع، يا للقرف، لذلك تتنقلُ من واحدةٍ لأخرى، كيف ستختبر هذا في كاميليا؟!

ـ لا.. لا، كاميليا مختلفة، أحسّها عطرةَ الروح والجسد.

ـ هل تدري يا غسّان بأنّ الله يحبّك؟

ـ أشعر بأنّه يحبني، لكن كيف جزمت بذلك؟

ـ لأنّك عندما هممتَ بالانخراط في هذه الخطيئة أوقعك في تجربةٍ سيئة مع بائعة هوى عفنة!

ـ صدقت، ربما لو وجدتها في حالٍ أفضل سوف استمرئ التجربة وأكرّرها مرارًا.

كم بدا كمال سعيدًا عندما عرف بأنّي لم أضاجع تلك الفتاة!

بعد أن غادر الدردشة فكّرت بكلامه، لأول مرّة أتأثر بحديثه، ربما لأني أحببت كاميليا بصدق، أحمل لها في نفسي قدرًا كبيرًا من الاحترام، أراني لأول مرّة عاجزًا عن ممارسة الغواية معها، أو استعراض مفردات الغزل أمامها، كان كمال في السابق يقول لي:

ـ أنت لديك شقيقتان، ألا تخشى أن تقعَ إحداهن فريسة في براثن شابّ عابث مثلك؟!

لم تكنْ عبارات كمال تمنعني من تكرار التجربة؛ فلم أشعرْ بأني مُذنب ولو لمرّة واحدة برغم كلّ قصص الحبّ التي عشتها؛ لأنّني

عندما أعجب بفتاة وأبدأ معها علاقة، أكون بالفعل باحثًا عن شريكة لحياتي، أين الجريمة في أني لم أتوافق مع إحداهن؟

كانت الحكاية تنتهي عندما يبدأ إحساسي بالفتاة يضمحل، ثمّ يتلاشى، وأرى بوضوح كم نحنُ مختلفان! الشيء الوحيد الذي كان يعذّبني هو شدّة تعلقهن بي!

قالت لي إحداهن:

ـ تزوّج بي وعشْ حياتك كما تشاء، أحِبب مَن تشاء، وغامر، وافعلْ ما تشاء، المهم أن ترجع لي في آخر النهار وأنامُ بين أحضانك!

كم أشفقتُ عليها!، لكنني لن أتزوّج بدافع الشفقة، ولن أتزوّج بفتاة تفرط بكرامتها لأجل الحبّ! أعتقد بأنّ هذا ليس حبًّا، إنه اعتلال نفسي.

كاميليا مختلفة.. فيها شموخٌ يدهشني، وتمرّد يثيرني، تنوّع شخصيتها يجعلني عاجزًا عن تخْمين ردّة فعلها التالية.

تأسِرني بتحكّمها في مشاعرها التي أراها تتوهّج لهبًا في عينيها، أشعر بطوفان اشتهاء ورغبة صامتة تستعرُ في جوفها بصمت، أراها تكتم أنّات أنوثة عطشى، متأجّجة في كيانها كلّ مرّة نلتقي فيها. أتأمّلها وهي تحجبُ ضعفها برداءِ كبرياء شفاف؛ فأزداد ولعًا بها، كم أتوقُ

لنزع هذا الرّداء عنها، وتبديد كلّ تلك الحجب التي تحول بيني وبينها؛ غيْر أني أتأنّى، مستعذبًا زمن الانتظار، ملتذًّا بنشوة الخاطر الذي يتكرّر حتى يسكرني، هي لا تقترب مني حتى الإملال ولا تبتعد لحدّ الجفاء، تهدهدني على أمواج تعلو وتخبو إلى ما لا نهاية، أحيانًا أثور وأعترض وأقول لها كفى، لكني في أعماقي راغبٌ ببقاء ذلك الشعور المتأرجح حتى الفناء.

سميرة وسرّ المشْرحة...

انهمكتِ الخالة حَسنات في التحضير للسفر، وبقيت أنا مُلازمة لسميرة طوال الوقت، كانت حالتها تتقلّب بين تحسّن مدهش وانتكاسة مُروّعة، امتنعت عن تناول الأدوية، قالت لي ذات مساء بعد أن رفضت أنْ تتناول شيئًا من الطعام أو الشراب:

ـ لا تخدعيني يا كاميليا وقد وثقتُ بك، لا تذيبي لي الدواءَ في الشراب، أنا أدرك جميع ما يحدث حولي، وأدرك معنى ما أقوله لك، أنا لم أفقد عقلي بعد.. أعرف حالتي وأعرف كيف أعالج نفسي، كلّ ما أحتاجه هو مزيدٌ من الصبر، مزيدٌ من الصدق، قفي إلى جواري.. افعلي ما أقوله لك فحسب.

شعرتُ بالخجل والفرح معًا، فرحت لأني رأيتها لأول مرّة واعية تمامًا بعد وقوعها فريسة للمرض، قلت لها:

ـ أعدك بأنّي لن أخدعك مطلقًا، سوف أفعل كلّ ما تأمرين به، قولي لي يا سميرة كيف أساعدك؟ أرجوك أخبريني ما الذي رأيته في المشرحة في تلك الليلة المشئومة، ما الشيء الذي فعل بك كلّ هذا؟!

اهتزّ جسدها بقوة، دسّت أناملها بين خصلات شعرها وتشنّجت، ندمتُ لوهلة لأنّي سألتها عمّا رأته في تلك المشرحة اللّعينة؛ لكنها هدأت بعد دقائق ثمّ قالت لي:

ـ لقد رأيت هالة!

قالت ذلك ثمّ انخرطت في البكاء، ضمَمْتها لصدري، ثمّ سألتها باستغراب:

ـ ماذا قلت؟ رأيت هالة في المشرحة، كيف ذلك؟!

ـ رأيتها جثةً هامدة.

ـ آه.. لا، يا ربّي، الأستاذة هالة ماتت؟!

ـ بل قتلت، قتلوها، قتلوها يا كاميليا، وسرقوا جميعَ أعضائها، حتى عينيها سرقوها!

لم تستطعْ سميرة إتمامَ حديثها، ارتعش جسدُها بقوة، ثمّ سقطت على الأرض مغشيًّا عليها، كانت الخالة حَسنات خارج المنزل، اتّصلت

بغسّان؛ فجاء من فوْره، نقلناها للمستشفى، اتصلت بوالدتها ولحقتْ بنا إلى هناك، أدخل الطبيب سميرة إلى غرفة العناية المركزة، عندما رآها بتلك الحالة قال لي بغضب:

ـ ألمْ أحذّرك، وأنبّه بأن حالتها حرجة؟! واضح جدًّا أنها لم تتلقَّ الرعاية والاهتمام الكافي، هل تنوين قتلَها؟!

لم أردّ عليه، ماذا عساي أن أقول! لا يوجد إنسان على هذه الأرض عدا أمّها يتوجّع لسميرة كما أتوجّع أنا، أشعر بأنني مسئولة عما أصابها، واليوم بعد أن كشفت لي عن سرّ الصدمة الرهيبة التي حلّت بها؛ تضاعف همّي وغمّي..

ركضتُ من أمام الطبيب وأنا أبكي، لحقَ بي غسّان، فتح لي باب السيارة، جلست بجواره على المقعد الأمامي، قال لي:

ـ لا تقسي على نفسك يا حبيبتي، أنت لم تقصّري في الاعتناء بها، ذلك الطبيب الجِلف، كيف سمح لنفسه بالتحدّث معك بهذه الطريقة؟! همْمت بإسكاته بلكمةٍ على وجهه.

أضحكتني عبارة غسّان الأخيرة رغمًا عني، ابتسم وأعطاني منديلًا، وقال:

ـ تبكينَ وتضحكين معًا! طفلة أنتِ يا حبيبتي.

ـ أنت مَن سيبكي بعد الذي ستسمعُه مني.

ـ ماذا بعد؟!

ـ أعتذر يا غسّان، لست أدري لماذا كلّما التقينا أسمعتك أخبارًا غير سارة!

ـ لا عليك، إنّه القدر، ماذا لديك؟!

ـ هو أمرٌ بشأن هالة.

ـ هل عرفت بمكانها؟

ـ لقد قُتلت.

ـ أوه، قُتلت! كيف عرفت ذلك؟!

ـ أخبرتني سميرة قبل أن يُغمى عليها.

ـ إذًا، هذا هو سببُ الحالة التي أصابت سميرة، يا للمسكينة! لكن كيف قُتلت الأستاذة هالة؟ وأين؟ ومَن الذي قتلها؟!

ـ لا أدري، أغمي على سميرة قبل أن أسألها عن الفاعل.

ـ هيّا بنا.. سوف نبلغ الشرطة.

ـ لا.. لن نفعل، ألا ترى وضعَ سميرة؟! هالة ماتت، فقدناها للأبد،

لن تعود مهما فعلنا، والله كفيل بكشف القاتل والأخذ بثأرها منه، لا يجبُ أن نخسر سميرة أيضًا.

ـ يا لها من قضيةٍ معقّدة، لكن كيف نخفي هذه المعلومة عن الشرطة، وعن أمّ الأستاذة هالة؟ تخيّلي حالتها الآن، ابنتها الوحيدة مفقودة، وهي لا تعرفُ ما هو مصيرها، لا بدّ أنها تتعذب كثيرًا.

ـ وهل سيزولُ عذابها إن عرفت بأنّ ابنتها هالة ماتت مقتولة؟! أخبرتني سميرة بأنها قُتلت بطريقة شنيعة!

ـ طريقة شنيعة! كيف؟!

ـ بعدما قتلوها مزّقوا جسدها، سرقوا جميع أعضائها، حتى عينيها!

لست أدري كيف تعرّفت سميرة عليها! الآن عذرتُ سميرة، لو كنت مكانَها ورأيت شيئًا هكذا سوف أجنّ فورًا، أو قد أموت!

ورقةٌ من مذكّرات غسّان..

لم أتوقّع بأنّ مذكراتي ستحوي قصةَ قتل بشعة أخرى، أحدُهم قتل الأستاذة هالة بطريقةٍ وحشية! وسميرة دخلت في غيبوبة، والله أعلمُ متى ستفيق! بتّ أخشى أن تموتَ سميرة قبل أن تخبرنا ببقيّة القصة. بدأت بمراقبة أستاذ التشريح، هاجسٌ قوي يدفعني لذلك، أنا شبهُ موقن بأنّ له يدًا في مقتل أستاذتي هالة، مشيتُ خلفه خلسة، لازمته كظلّه عدّة أيام، لم ألحظْ في سلوكه شيئًا يدلّ على أن له يدًا في قتلها.

هو يستيقظ مبكرًا كلّ يوم، يخرج للشرفة يؤدي بعضَ التمارين الرياضية، يحتسي القهوة، يقرأ الجرائد، بعد دقائق ينزل إلى عمله في الجامعة، يتناول طعام الإفطار في بوفية الجامعة، يمضي ساعة استراحتِه مع عميد الكلية، يبدو أنّهما صديقان؛ لأنّ العميد يصطحبه معه كلّ يوم ليتناولا وجبةَ الغداء سويًّا في بيت العميد، يرجع بعد العصر إلى شقته، يمضي عطلة آخر الأسبوع في منزل رئيس الجامعة!

قال لي حارسُ العمارة عندما سألته عن مواعيد استقباله للضيوف:

ـ يبدو بأنه عازب. لم أره يستقبل أحدًا في بيته منذ أن سكن، من عاداته التي لا يتخلى عنها النوم كلّ يوم بعد العصر، نبّهني وأكد عليّ أكثر من مرّة بعدم السماح لأحدٍ بإزعاجه، حتى يحين موعدُ خروجه الليلي بعد غروب الشمس.

رغم أنّي لم أجدْ ما يريب في سلوك الدكتور قصي إلّا أن هاجسي بقي يدفعني لتتبّعه، سرت خلفه بهدوء، هو يتسوّق بنفسه كلّ مساءٍ من السوبر ماركت ذاتها، لمحتُه يشتري قناني خمر.. والكثير من الجُبن، ويشتري عددًا من الأكياس السوداء الصغيرة الحجم مرّة كلّ نهاية أسبوع!

يزور مقهى قريبًا عند التاسعة، ويمضي هناك بعضَ الوقت في تدخين الشيشة ثمّ يرجع للبيت، يخرج عند العاشرة والنصف ليلًا إلى زقاق طويل يقع خلف العمارة التي يسكن فيها، يجلس تحت عمود الإنارة الخافت ضوءه، يرمي للقطط الشاردة بكميّة من اللّحم المفروم، يستمتع بمراقبتها وهي تأكل، لا يرجع إلى شقّته حتى تنهي القطط وجبتَها كاملة.

يعيش برتابة وبنظام موحّد، لم يتغير طوال الأيام التي تتبعته فيها قيْد شعرة، شيء مملّ، شعرت لوهلة بأنه رجلٌ آلي!

قلتُ لكمال:

ـ لقد تعبتُ من مراقبته، حياته رتيبة مملّة موحشة، كيف يستطيع أن يحيا هكذا!

ـ ولماذا أراك مصرًّا على أن له علاقة بمقتل الأستاذة هالة؟ يبدو رجلًا بسيطًا!

ـ إنه مجرّد حدس، لقد جرّبت حدسي مرارًا، هو قلّما يخطئ، ثمّ لماذا يبدو غير مهتمٍّ لفقْدها؟ كانا يلتقيان في مقهى سرور، رأيتُ وميض إعجاب تجاهه في عيني أستاذتي هالة!

ـ دعْك منه يا غسّان، الشرطة ستتولّى القضية، اهتمّ بدراستك.

ـ الدراسة متعطّلة بسبب غياب الأستاذة هالة، كانت هي المشرفة على بحثِ تخرّجي كما تعلم، لن يعيّنوا غيرها إلّا إن علموا بخبر مَقتلها، إذا لم تتكلّم سميرة أو كاميليا قد يطول الأمر.

ـ لقد فهمتُ الآن، أنت تفعل كلّ هذا لأجلِ مصلحتك وليس غضبًا لمقتل أستاذتك!

ـ لا تكن قاسيًا في حكمك عليّ، أنا متحمّس للقضية لهذه الأسباب مُجتمعة، وثمّة سببٍ أهمّ.

ـ ما هو؟

ـ لإزاحة الكدر عن حبيبتي كاميليا، لو ترى كمْ هي حزينة! إنّني مشفق عليها، ربّما إن فككنا ألغازَ هذه القضية فسوف تزولُ عنها هذه الهُموم، وسنتفرّغ لقصّة حبّنا.

ـ أها، وصلنا لمربط الفرس، قصّة حب، ترى هل ستكون مجرّد قصة حبّ عابرة كسوابقِها؟

ـ قطعًا لا. كاميليا هي حبّ عمري، متى ستصدّق بأن حبي لها حقيقيٌّ؟!

ـ حسنًا، لا تغضب، الأيام ستبرهن على صدق ادعائك.

ـ كم يحزنني عدم تصديقك لي، أنت بالذات أقرب الناس إلى قلبي، وأكثرهم قربًا مني، وأنت مَن يهمّني جدًّا أن يبارك هذا الحبّ وهذه العلاقة.

ـ أعتذرُ يا صديقي، لم أقصد إحزانك، أردت تمحيص شعورك فحسب، أتمنى لك التوفيق والسعادة.

ـ لا بأس، سامحتك؛ ولتكن على استعداد. سوف تشهد على عقد زواجنا.

ـ أنا..! مستحيل.

ـ لماذا مستحيل؟!!

ـ أقصد.. صعب.

ـ وما الصعوبة في ذلك، سوف أشتري لك تذكرة السفر على حسابي، قل لي متى سترفع الحظر عن المكالمات المباشرة؟!

ـ لا داع لذلك، نحن نتحادث عبر هذا التطبيق المجاني، وهذا أفضلُ لكليْنا.

ـ أريد أن أسمعَ صوتك، أن أراك، افتح الكاميرا رجاءً.

ـ سبق وقلت لك لا يوجد على حاسوبي كاميرا.

ـ ألا تخجل مِن قول هذا؟! أنت في بلدِ التقنية وتمتلك حاسوبًا قديمًا!

ـ وماذا في ذلك؟

ـ افتح تطبيقًا على جوّالك، الخيارات عديدة، أنا مصمّم على رؤيتك الليلة، لقد سئمتُ من جميع أعذارك.

ـ ولماذا هذا الإلحاح؟! ماذا إن كان لدي ما لا أريدك أن تراه؟!

ـ ما الذي يخجلك؟ أنفك المعوجّ؟ أعرفه، هل ازدادَ اعوجاجًا؟ لا يهمّ.

ـ أنت الليلة غريب الأطوار، هيا يا غسّان دعني من طبع الإلحاح المقيت، أنا مشغول الآن، يبدو أنك نسيت فارق التوقيت بيننا، إنني في العمل يا صديقي، هل تريديني أن أخسر وظيفتي؟! اطمئن، ستراني وجهًا لوجه عندما ترسل لي تذكرة السفر لحضور حفل زفافك أنت وكاميليا، تحياتي لها.

أنهى كمال التحادثَ دون أن يستجيب لطلبي، مضى ببرودته القاتلة متجاهلًا رجائي. لا أدري لماذا يرفض السماح لي بسماع صوته أو رؤيته؟!

حتى إن اتّصلت به، يرفض استلام المكالمة، ويكتب لي رسالة مقتضبة: أنا في العمل.

وإن اتصلت به وهو في البيت يردّ برسالة: «أليس لديك دراسة الآن؟ أنا منشغل مع الأسرة، سندردش لاحقًا».

حاولت الإيقاع به مرّة؛ فاتصلت به من رقم أحدِ أصدقائي؛ فلم يجب!

زيارةُ شهيرة المباغتِة..

عدتُ للمنزل لأجده مقلوبًا رأسًا على عقب، صرخت:

ـ النجدة، أدركوني يا جيران، في بيتنا لصوص!

خرجت شهيرة من حجرة نومِها مذعورةً، وصاحت بي:

ـ لا تجمعي علينا سكانَ الحي، ما الذي أصابك؟ أنا مَن فعل هذا بأثاث الشقة.

تهاويتُ على الأرض، مفاجأتان في آنٍ واحد، حضور شهيرة وإعصار فوضى عبث بأثاث البيت!. كيف تعود شهيرة للبلد هكذا دون أن تخبرني؟ هذه هي أختي شهيرة، نصفُها طيب جدًّا ونصفُها مجنون جدًّا!

لم أكد أستردّ أنفاسي من وقع المفاجأة، حتى صفعتني بالكشف عن سببِ مجيئها الغير متوقع، قالت لي وهي تضمّ كفّيها إلى صدرها سرورًا:

ـ سأتزوّج أخيرًا!

ـ ماذا؟!

ـ جئت لألتقي به، ولنحدّد موعدًا للزواج.

ـ تلتقين به، مَن يكون؟

ـ ساري.

ـ مَن ساري؟!

ـ شابّ لطيف تعرّفت عليه عبْر النت، أخيرًا نطق وقالها، يريد أن يتزوّجني.

ـ ستتزوّجين بشابٍّ تعرفت عليه عبْر النت، لا تعرفين عنه أي شيء في الواقع!

ـ وما الضيْر في ذلك؟ كاميليا لا تكوني متخلّفة، الحياة تتغيّر، وأنت واقفة في بقعة قصيّة من الماضي.

ـ هل أخبرتِ والدينا بما تنْوين فعله؟

ـ لا، ليس قبل أن أراه، هُما حتى لا يعلمان بأنّي عدت إلى هنا، قلت لهما: سأذهب إلى ميونخ لحضور حفل زفاف صديقةٍ حميمة لي.

ـ كذبت عليهما! شهيرة أنت تتصرفين بطيش ورعونة لا تليق بك، أنا مصدومة للغاية من سلوكك هذا!

ـ ماذا تريدينني أن أفعل؟ أبقى مكاني، لا أحرّك ساكنًا حتى يفوتني قطار الزواج! شقيقتاك نورهان وميار لا يمثّل لهما الزواج أولويّة، أنا مختلفة عنهنّ، أريد أن أنشئ أسرة مثل أسرتنا الجميلة، وأنجب العديدَ من الأبناء، سأتمّ الثلاثين بعد عام، ولم يطرق بابي خاطبٌ واحد!

ـ لا أصدّق أنك تفكّرين بهذه الطريقة، سيغمى عليّ!

ـ لا، رجاءً، تماسكي يا كاميليا أنا أعتمد عليك.

ـ لا شأن لي بجنونك هذا، سأتّصل بوالدي وأخبره عمّا تنوين فعلَه ليتصرف معك.

ـ كاميليا.. إذا فعلت هذا بي فلن تكوني لي أختًا بعد اليوم.

رأيت في وجهِها ما يدلّل على أنها جادّة في تهديدها. أحبّ شقيقتي شهيرة كثيرًا، هي أقرب أخواتي إليّ؛ بل هي صديقتي، لا أريد أن أخسرها. شهيرة طيبة للغاية، لكنّها عندما تقرّر إخراج أحدٍ من حياتها؛ فإنّها تفعل ذلك بسهولة، ولا ترجع عن موقفِها مطلقًا، سوف تُخرجني من قلبها للأبد.

استجمعتُ شتاتَ نفسي وهدأت، فكّرت بأن أجاريها وأبقى إلى جوارها حتى تتجاوز هذه التجربة السخيفة التي ورطت نفسها فيها.

قلتُ لها:

ـ حسنًا، أنا أحبّك يا شهيرة، ولا أريد أن أخسرك، سوف أقفُ معك، لكنْ بشرط..

ـ اشترطي كما تشائين.

ـ إذا اكتشفت بأنّه لا يستحقك فلنْ أدعك تسجنين نفسك في زواج قدْ تندمين عليه طوال حياتك!

ـ وهذا هو ما أريده منك بالضبط، أنا لست مغرمةً به كما تظنين، أحتاج لبصيرتك، ولحدسك، لقدرتك على الحكم على الرجال، أنت رجلٌ في المقام الأول.

ـ صدقت، بل إنّني أساوي مائة رجل، الرجولة سمات وليست نوعًا!

انشرح صدرُ شهيرة بعدَ الذي قلته لها، اطمأنت، تضاعفت رغبتُها لتصحيح أوضاع البيت، وتنظيفه، وترتيب الأثاث، فعلت ذلك بحبّ ونشاط وحماسٍ منقطع النظير.

لا أخفيكم أنّي لا أتقنُ أعمال البيت! عندما رأتْ شهيرة حالة البيت المزرية، قالت لي:

ـ ماذا ستفعلين عندما تتزوّجين؟ يبدو أننا نسينا أن نعلمك أساليب التدبير المنزلي ومهارات الطبخ والتنظيف.

باغتُّها بسؤال:

ـ هل ستأتين به إلى البيت؟

ـ بالطبع لا، أنا فقط أستبقُ الأحداث، إذا تمّ التوافق بيننا، وحدث القبولُ النفسي بعد الرؤية المباشرة، سوف نحدّد موعدًا للخطوبة وسأبلغ الدينا، وما إلى ذلك.

شهيرة ترتيبُها الثالث بين شقيقاتي الثلاث، نورهان هي البكر، أنا معجبةٌ بشخصية نورهان منذ كنت طفلةً صغيرة في السن، كنت أراها جميلة.. واثقة.. وادعة.. هادئة.. دائمة التبسّم، حلمها أن تعمل في السلك الدبلوماسي، كان الخطّاب لا يتوقّفون عن طرق بابها، رفضت الجميعَ دون تفكير، قالت لأمّي ذات مرّة:

ـ توقّفي عن استقبال خطّاب جدد، إن أردت فزوّجي أخواتي الأصغر مني، أمّا أنا فلا أرغب بالزواج حاليًا، ربما بعدَ أن أصبح سفيرة سأبدأ التفكير في أمر الزّواج.

ميار أوسطُ شقيقاتي، هي أيضًا كان لها حلُمها الخاص، تريد جمعَ الثروة، مغرمةٌ بحياة الترف، تخصّصت في مجال له علاقة بالمصارف،

هي الآن تدير أحدَ البنوك في ماليزيا، رفضت التزوّج قبل أن تجمع ثروة لا بأس بها..

أمّا شهيرة فوضعها مختلفٌ تمامًا، كانت تقضم أصابعَها غيظًا كلّما رفضت نورهان أو ميار خاطبًا جديدًا، تهرع إلى المرآة، تتأمّل وجهَها، وتتساءل بصوتٍ عال:

ـ لماذا لا يتقدّم لخطبتي أحدُ هؤلاء، ما الذي ينقصني؟!

في كلّ مرّة تجيبها أمّي بتحسّر:

ـ لا شيء يا حبيبتي، والله إنّك أجملهن، يكفي أنك تشعرين بأنوثتك، ترغبين في أن تصبحي أمًّا، سوف تحقّقين لي حلمَ رؤية أحفاد يلعبون حولي، لكنْ ما الحيلة في الحوَل الذي أصاب شباب هذه الأيام!

لم أتوقّع أنّ لهفة شهيرة للزّواج، وشوقها للأمومة سيجعلها تتزوّج بشاب تعرّفت عليه عبر النت! ترى مَن يكونُ هذا الذي جعلها تأتي مِن برلين لأجله؟ هل يستحق منها كلّ هذا العناء، هل سيقدّر مبادرتها؟!

ورقةٌ من مذكّرات غسّان..

شهيرة شقيقة كاميليا، جاءت مِن برلين في زيارةٍ مفاجأة، يا لهُ من خبر!

ما الذي يحدث معي؟! أحسّ بأن مؤامرة كونيّة تُحاك ضدي؛ لتحرمني من التنعّم بحبّ عمري!

اكتئاب سميرة ومقتل هالة، غيبوبة سميرة ثمّ مجيء شهيرة، لقد سئمت كلّ هذا، متى ستتفرغ كاميليا لي، لحبّنا، لنلتقي، لنخرج سويًّا، لنتحدّث وجهًا لوجه عن مشاعرنا، نخطّط لحياتنا، نكون معًا لأجلنا فحسب! هل هذه أنانية؟ ربّما، وماذا في ذلك!؟ أرى بأنّ الأنانية في الحبّ ليست مذمومة، الحبّ تملّك، أريد كاميليا لي فحسب، تهتمّ بي، تهيم عشقًا بي، تغرقني في الحبّ والبوْح، تنسى الدنيا وهي معي؛ فأغدو اختزالًا لكلّ مفردات حياتها، هذا هو الحبّ عندي!

ظهورُ شهيرة المباغِت تسبّب في حرماني من رؤية كاميليا ليوميْن كاملين، أحصيت ساعاتها ودقائقها وثوانيها. مرّت كعامين، كقرنَيْن،

ثمّ فكرت أن أفعل شيئًا يزيح عن نفسي ألمَ غياب كاميليا.

قرّرت الخروج بصحبة شريف ومحمود لأكسرَ قيْد الانتظار، وأتخلّص من دوامة إحصاء الوقت، ذهبنا كالعادة إلى مقهى سرور الذي صرْنا مدمنين لقهوته وعصائره وأجوائه المنفتحة على الشارع والناس، وجدتُها هناك، كانت تجلسُ هي وشهيرة تنتظران حضورَ شخص ما!

هذا ما عرفتُه بعد مضي بعض الوقت، لم أستطع منعَ نفسي من اقتحام مجالها، ألقيت عليها التّحية، ارتبكتْ لوهلة حين رأتني أقفُ قبالتها، ثمّ ردّت عليّ التحية باقتضاب، وأشارت بيدها نحوي قائلة لشهيرة:

ـ أعرّفك على الأستاذ غسّان، طالبٌ عندنا في الجامعة، هو الآن في سنة التخرج قسم صيدلة، كان من المتردّدين على مكتبة الجامعة. وهذه هي أختي الدكتورة شهيرة، جاءت من برلين لتراني، ستمضي معي بعض الوقت.

ـ وااااو، دكتورة، رائع، تشرّفت بلقائك يا دكتورة.

ابتسمت بتوتر، ولم تجبني! أشرتُ بيدي لشريف ومحمود قائلًا:

ـ تعالا.

ثمّ توجّهت بكلامي لشهيرة:

ـ هذان صديقا الدراسة ورفيقا الشباب، وقلت لهما معرِّفًا:

ـ هذه هي الأستاذة كاميليا تعرفانها مؤرشفة مكتبة الجامعة السابقة، وهذه شقيقتُها الدكتورة شهيرة، جاءت للتوّ من برلين.

قلتُ ذلك، وجلست دونما استئذان، ودعوت شريف ومحمود للجلوس، شعرت بأني أحرجت كاميليا، لكني تجاهلتُ الأمر، أنا مغرمٌ ولا حرج عليّ، جلس محمود من فوره، تلكّأ شريف في الجلوس، قال وهو يحملقُ في شهيرة:

ـ ما بك يا غسّان؟! لا يليق بنا الجلوس قبل أن يؤذن لنا بذلك.

هنا خرجت كاميليا عن صمتِها قائلة:

ـ ولو يا أستاذ شريف! على الرّحب والسعة، وعندما يأتي الضيف الذي ننتظره سننتقلُ لطاولة أخرى، لا مشكلة.

جلس شريف وهو متحرّج، تأملتُ وجهَ كاميليا، شعرت بأنها قلقة، ترى ما الذي تخفيه عني هذه المرّة؟

شقيقتها شهيرة فتاةٌ جميلة وأنيقة للغاية، هي الأخرى كانت أشدّ قلقًا وتوترًا من كاميليا، الذي أثار نظري وأدهشني حقًّا في الموقف كلّه هو صديقي شريف الذي لم يزحزح ناظريه عن شهيرة.

بعد مرور دقائق على جلوسنا، جاء الضيف الذي كنّ في انتظاره، ما إنْ ظهر بهيئته الغريبة من أحدِ بوّابات المقهى حتى هبّت شهيرة واقفة، وسارت نحوه بخطوات متقاربة سريعة، نهضت كاميليا، واستأذنت بالانصراف، وقف شريف قائلًا:

ـ لا، نحن سننسحب لطاولة أخرى.

شكرَتْه كاميليا، ولحقت بشهيرة، جلس ثلاثتهم بعيدًا عنّا.. هجست:

– مَن يكونُ هذا الشاب المائع؟!

بعد مرور نصف ساعة، قامت شهيرة من مقعدِها بانزعاج، حاول ذلك الشخص ثنْيها عن المغادرة؛ لكنها بدتْ مصرّة. كانت شهيرة طوال مدّة جلوسه تحدقُ فيه باندهاش، وكنت أراقبُهم، وأنا أتقلّب على جمر الفضول، بقيتُ مثبتًا عينيّ عليهم طوالَ الوقت، قال لي شريف بغضب:

ـ غسّان، كفّ عن هذا، عيب عليك!

أجبتُه هامسًا:

ـ أريد أن أعرف ما علاقتهما بهذا الشخص؟ ألا تريان كيف يتحدّث، إنه مائع، أكاد أجزمُ بأنه من الجنس الثالث!

قال شريف:

ـ حرام عليك، لا ترمِ الناس بالتّهم جزافًا.

توجّهت بحديثي لمحَمود:

ـ بالله عليك يا محمود، تأمّله جيدًا، ما رأيك فيه؟ انظر كيف يتحسّس خصلات شعره الطويل الناعم، تمعّن في نعومة ساعديه، أنا على يقين بأنه تخلّص من شعر جسدِه بالليزر، هل ترى طريقته في الضحك واللّبس والجلوس؟ إنّه لم يستقرّ في جلسته للحظة واحدة، كأنه جالس على أشواك!

ـ بصراحة يا شريف، أنا مع غسّان، الشخص هذا غير طبيعي، إنني متأكد بأنك فهمت ما نعنيه، لكنك لا تريد أن تصرّح بذلك.

عندما أنهيت حواري مع محمود، والتفتّ جهتَهم، كان ثلاثتهم قد غادر المقهى.

في المساء، كتبت لكاميليا رسالة: مَن يكون ذلك الشخص؟!

ردّت باقتضاب:

ـ أنا لا أعرفه، ثمّة أمور بينه وبين شهيرة تخصّ عملَها.

لم أقتنعْ بإجابتها، لكن لا يهمّ، مادام أنه يخصّ شهيرة ولا يخصّها هي.

شهيرة مَصدومة..

أنهتْ شهيرة اللقاء قبل أن أنفجرَ بوجْه ذلك المريض، الذي قال لنا بصراحة فجّة:

ـ أنا الولدُ الوحيد لأسرة ثريّة، الجميع يُسمعني ذات العبارة كلّ يوم «يجب أن تتزوّج لتأتي لنا بوريث». بصراحة لقد مللْت، لذا قرّرت أن أتزوج، سوف تسرّ أمّي للغاية عندما أخبرها بأني أخيرًا سأحقّق لها أملها في الحياة، ستبكي فرحًا حين تراني أتبختَرُ بحلّة العرس، وبجواري تتمايل عروسي الجميلة، سوف تعجبينها كثيرًا يا شهيرة، سننجب أبناءً رائعين.

كنت لا أفعل شيئًا سوى الجحوظ بعيني مع كلّ حركة تصدر منه، مع كلّ كلمة ينطق بها، غير معقول، كيف أعجبها هذا المتميّع؟! شعرت بدوار خفيفٍ حين تخيّلت بأن شهيرة قد تبقى متمسكة به بعدَ هذا اللقاء، وبأنه سيغدو زوجًا لها، ماذا سيقول أبي عندما يجلس معه؟ ماذا ستقول نورهان التي تبدو أكثرَ رجولة منه عندما تراه؟!

لكنْ حمدًا لله لم تخيّب شهيرة أملي فيها، رأيتها تجلله بنظرات رفض وازدراء؛ فاطمأننت. أنهت شهيرة اللقاء بسرعة، ومضينا نحو البيت. في السيارة، جلست بجواري على الكرسي الأمامي، كانت مشيحةً بوجهها عني، تزفر بضيقٍ معظم الوقت، وبقيت ساكتةً حتى وصلنا إلى البيت.

عندما ولجْنا للداخل، ظننتُ بأنها ستبكي، لكنّها فاجأتني بإطلاق ضحكاتٍ مجلجلة، ضحكت بدوري، همَمْتُ بالتعليق؛ فأشارت إلي بأنْ لا أنطق بشيء، فسكتّ.

دخلت شهيرة إلى حجرتها، ولم تخرج منها حتى الصباح، سمعتُ بكاءها عند منتصف الليل، أردتُ أن أدخل عليها لأخفّف عنها، لكنني حين تذكرت بأنّ شهيرة لا تحبّ أن يرى أحدٌ دموعها تراجعت. وددتُ لو سمحت لي بأنْ أضمّها؛ لتذرف دموعها على صدري، تمنّيت أن أقول لها: سأحميك يا طفلتي البريئة.. سوف أبلسم جرحَك، وأحمي زغبَ روحك الذي لم يره بشرٌ غيري.. سأضمّك بحنان دافئ بين جنبيّ، وأحتويك بين أضلعي، سأحجب عن عيون الناس دموعك الطاهرة.. سأربت على عاتقك اللّين في ظلام الليل، وأهدهِدُك على عرجون شفقتي، سأرضعك لبنَ رقتي الفطري النظيف، وأفطمكِ عن كلّ لبان ملوّث، ابكي يا حبيبتي، واذْرفي الدّمع على عرش محبّتي.

يا صغيرتي المأسورة بقيْد أحلام الطفولة، المضمّخة روحك بعبق براءة لم يعدْ لها في

الوجود مثيل؛ اعذريني إنْ رغبت ببناء جدار عالٍ حولك.. قد أشرنقك يا طفلتي، فهل

ستحتملين قيدَ محبّتي؟!

اخلدي في سباتٍ هادئ بين جدر شفقتي عليك، حتى يأتي رجلٌ حقيقي يستحقك، حينها

سترين مروجَ أنوثتك التي كادتْ أن تتصحّر؛ تنبت أقحوانًا أصوغ به إكليلٌ أتوج به

رأسَك.. فقط قليلًا من الصبر يا غاليتي.

دلفتُ إلى حجرتي وأنا أتأرجحُ بين أمواج مشاعر متناقضة تجاه وضع شقيقتي شهيرة، مشاعر رضا، حزن، قلق، حب، شفقة.!

فككتُ رباط شعري، ونثرتُه على كتفي، انسدلَ حتى بلغ خاصرتي، جلست قُبالة المرآة أمشّطه، نثرت خصلاتٍ منه على جبهتي، طيّرتها بنفثة نفسٍ حارة، خرجت من دوامة وجعي لما حدث لشهيرة، وابتسمت رغمًا عني، حين قفزتْ صورة غسّان إلى ذاكرتي، واسترجعتُ كيف طوّقني بنظراتٍ فضوليّة طوال جلوسنا في المقهى.

ما إنْ وضعت رأسي على الوسادة حتى زارني فضولُه بهيئة رسائل، بالطبع لم أخبره بشيء، يجب أن أخفي ضعف شقيقتي عنه، حاولت أن أنام فلمْ أستطع، سمعت شهيرة قبيل الفجر، وهي تكلّم ذلك الخاطب المشوّه، وتقول له:

ـ أرجو أن تعذرني، للأسف لم يحدثْ توافق نفسي بيننا. قرّرنا أن نلتقي لنرَ هل سيحدث هذا التوافق؟ التقينا ولم يحدث؛ بل على العكس، شعرتُ بنفور، هذا الأمر ليس بيدي، لم أجدْك كما رسمتُك في خيالي، لم تلامسْ روحي روحَك عند اللقاء، أنت أعجبت بي، لكنّني لم أشعر بارتياح تجاهك. للأسف، لستَ النمط الذي أفضّله، سنبقى أصدقاء، أرجوك، لا تلحّ، انتهى الأمر.

قرّرت شهيرة العودةَ إلى برلين، ذهبت للمطار؛ لتجد الرحلات إلى ألمانيا معلّقة بسبب حادث إرهابي، سوف تبقى عندي لعدة أيام أخرى.

أردتُ أن أخرجها من جوّ الحزن الذي دخلت فيه بعد فشل مشروع زواجها. اقترح عليّ غسّان تنظيم برنامج ترفيه لشهيرة، زيارة للمتاحف، لمدينة الملاهي الجديدة، لقاعة التزلّج المغلقة، نزهة على الشاطئ.

عندما عرضت فقراتِ البرنامج على شهيرة، قالت باندهاش:

ـ كلّ هذا لأجلي؟!

ـ بالتأكيد، وهل عندي مَن هو أغلى منك؟ أنت تستحقين أكثرَ من ذلك.

خرجنا معًا في رحلة عائليّة مبهجة، برفقة شريف وشقيقة له اسمها «منى» عرفّنا بها شريف للمرّة الأولى، هي فتاة جميلة وخجولة جدًّا، جاء محمود وبرفقته فتاةٌ قرويّة يبدو أنها تمدّنت حديثًا، قدّمها لنا على أنها خطيبته! لم نصدّق ذلك في البدء؛ لكنّ طريقة تعامله معها جعلتنا نقتنع بأنّها خطيبته بالفعل، كان غسّان أشدّنا فرحًا ببرنامج التّرفيه والترويح عن شهيرة، قال لي:

ـ في البداية، تضايقت جدًّا من مجيء شهيرة، لكنني الآن في غاية الامْتنان لحضورها، لقد فزتُ بما كنت أخطّط له دون بذل أي مجهود يذكَر.

ـ أنت محظوظٌ دومًا.

ـ جدًّا.

ـ غسّان،

ـ يا روحَ غسّان.

ـ ماذا قلنا؟ رجاءً، على الأقل أخفضْ صوتك.

ـ حاضر، أوامرك يا سيدتي، ماذا أردتِ أن تقولي؟

ـ هل تلاحظ على شريف ما ألاحظه؟

ـ بصراحة أنا موجّه جميع أجهزة الاستشعار باتجاه واحد فقط، وملاحظ أشياء عديدة، غاية في الرّوعة، اسمحي لي أن أخبرك ماذا لاحظتُ عليك اليوم، مثلًا..

قاطعتُه بانزعاج:

ـ غسّاان، يكفي، أحيانًا تكون مزعجًا.

قلت له ذلك، ولحقت بشهيرة التي كانت في غاية المرح والانسجام بصحبة «منى» شقيقة شريف، و»سلمى» خطيبة محمود التي عقدت صداقة سريعة مع شهيرة، وبدأت تستفيدُ من خبرتها كطبيبة نساء وولادة، تتنحّى بها جانبًا بين فيْنة وأخرى لتستشيرها في أمور تخصّ النساء. أنا لم أفعلْ ذلك مع شهيرة!

رغمَ شعوري القديم بأنوثتي غيْر أني أتصرّف وأفكّر معظم الوقت مثْل الذكور، ربّما لأنّي مولودة في برْج ذكوري، قال لي أبي يومًا ونحن ملتفّون حوله، مفترشون أرضيّة البهو، في جلسةِ سمرٍ عائلية دافئة. وقد تفوّقت على أخواتي في حلّ الألغاز:

ـ أنت ذكية جدًّا يا حبيبتي.

قالت ميار بغيظ:

ـ وهل نحنُ غبيّات يا أبي؟!

ضحكَ أبي حتى أشرقَ وجهه وتلألأ، وضمّنا إلى صدره قائلًا:

ـ ليس كذلك يا حبيباتي، هي تتفوّق عليكنّ في طاقتها الذهنية، وهكذا هُم مواليد برج الدلو، لا يوجد شيء اسمُه غباء، أنت مثلًا يا ميار متفوّقة في إدارة المال، ونورهان متفوّقة في بناء العلاقات، وشهيرة تفوّقها حسّي، خيالي..

كنت دومًا أغبط نورهان على اتّساع شبكة علاقاتها، وأغبطُ شهيرة على سحْر أنوثتها الطاغية، وأتمنّى أن أغدو عمليّة ومحدّدة ودقيقة أكثرَ مثل ميار، وأحاول أنْ أكون مرنةً ومحتوية مثل أمّي، وعقلانية ورزينة مثلَ أبي، لكن لو أنّ هذا حدث بالفعل لغدوتُ النموذج الأمثل للجنس البشري، وهو شيء مستحيلُ الحدوث.

عندما أرى غسّان مولعًا بي، ويتغزّل في أنوثتي، ويُظهر لي كلّ هذا الحبّ، أحمدُ الله على أنه غيرُ منزعج من كوني ذكورية التفكير.

هو مولود في برج أنثوي، مرنٌ وناعم، وحلو الكلام، ولطيف جدًّا، هو مِن مواليد برج العقرب، رجل هذا البرج جذّاب، متقن لفنّ الغواية، هو نموذج الرجل الذي تعشقه كلّ أنثى. أنا وغسّان مختلفان في هذا الجانب، يبدو أنّ الشخصيات المتناقضة التكوين تنجذبُ لبعضها البعض!

ورقةٌ من مذكّرات غسّان..

لمْ آبَه- خلال علاقاتي السابقة- بما حدث لي في صغري. لم أشعر بغمّ وقلق تجاه معرفة إحداهن بقصّة غسق، فقط مع كاميليا صرتُ مهمومًا لما حدث، قلقًا.. أفكّر معظم الأوقات، كيف ستكون ردّة فعلها إنْ أخبرتها بأنّي عشت سنوات عدة من عمري كفتاة؟! هل ستتقبّل كاميليا ذلك، وتأخذ الأمرَ ببساطة؟! أحيانًا تبدو لي فتاة منطلقة، متحرّرة، مستقلّة، منفتحة التفكير، وأحيانًا تظهر بعكس ذلك تمامًا، حيّرتني معها.

ليلة أمس، أتممْنا برنامج الترفيه الذي أعددتُه من أجل شهيرة، عدنا لبيوتنا بنفسيّات مختلفة، أنا شخصيًّا شعرت بفارق كبير، لم أكنْ أعرف بأنّ الخروج والرحلات والتنزه برفقة حبيبة كرحلة إلى الفردوس!

سبق وأنْ زرتُ العديد من تلك الأماكن، الإحساسُ هذه المرّة مختلف جدًّا، كأني أرى تلك البقاع لأوّل مرة، كأنّ هواها أضحى نسيماً معطّرًا بأريج من نوع خاص، رأيت السماء صافية، متسعة، عالية، والفضاء

فسيحًا، الزرع بدا لي أشدّ خضرة، حتى البحرُ رأيته أكثر زرقةً وأخفّ هواء!

اكتشفت أزهارًا صغيرة ناعمة لم أكنْ أرها من قبل، رهافة حسّ كاميليا وحضورها الجميل وجاذبيتها جعلَ الرحلة مُبهجة لدرجة لا توصف، متعت قلبي، وناظري بالتنقل بين فتنة الدنيا وفتنة كوْنها الخاص! لم أدعْ لها مجالًا للراحة، بمجرد عودتي للبيت بدأتُ أدردش معها..

ـ مساؤك سعيدٌ حبيبتي.

ـ سعيد بحضورك.

ـ كيف تشعرين، هل اشتقتِ لي؟

ـ بهذه السّرعة؟ كنا معًا طوال ثلاثة أيام، افترقنا قبل ساعة.

ـ ما رأيك بأني أشتاقُ لك وأنت أمامي!

ـ أنت تبالغ، هذا هو طبعك.

ـ أهكذا ترينني؟! أنت تعرفينني منذ مدّة، لا أحبذ التصنّع.

ـ ههههه، لا داع للتصنّع يا عزيزي، إنك تعجبني كما أنت.

ـ حقًّا؟ إذًا.. هيّا اعترفي؛ فقد اشتقت لي.

ـ يعني..

ـ تدلّلي عليّ كما تشائين، ستصبحين بين يدي، إن تقدّم الوقت أو تأخر.

ـ غسّان، هذا الكلام عيب!

ـ ما العيب فيما قلته؟ أنت مَن ذهبت بتفكيرك للمنطقة الحمراء!

ـ لا والله، لا تلبسني ثوبي بالمقلوب، أنت مَن تكتب تلميحات حمراء، لا تنكر.

ـ لا أنكر، أنا أصلًا محبّ للّون الأحمر، ووشاحك المليء بالورود الحمراء اليوم ذهبَ بعقلي، وأشعل خيالي.

ـ ورود حمراء! ليست ورودًا، بل زهورًا صغيرة جدًّا، أنت تحاصرني بنظراتك أكثر ممّا ينبغي، غضّ من بصرك.

ـ إن لم أهتمّ بك، فبمَن أهتمّ إذًا؟ عمومًا البنات مِن حولي كُثر، إن أردت فسوف أصرف بعض اهتمامي إليهنّ.

ـ أقسمُ إن رأيتك تفعل شيئًا مِن هذا؛ فسوف أقتلع عينيك.

ـ وااااو، شرسة، إنّك تخيفنني!

ـ شراسة الفتاة ضروريّة أحيانًا. بعض الناس تخاف ولا تستحي! كما يقول المثل.

ـ طبعًا أنا لست منهم.

ـ ضعْ نفسك في المكان الذي يليق بك.

ـ كاميليا، ما رأيك بالمتحوّلين جنسيًّا؟!

ـ ماذا! لم تسألني عن هذا؟!

ـ يعني، موضوعٌ خطر لي، قرأتُ عنه قبل قليل، عالمٌ غريب!

ـ فعلًا، لكنه واقع، ثمّ إنّه توجد حالات اضطراريّة للتحوّل.

ـ مثل ماذا؟!

ـ مثل التشوّه الخلقي، أنا لست أدري لماذا يتقبّل الناس وجود تشوّه خلقي في الوجه، كالشفة الأرنبية، أو تشوّه في الساقين أو في اليدين، ولا يتقبّلون وجود تشوّه في الأعضاء التناسلية، مع أن التشوّه هناك أشدّ خطرًا وأقسى أثرًا على حياة الشخص!

ـ أوّل مرة أسمع إنسانًا يتكلّم عن هذا الموضوع بهذا العمق والتقبّل، أنت تدهشينني دومًا يا كاميليا، تبدين أكبرَ من سنّك، متميزة في طريقة تفكيرك وفهمك للأمور ونظرتك للحياة، شخص واحد فقط يشبهك في هذا.

ـ مَن يكون هذا الشخص؟

ـ إنه صديقي كمال، كأنّكما حبّة فول انقسمت نصفيْن!

ـ سبحان الله!

ـ لكنّ المؤسف أن وجهة نظرك هذه شبهُ منعدمة بين الناس تجاه المتحوّلين جنسيًّا.

ـ هذا بسبب حساسية الأمر، ولأنّه يتعلّق بالنسل والنسب، وأيضًا يوجد سبب آخر.

ـ ما هو؟

ـ ظهور فئة من الشباب الغير قادر على تحديد هويته، مع أنّه لا يشكو من أي خلل عضوي، تخيّل، قد يكون الشاب أو الفتاة طبيعيّيْن من الناحية الفسيولوجية، وكذا هرموناتهم طبيعية، بمعنى هو جينيًّا ذكر، وهي جينيًّا أنثى، ومع ذلك يقول «شاب»: أحسّ بأني بنتٌ، وأميل جنسيًّا للذكور! «وتقول بنت» أحسّ بأني ذكرٌ، وأميل جنسيًّا للإناث!

ـ وهل يوجد شيء من هذا القبيل، هذا شذوذ؟!

ـ ثمّة أفراد عاجزون عن تحديد الهوية.. النوع.

ـ أليسوا مِن الشواذ؟

ـ هو شذوذ نفسي، ليس شرطًا أن يمارسوا الشذوذ الحسي؛ غير أن بعضهم يشعر به، هؤلاء حلّ مشكلتهم لدى العيادات النفسية، وليست بتغْيير النوع.

ـ أصبتِ. هل تعرفين ما هو حكمُ ديننا في تغيير النوع؟!

ـ أنا تتبّعت هذا الموضوع؛ فوجدت أنه لا يجوزُ التغيير من نوع إلى نوع آخر إلّا في حالة إذا كان الشخص يحمل خصائصَ عضوية مناقضة لنوعِه الظاهري، مثلًا فتاة لديها أعضاء ذكريّة ظاهرة، ولديْها أعضاء أنثوية كالمِهبل والرّحم كامنة، أو شابّ يظنون بأنّه بنتٌ لأنّ لديه كُمُونًا في أعضائه التناسليّة، في هذه الحالات يتدخّل الطب جراحيًّا وهرمونيًّا لإصلاح التشوّه، أمّا أن يكون الواحد أو الواحدة مختلًّا نفسيًّا، وينساق وراء تقلّبات غير منطقية في مزاجه، ويرغب في تغيير نوعه طاعةً لوسوسة الشيطان؛ بل ويسعى بالفعل للتغْيير دون وجود مسوّغ ملموس، وعذْر جليّ؛ فهذا هو التغْيير لخلق الله، المذموم عقلًا وشرعًا.

ـ يبدو أنّك تتبعت الموضوع بعناية ودقة.

ـ ورأيت العجبَ العُجاب عبر الإنترنت، أشياء مقززة!

ـ مثل ماذا؟

ـ رأيت رجالًا تحوّلوا لنساء ظاهريًّا، وهُم ذكور في أصل الخلقة، ومازال بعضهم محتفظًا بأعضائه الذكرية، بل أنّ أحدهم صار يعمل راقصة!

ـ يععع، فظيع، هذا شخص مُقرف.

ـ جدًّا، مثل هذه الأفعال الشاذّة تجعل مجتمعاتنا العربية ترفض التطرّق لموضوع تصحيح النّوع.. حتى إن كان صاحبُ الحالة مصابًا بتشوّه خلقي، وقد أذن له الدّين والقانون بتصحيح حالته، المشكلة أن هذه النظرة المنغلقة من قِبَل المجتمع تجاه هذه الفئة، تدفع أشخاصًا كُثر لديهم تشوّه لاستعمال التكتّم الشديد حول حالتهم، ولا يحاولون أن يفتحوا هذا الموضوع حتى مع أقرب النّاس إليهم كي لا يتّهمونهم بالشذوذ، والبعض يصلُ به الحال إلى الانتحار ليتخلّص من معاناته!

ـ كأني أستمع إلى شخصٍ خبير في هذا الموضوع، تبدو لي ثقافتك واسعة ومتنوعة.

ـ أنا قارئة نَهِمة، حبّ القراءة شيء تربّينا عليه في أسرتنا.

ـ تربيةٌ راقية، أنا متحمّس جدًّا للتعرّف على الأسرة التي خرج منها شخصياتٌ مثلك ومثل الدكتورة شهيرة.

ـ لديّ أيضًا شقيقتان أكبر، نورهان تعملُ في قنصلية بلادنا في السويد، وميار تدير أحدَ البنوك في ماليزيا، أبي يعمل الآنَ مُترجمًا في مؤسسة للنشر في برلين، أمّا أمي فهي ربّة منزل من الطراز الممتاز.

ـ ما شاء الله، أسرةٌ ترفع الرأس، ألَا يوجد لديك أخوة ذكور؟!

ـ كان لدينا واحد.

ـ ماذا حدث له، هل مات؟

ـ يمكنك قول ذلك.

ـ يعني مات؟

ـ مات.

ـ موتٌ طبيعي أم بحادث؟

ـ طبيعي جدًّا، دعنا من هذه الذكرى.

ـ مؤلمة؟

ـ جدًّا.

ـ أكنت متعلّقة به، هل تألّمت لفقده؟!

ـ في الحقيقة لا، لم أتألّم لفقده؛ لكنّ غيابه ترك أثرًا في نفس والدتي، كانت تتمنّى أن يكون لديها ولدٌ ذكر.

ـ لماذا النساء يفضّلن الأبناء الذكور على الإناث؟!

ـ قرأتُ في بعض كتب علم النفس بأنّ وجود رجلٍ في حياة المرأة يشعرها بالأمان.

ـ أليس وجود والدك كافيًا؟

ـ القضية معقّدة قليلًا، يقال بأنّ المرأة مفطورة على الاحتياج لوجود رجل في حياتها، تستمد من وجوده بقربها الشعورَ بالأمان؛ لأنّها الكيان الأضعف في منظومة البشر، عندما تكون طفلة تجدُ في الأبِ ما يسدّ هذه الحاجة، وعندما تكبر تفكر بأن أباها قد يموت ويتركها في أيّة لحظة؛ لذا فهي تحرصُ على الزواج، ثمّ تفكر بأن الزوج قد يتخلّى عنها لأي سبب كان أو قد يموت؛ لذلك تصرّ على إنجاب ولدٍ ذكر، وهكذا تضمنُ بقاء رجل إلى جوارها حتى تموت!

ـ وهل تؤمنين بهذه النظرية؟! أراها تصوّر المرأة كائنًا ضعيفًا، مهزوزًا، أنا شخصيًّا لست مقتنعًا بذلك، المرأة أقوى ممّا يظنّه واضعو هذه النّظرية.

ـ وأنا أيضًا لست مقتنعة بهذه النظرية.

ـ إذًا، لماذا تحفظينها عن ظهر قلب وتردّدينها؟!

ـ شيء قرأتُ عنه، وأناقشه معك.

ـ إنْ صحّ هذا الوصف في حال المرأة قديمًا؛ فالوضع في زماننا قد تغيّر كثيرًا، المرأة في عصرنا أضحتْ قويةً ومستقلة، تعتمدُ على ذاتها!

ـ والرجل أيضًا تغيّر، لم يعدْ ذلك المستعدّ لتحمّل مسئولية الحياة منفردًا.

ـ لأنّ الحياة تعقدت، ومتطلبات الأسرة تضاعفت وتشعبت، الرجل ليس سوبرمان!

في الماضي، كان المطلوب منه الخروجُ عند شروق الشمس ليصطاد أرنبًا أو غزالًا، ويقطع حزمةَ حطب، ثمّ يرجع للبيت شامخَ الجبين، منتشيًا بإنجازه، ويجلس مرتاحًا طوال النهار، وفي الليل يشعل نارًا، ويحدّ رمحه تحسبًا لظهور وحشٍ قد يهاجم بيته في أيّة لحظة.

ـ والمرأة كانت تخرج صباحًا لجلب الماء، ثمّ تعود لتخيطَ الملابس وترعى الصغار حتى يعود فارسُها بالصيد فتقوم بطهْيه وتقديمه للأسرة، وعند المساء تضع زهورًا على شعرها المنكوش وتجلس بجواره، يتبادلان الحبّ والغرام!

ـ حياة بسيطة، لا فواتير، لا إيجار، لا أقساط، لا كهرباء، لا إنترنت، لا دردشة..

ـ لا تسوّق، لا موضة، لا كوافير، لا برامج تخسيس، لا تطبيقات طعام، وتوصيل طلبات للبيت، لا تعليم الأولاد في مدارس لغات، ههههههه... والقائمة تطول!

ـ إذًا، لا بدّ أن تشمّر المرأة عن ساعديها وتحمّل مع الرجل جزءًا من المسئولية، وإلّا سنشعل نحن الرجال ثورة، ونطالب بالعودة لعصر الكهوف البسيط.

ـ واااوو.. فظيع.

ـبل سهل جدًّا، أصبح لدينا أسلحة تقتل الوحوش بدلًا من الحراب، ولدينا طرق أيسر للصيد.

ـ لكنّ البشرية تكاثرت بطريقة مَهولة يا ذكي، أين ستجد كهوفًا وصيدًا يكفي لكلّ هؤلاء البشر؟!

ـ صدقت، الحديثُ معك متعة لا توصف، سافرت بي إلى عصر الكهوف، تخيّلتك في ملابس شيتا زوجة طرزان..

ـ تخيّلتني هكذا بالفعل! واااوو، خباثة!

ـ ههههه، المشكلة أنك تفهمينني؛ لذا لا يمكنني أن أتخابث عليك مطلقًا.

لم تعلّق كاميليا على هذه العبارة، واختفتْ من الدردشة فجأة.

كلّ يوم أشعر بأني أحبّها أكثر من اليوم السابق، لم يحدث لي هذا من قبل، ففي المرات السابقة كنت أستهلّ العلاقة باشتعال عاطفي، وحماسٍ شديد، ثمّ يبدأ كلّ ذلك بالتلاشي رويدًا، رويدًا!

مع كاميليا الاشتعال هادئ وبطيء، لكنّه متوهّج ومُتصاعد باطّراد..

شهيرة تستعدّ للسّفر، لكن..

استمتعتْ شهيرة بالخروج والتنزّه مع المجموعة، كانت منشرحة الصدر، تضحك طوال الوقت، بدت خفيفة الروح والجسد. كلّما مرّ عام تغدو أختي شهيرة أكثر جمالًا، أحسّ بأنها ستبقى تغترف من بحر الجَمال حتى آخر عمرها، في داخلها تسكنُ طفلة لا تكبر، أجزم بأن هذه الفتاة لن تشيخ أبدًا!

اتصلتْ شهيرة بوالديّ وأخبرتهما بنصفِ الحقيقة، ادّعت بأنها اشتاقت لرؤيتي؛ فأتت لتراني. في الليلة الأخيرة، كانت شهيرة تعدّ حقيبة سفرها وهي صامتة واجمة، سألتها:

ـ عندما تتمّين سنوات التخصّص، هل ستعودين إلى هنا وتفتحين عيادة؟!

ـ هذا هو مشروع عمري، لكنْ ليس بهذه السرعة، سأبقى هناك ريثما أستفيد من خبرات أطباء كبار في برلين، سأتدرّب تحت إشرافهم.

ـ حسنًا، متى ستعودين إلى الوطن؟

ـ لست أدري.

ـ كم كنت سعيدة بوجودك معي، أمضيت معك وقتًا جميلًا. مرت الأيام سريعًا..

ـ وأنا كذلك، سعدت ببقائنا معًا هذه المدّة، شكرًا على كلّ شيء فعلتِه من أجلي، أنت أطيب وأرقّ وأحنّ وأروع أخت، كم أحبّك يا كاميليا!

عانقتني وقبّلتني بين عينيّ كما هي عادتها، قلتُ لها:

ـ للأسف، سيصبح البيت خاويًا كئيبًا بعد أن تغادرينا.

ـ مكان تعيشين فيه لا تسكنُه الكآبة، روحك الحلوة ستلوّنه بالبهجة.

ـ كلامك يقطُر عسلًا، هل سيبقى والديّ معك حتى تتمّي التدريب؟

ـ سأقول لك الحقيقة، هُما يتحجّجان بي، أنا أمضي النهار كلّه خارج البيت، وأحيانًا أمكث في المستشفي التعليمي لعدّة أيام متتالية، في الواقع والديّ أحبّا الحياة هناك، هدوءٌ.. ونظام.. ورعاية صحيّة، أصبح لديهما أصدقاء جُدد، ونشاطات محبّبة لنفسيهما، أمي تخرج كلّ

صباح للنادي الرياضي تلعب التنسَ مع صديقاتها، وأبي ينهمكُ في العمل بحبّ ونشاط. في المساء، يجتمعون في بيتِ أحدهم، يشاهدون فيلماً معًا، يسافرون للرّيف في عطلة نهاية الأسبوعِ، أبي مستمتع للغاية بعملِه في الترجمة، وأمّي مُستمتعة مع صديقاتها الجُدد.

في الواقع، لدينا أبَوان رائعان، يتكيّفان بسهولة، أنا شخصيًّا أحسدُهما على نفسيّتهما المستقرّة.

ـ قولي ما شاء الله.

ـ ما شاء الله، يا ربّ اسْعدهما.

ـ آمين، حديثك هذا يجعلني مُطمئنة عليهما، لقد قاما بواجبهما معنا على أكمل وجْه، من حقّهما أن يستمتعا بحياتهما.

ـ وماذا عنك يا كاميليا؟

ـ ماذا عني؟ لا شيء، سأعاود البحثَ عن عمل.

ـ وحكايتك مع غسّان؟!

ـ ما رأيك فيه، كيف وجدته؟

ـ يبدو شابًّا رائعًا، منطلقًا، ومرحًا، وذكيًّا.

ـ ومتفوّق في دراسته أيضًا.

ـ أرى أنه معجبٌ بك، هو عروس لا يفوّت، أرجو أن يكون من نصيبك يا حبيبتي.

ـ يا ربّ، يا ربّ.. يا ربّ.

ـ أتحبّينه لهذه الدرجة؟

ـ فوق ما تتصوّرين.

ـ إذًا، صارحيه بالحقيقة، لا تهدري الوقت.

في تلك اللحظة رنّ جوّالي:

ـ آلو..

ـ مرحبًا كاميليا.

ـ مَن؟

ـأنا شريف.

ـ مرحبًا بك، مِن أين حصلت على رقمي؟

ـ مِن غسّان، هل أزعجك اتّصالي؟

ـ لا.. لا، مطلقًا، أنت شخص محترم وصديق عزيز، هذه المرّة الأولى التي تكلمني فيها هاتفيًّا، خيرًا إن شاء الله؟!

ـ في الواقع لا أدري ماذا أقول، الموضوع مُحرج بعض الشيء، طلبت من شقيقتي «منى» أن تحدّثك في الأمر؛ لكنّها كما رأيت خجولة.

ـ ما الأمر؟ لقد أثرتَ فضولي!

ـ كلّ خير.

ـ أكيد خير مادام أنه مِن عندك، أنا بانتظار أن توضّح أكثر.

ـ الموضوع بخصوص الدكتورة شهيرة.

ـ مَن؟ شهيرة أختي!

مفاجأة مدهشة، شريف يريدُ أن يتقدّم لخطبة شهيرة، لاحظته أثناء التنزّه، قلّما كان ينزل عينيه عنها، لكنْ لم يدرْ بخلدي أن يتقدّم لخطبتها، وبهذه السرعة!

شريف هو أفضل مَن يصلح أن يكون زوجًا لشهيرة؛ فهو مثال للشابّ المتزن المهذب المجتهد الطموح، يعملُ في هدوء، يسير نحو هدفه بثبات، ويصل قبل الجميع، إنّه نموذج للشخصية الناجحة. الغريب هو أني عندما نقلت الخبر لشهيرة؛ تلقّته ببرود.

ظننتُ بأنّها ستطير سرورًا.. سيغمى عليها من شدّة الفرح.. ستصرخ وترقص وتزغرد، لكنْ لم يحدث شيء من هذا القبيل!

خيّبت أملي؛ فقلت لها مستغربة:

ـ لم أتوقّع ردّة فعلك البادرة هذه، ما بك يا شهيرة؟ ألا يعجبك شريف؟!

ـ لا، لم أقل هذا. بالعكس أنا سعيدة بعَرْضه، كنت أتوقّع أن يفعل، فهمتُ ذلك من خلال نظراته، لكن لم أتوقّع أن يفتح الموضوع بهذه السرعة!

ـ أيّ السرعة! قبل أسبوع كنت تولْولين: سيضيع شبابي، لن أبقى ساكنة حتى يفوتني قطار الزواج، وكلّ هذا الجنون، واليوم تعتبرينَه متسرعًا في طلبه؟! حقًّا، أنتنّ الإناث عالمٌ غريب!

ـ ههههه، وأنت ماذا؟!

ـ هيّا يا شهيرة، لقد وئدت الفرحةَ في قلبي بردّة فعلك الباردة هذه!

ـ هل ردّة فعلي مُحْبطة إلى هذه الدرجة؟ أراك تبالغين، كلّ ما في الأمر هو أنني أريد أن أتصرّف بتعقّل أكثر هذه المرّة، هل هذا خطأ؟!

ـ لا، بالعكس، التريّث في هكذا مواضيع شيء جيد؛ لكن شريف غير موجود الآن، أطلقي لإحساسك العِنان، افرحي، عبّري عن شعورك، لا تقفي متخشّبة هكذا، كنت تتصرّفين كالأطفال مع قصّة ساري المجوجة، وعندما جاءت الفرحة الحقيقيّة سكنت، وحلّ عليك التعقّل، وطغت عليك الحكمة!

ـ ملاحظتك في محلّها؛ لكنني لا أتصنّع، لا أدري كيف أفسّر لك ما أحسّه، لقد شعرت بسكينة تملأ نفسي بمجرد أن سمعت منك الخبر.. في الواقع، أنا سعيدة به للغاية؛ لكنها سعادة هادئة، ربّما هكذا تكون السعادة الحقيقيّة! هل فهمتني يا كاميليا، هل وصلكِ ما أحسّه؟!

ـ ربّما فهمتك بعضَ الشيء، المهمّ طمئنيني، كيف ترينَ شريف؟

ـ شريف شابٌّ رائع، هو فوق ما كنتُ أتمنى، أتوقّع بأنه سيكون زوجًا متميزًا؛ كأبينا تمامًا.

بعد ساعة، كانت شهيرة تعيد ملابسَها إلى الخزانة، ستؤجّل سفرها.

أخلدت للنوم باكرًا؛ فغدًا مساءً سيجيء شريف برفقة شقيقته «منى» لزيارتنا، وسيعرض على شهيرة الزواج.

فكّرت لساعات بردّةِ فعْل شهيرة، لقد فاجأتني، تصرّفت بهدوء وحكمة، قالت لي وهي تستعدّ للنّوم:

ـ سأطلب منه تأجيلَ الموضوع حتى موعد الإجازة السنويّة، سنعود أنا ووالديّ، يجبُ أن يراه أبي ويسأل عنه، ويبارك زواجنا.

سعدت كثيرًا بكلامها، هذه هي الخطوات الصحيحة للزواج السعيد، الذي يعمّر بيتًا، ويدوم الدهر كلّه، يبدو أنها ستكون زيجةً

موفقة ومباركة، بدأت بدايةً جيدة، ستسير حسب الأصول، سوف تتسلّل الفرحة إلى قلب شهيرة شيئًا فشيئًا، وسوف تكبر وتكبر كلّ يوم، ستحبّ شريف بالتدريج، لن يكتظّ قلبها بعاطفة مستعرة تعمي بصيرتها عن رؤية العيوب، وتجعلها تقدّم تنازلات لا تليق، سوف تتزوّج بكرامة وتقدير كما يليق بها، لا يجب أن أقلق بشأنها، يبدو أن هذه أماراتٌ مطمئنة جدًّا.

ورقةٌ من مذكّرات غسّان..

قبل ساعة، اتّصل بي صديقي شريف عبر الهاتف؛ ليخبرني بأنه قرّر أن يتقدّم لخطبة الدكتورة شهيرة، متى حدث هذا التّجاذب، كيف لم ألحظْه؟! كنت مأسورًا بكاميليا، أتتبّعها بناظري معظم الوقت؛ فلم أتنبّه لهذه التطوّرات الخطيرة.

شريف صديقي الحميم، شخصيةٌ نادرة الحدوث، صادقٌ ومهذّب، حازمٌ وقاطع في قراراته، يسيّر أمورَ حياته بهدوء ونظام ودقة. لقد فاز بعروسٍ متميّزة مثله، وفوق ذلك هي غاية في التهذيب والرّقة والجَمال.

غادر شريف سكنَ الجامعة منذ أيام، صار له شقّة خاصة، كان طوال سنوات الدراسة يدرس ويعمل في ذات الوقت، والدُه شخصية عمليّة جادّة، تخصّصه مختبرات، يمتلك مختبرًا ذائعَ الصّيت في وسط المدينة، ويديرُه بنفسه. يخطّط شريف بأن يفتحَ صيدلية ملاصقةً لمختبر والده بعد التّخرج، سوف يستقطع مساحةً من مبنى المختبر الواسع، ويجعل

لها بابًا للشارع الرئيسي. كلّ أمور شريف جيّدة، لا ينقصه سوى أن يتزوّج؛ لكن مَن كان يظنّ بأن نصفه الثاني سوف يأتي إليه مِن برلين؟! ترى هل الزّواج نصيبٌ محض كما كانت أمّي تقول لشقيقتيّ «عالية ومروة»؟!

أحبّت عالية ابن خالتي مراد لسنوات عدّة، كلّ الأسرة كانت تعلم بقصّة حبّهما وتبارك مشروعَ زواجهما، سافر مراد للدّارسة خارج البلاد، انقطع عن التواصل مع عالية، لم يكن يأتي في الإجازات كما كان يفعل بقية زملائه في البعثة، بعد سنوات انتظار قاست فيها عالية وجع الفراق وقلقَ الهجر، عاد مراد برفقة زوجة وولديْن.

وقعت القطيعةُ بين أمي وخالتي، وسقطت عالية فريسةً للمرض، علّل مراد تخلّيه عن عهده مع عالية، وزواجه بأجنبية؛ بحجة رغبتِه في الحصول على جنسية تلك البلاد، أنجبتْ له زوجتُه ولدًا ثمّ ثان، وأصبح من الصعب عليه أن يتخلّى عنهما.

أرادَ مراد أن يصلح ما أفسده بين أمّه وأمّي، وطلب أن تكون عالية زوجةً ثانية له، برغم حبّ عالية الكبير له؛ إلّا أن غضبتها لكرامتها جعلتها ترفضُ عرضَه.

حينها علّقت أمي بقولها:

ـ سبحانَ الله، الزواج والولادة والموت ثلاثية القدر المحتوم، مهما فعلنا فلنْ يكون زواجًا في الأرض قبل أن يكتبَ في السماء.

اعترضت شقيقتي مروة قائلة:

ـ لا يا أمّي، لا أظنّ أن هذا الاعتقاد حول الزواج صحيحًا، أنا مثلًا وضعت مواصفات معينة لمن سأقبله زوجًا لي، لن أتخلّى عنها قيد شعرة، سوف أرفض كلّ مَن لا تنطبق عليه هذه المواصفات. وهكذا سوف أحصل على مَن أريده بكامل إرادتي.

ـ استغفري الله يا بنت، ما هذا الكلام؟!

ـ وأين الخطأ فيما قلته يا أمّي؟! أنا أعمل بالأسباب ليس إلّا..

ـ لن تنالي سوى نصيبك.. وسترَيْن.

ـ الزواج ليس قطارًا واحدًا إذا فات فلنْ يعود كما يقال، هو عدّة قطارات تمرّ على محطة عمر الفتاة، وهي مَن يختار أيّ قطار تركب، بعضهنّ يدفعها القلق والخوف من العنوسة لركوب أول أو ثاني قطار حتى إنْ لم يكن ملائمًا لها، ولو أنها انتظرت قليلًا فسوف يأتي القطار الذي يرضيها، الذي سيلبّي حاجاتها ويحقّق لها السعادة، بالنسبة لأختي عالية.. الحبّ الأعمى هو مَن أبعدها عن الاختيار الحرّ، وربما فوّت

عليها قطارات عدّة، حتما كان أحدها ملائما، أنا شخصيًّا لن أفتح قلبي قبل عقلي مطلقًا.

كان هذا منطقَ مروة، اليوم مروة متزوّجة بالرجل الذي اختارته بمواصفات دقيقة، أراها تعيش معه حياة جافّة.. جامدة، هي تظهر لنا بأنّها لا تهتم لذلك، المهمّ أن لديه مالًا ووظيفة مرموقة، ويعاملها باحترام، يقوم بجميع واجباته على أتمّ وجه.

أنجبت منه العديدَ من الأبناء، تقول بأنّها سعيدة لأنّها تعيش الحياة التي اختارتها، لا أدري هل سيأتي يوم تندمُ فيه مروة لأنّها لم تسمح لقلبها بأنْ يتحرّك قبل عقلها، ولأنّها مضتْ بحياتها على هذا النّحو؟!

أمّا عالية، فما زالت تنتظر أنْ تحبّ رجلًا كما أحبّت مراد، أخشى أن تشيخ قبل حدوث ذلك. بالنسبة لي.. كاميليا هي نصيبي الذي لنْ أفرّط فيه، هي حبّ عمري الذي لن أسمح بفقده مهما حدث..

شريف وشهيرة..

في المساء التالي، كانت شهيرة تتمايل برشاقة في أجمل حلّة، وتزهو بأبهى طلّة، تذرع البهو لمرّات، متّجهة نحو ردْهة البيت الأمامية؛ لتتأمّل وجهها في المرآة المعلّقة على الجدار هناك، تنتظرُ مجيء شريف و"منى" بسرور.

والدة شريف متوفّاة منذ خمس سنوات، أمّا والده فسوف يأتي بصحبة شريف عندما يعود والديّ من برلين؛ لتتّفق الأسرتان على جميع التفاصيل.

استيقظت شهيرة في صباح هذا اليوم ووجهُها يتلألأ ضياء. لم أرَ سيما الطمأنينة على وجهها منذ عدة سنوات، ظهر أثرُ رغبة شريف بخطبتها على نفسيّتها بسرعة، لم يتغلغلْ حبّه في قلبها بعد، ولم تعرفه بما فيه الكفاية؛ مع ذلك بدتْ في قمّة السعادة هذا اليوم.

ترى كيف سيكون حالي في اليوم الذي سيأتي فيه غسّان لخطبتي؟! أحيانًا أرى ذلك، وكأنه قد حدث بالفعل، كأنّي وغسّان قد صرنا

زوجين، أحسّ بقوة بأنه سيكون لي، وأنْ لا شيء يمكن أن يفرّق بيننا، ومرات عدّة أقع أسيرة الشكوك والخوف واليأس، وأرى بأنّ زواجنا حلمٌ بعيد المنال.

لم أعدْ أطيق ذلك، يجب أن يتوقف تأرجحي المؤرّق بين اليأس والرجاء، يجب أن أضع قدميّ على أرض صلبة، حياتي كلّها تدور في فلَك حبي لغسّان، تركت خلفي في برلين فرصًا عديدة للفوز بحياةٍ عملية ناجحة، دخلًا جيدًا، مستوى عيشٍ مرتفع، حتى فرصًا للزّواج!

في برلين، سأجد كثيرين يستوعبون ما حدث لي بسهولة، فبعد خضوعي لعملية التحوّل من ذكر لأنثى، التفّ حولي جمعٌ من الأهل والأصدقاء من العربِ المقيمين هناك، الحياةُ في العالم الأول تصبغ تفكير الناس بصبغة واحدة، لمست منهم قبولًا، الجميع تفهّم وضعي، لكنّني هنا أعيش في حالة كُمُون، متكتّمة جدًّا على حالتي، اضطرّ والدي لبيع مسكننا القديم وشراء شقة جديدة؛ لأعيش فيها بعيدًا عن معارفنا القدامى.. حتى صديقتي سميرة لا تعرف شيئًا عمّا مضى من حياتي.

أنا خائفة لدرجة التلاشي من رفض غسّان لي، وإن هو قبِلَ بي؛ فماذا سيكون موقف أسرته منّي؟

عندما رأيت وجهَ شهيرة وهي تستقبل شريف وشقيقته «منى» بفرح طاغٍ فكّرت: وماذا إن كرهني غسّان، أو رفضني أهله؟ سأحظى حتماً بفرصة أخرى، ربّما سأفرح بحبّ جديد كما هو حال شهيرة الآن.

الكلام سهلٌ، أنا لست كشهيرة؛ هي تمتلك شخصيّة مرنة، تغير أهدافها وحياتها ومشاعرها بسهولة، مع أنها تبدو لأوّل وهلة فتاة عاطفية جدًّا، لكنها في حقيقة الأمر عقلانية.. عاطفتها تسير تبعًا للمنطق والتفكير الخاص بها. لكنّ أنا مختلفة، لا يمكنني فعلَ هذا بسهولة.. أشعر بأن حياتي ستفسد للأبد إنْ فقدت غسّان.

بعد أن غادرَ شريف بصحبة «منى» عانقتني شهيرة بحرارة، وقالت لي:

ـ حمدًا لله، شريف لطيفٌ وحنون ومحتوي، أشعر بأنه سوف يمنحني الحبّ والاهتمام والعناية الكاملة، إنه رجلٌ حقًّا.

ـ كيف تجزمين بهذا قبل أن تجرّبي؟!

ـ راقبتُه مليًّا طوال تلك النزهات التي كنا فيها معًا، كان مهتمًّا بشقيقته «منى»، يحوم حولها كالملاك الحارس، يترفّق بها، يلبّي حاجاتها بمجرد الإيماءة، يفهم ماذا تريد قبل أن تنطق، هذا هو الفارس الذي حلمتُ به

طويلًا، أنا أنثى متطلبة، أريد أن يغدق عليّ زوجي بالاهتمام وبالرعاية الأبويّة، وشريف قادرٌ على منحي ذلك..

ـ طفلة أنت يا حبيبتي.

ـ وسأبقى طفلة إلى الأبد، هههههه...

قالت شهيرة تلك العبارة ومضت نحو حجرتِها، سمعتها تتكلّم مع شريف عبر الهاتف طوال ساعات الليل، عند طلوع الفجرِ كان شريف يقف بسيارته على مدخل العمارة، جاء ليوصل شهيرة إلى المطار بنفسه، رافقتهما إلى المطار، في الطريق بدا شريف شغفًا بشهيرة، قال لها:

ـ متى سترجعين بصحبة والديك لإتمام مراسيم زواجنا؟

ـ بعد ثلاثة أشهر.

ـ لا. هذا كثير، أنا شخصيًّا عندي ترتيباتي الخاصة.

ردّت شهيرة:

ـ أيّ ترتيبات؟ أنا جادّة في تحديد هذا الموعد، لدي اختبارات، ووالدي مرتبط بوظيفة، و..

قاطعها شريف بنبرة واثقةٍ هادئة:

ـ اطمئني، لن أفسدَ مخططاتك.

يمتلك شريف في شخصيّته خصائص جميلة، رزين، واثق، يجعلك تشعر معه بالأمان، وبأنك تتكئ على مَن سيساندك في الحياة.

قبل أن نصل للمطار علتْ رنّة جوالي، نظرت؛ فإذا هي سميرة، صحتُ كمَن تذكر شيئًا هامًّا:

ـ إنها سميرة! لم أزرها منذُ مجيء شهيرة. آلو مرحبًا، كيف حالك حبيبتي؟

جاءني صوتُها خفيضًا متحشرجًا:

ـ الحمدُ لله، صرتُ أفضل، كاميليا.. تعالي فورًا، أنت وغسّان.

ـ وغسّان أيضًا! لماذا؟

ـ عندما تأتين به ستعرفين.

طلبت منّي سميرة ذلك وأنهتِ المكالمة.

ورقةٌ من مذكّرات غسّان..

اتّصلت بي كاميليا عند الضحى، أخبرتني بسفر شهيرة، وبأنّ سميرة تريدنا معًا، ذهبتُ من فوْري لتلبية طلبها، أشعر بالمسئولية تجاه سميرة، تبعًا لشعوري بالمسئولية تجاه كاميليا، إنها المرّة الأولى التي اعتني فيها بآخرين، كنت طفلًا مدلّلًا، أعيش بين أفراد أسرتي الكبيرة متحرّرًا من أيّة مسئولية، لم يكلفني والديّ بأيّة مهام في إطار الأسرة، كان عددُ أخوتي كبيرًا، الجميعُ يقدّم لي العناية، أمّي امرأة قوية.. نشيطة، تقوم بجميع واجبات المنزل بنفسها. عالية أختٌ كبرى محبّة وحنونة، تفيض عاطفة، كانت تفرغ شحنة عواطفها عليّ، تحيطني بالحبّ والاهتمام، في الواقع لم يكن لدي أمّ واحدة.

عندما ذهبت للعيش في بيت خالتي منيرة، غدتْ هي الأخْرى أمًّا ثالثة لي، أغدقتْ عليّ هي وزوجُها بالحبّ والرعاية والدّلال، أنا الآن مُندهش من نفسي، الحبّ يغيّر الرجل، يعبده، يلينه لحبيبته، صرتُ أطير فرحًا كلما طلبت منّي كاميليا شيئًا.

ذهبتُ لأصطحبها لرؤية سميرة، بدتْ كاميليا مغتمّة، قالت لي:

ـ لم أزرْها منذ جاءت شهيرة.

ـ لا تلومي نفسك، كنت منشغلة مع شقيقتك.

ـ لكنّي قصرت، كان بإمكاني استقطاع وقت والذهاب لزيارتها، شهيرة طيبة وسوف تتفهّم، لكنّي في الحقيقة هربت.

ـ هربت مِن ماذا؟!

ـ مِن رؤيتها وهي تحترق كالشمعة، تتضاءل وتتلاشى ببطء.

ـ وهل بيدِك شيء؟ لست مسئولة عمّا يحدث لها، هذا قدرُها.

ـ بل أنا مسئولة.

ـ كيف ذلك؟

ـ كنتُ معها في تلك الليلة التي رأت فيها جثة هالة.

توقّفت بالسيارة عند سماعي ذلك الاعتراف الخطير منها، ثمّ:

ـ لماذا لم تخبريني منذ البداية، كيف تخفين عني مثل هذا الأمر الخطير، أين حدث ذلك؟

ـ غسّان، اهدأ. لا تتعامل معي بهذه الطريقة.

ـ حسنًا، سوف أهدأ.. هيّا أجيبيني.

ـ لم أكنْ أعلم بأنها ستجدُ جثة هالة هناك.

ـ هناك! أين؟

ـ في المشرحة.

ـ أيّة مشرحة؟!

ردّت عليّ بنبرة جادّة:

ـ غسّان أرجوك، بعد قليل سنكون عند سميرة، وهي فقط مَن تملك حقّ رواية تفاصيل الحادثة، وليس أنا؛ لأنه سرّ خطير يخصّها هي وهالة.

ذهبنا للقاء سميرة، وكلّي شغف لسماع بقية القصة، وجدناها قد غادرت المستشفى؛ فاتجهنا من فورنا إلى بيتها، استقبلتنا أمّها بترحاب، رأيناها كأنما كبرت عقدًا من الزمن خلال أيام!

كانت الخالة حَسنات قد أنهتْ جميع ترتيبات السفر، لكنّ سميرة رفضت الفكرة بشدّة، قالت الأمّ لكاميليا بنبرةِ توسّل:

ـ أرجوك يا بنتي، أقنعيها بضرورة سفرها للعلاج.

ـ لا تقلقي يا خالة، سوف أفعل حتماً، أخبريها بأني وغسّان جئنا لرؤيتها.

ـ هي نائمة الآن، عندما حدثتها عن موضوع السفر اهتاجتْ وثارت ثائرتها، انتكست فجأة، استدعيت الطبيب، أعطاها مهدئًا فنامت.

بدتْ أمّ سميرة مذعورةً من تردّي حالة ابنتها الوحيدة، عندما بدأت بالبكاء شعرت برغبة ملحّة لاحتضانها.. حبي لكاميليا يغمرُ كلّ وجداني، صرتُ أفيض عطفًا وحنوًّا على كلّ الناس.

سميرة تجرّب العقارَ الجديد..

قرّرتُ المكوث في بيت سميرة، غادر غسّان وبقيت إلى جوارها حتى أفاقت، عندما رأتني جالسة قبالتها بدأت بالبكاء، ضممْتها إلى صدري، بكيت معها طويلًا.. سكنت بعد ساعة، طفقت تقصّ عليّ تفاصيل البحث العلمي الذي عملت عليه هي وهالة على مدى سنوات، قالت لي:

ـ يجب أن نخلّد ذكرى هالة، عليّ أن أتمّ بحثها وأخرج الدواء الذي اجتهدت لصنعه للناس، كانت هالة هي صاحبة فكرة البحث، قطعنا شوطًا كبيرًا فيه، لم يتبقّ سوى خطوة واحدة.

ـ ما هي؟

ـ تجربته على البشر، فقد جرّبته هالة على القرود وكانت النتائج مبشّرة جدًّا. واليوم لا بدّ أن نجرّبه على متطوّع من البشر.

ـ وأين سنجدُ متطوّعًا؟

ـ لا داع للبحث، المتطوّع يجلس أمامك الآن.

ـ أنت يا سميرة، ستجرّبينه بنفسك؟!

ـ ولم لا؟

ـ الآن فهمتك، لأجل ذلك امتنعت عن تناول الأدوية التي وصفها لك الطبيب، تريدين تجربة العقار الجديد.

ـ أنا في حالةِ اكتئاب متقدّمة، فكّرت لأكثر من مرة بالانتحار.

ـ يا إلهي، لا أصدق أنّك فكرت بذلك!

ـ بل صدّقي، شعوري بالذّنب تجاهها يعذبني لدرجة الإقدام على الانتحار، ورغبتي بالقيام بواجبي تجاهها وتجاه البشر الذين يعانون من الاكتئاب يجعلني متشبثةً بالحياة، أنا على قيد الحياة وفاءً لهالة، يجب أن أمضي في التجربة حتى النهاية، سأسمّي العقار باسْمها.

ـ كم أنت رائعة يا سميرة، سيكون هذا تكريماً حقيقيًّا لهالة، وتخليدًا لذكراها، لكن هل أنت واثقة بأنه ليس هناك أيّة آثار جانبية خطيرة لهذا العقار؟!

ـ لا يهمّ، سوف أجرّبه وأتحمّل كافة النتائج، أين غسّان؟

ـ جاء معي لكنْ عندما وجدناك نائمة غادر، لماذا تريدينه؟!

ـ كانت هالة تقول لي بأنّه صيدلانيًّا بارعًا، أريد تكليفه بتركيب العقار.

ـ ماذا؟!

ـ المعادلات كلّها معي في حاسوبي، ومعملي مجهّز بكلّ شيء، مهمته التركيب فحسب..

ـ لا أدري إن كان غسّان سيقبل بهذا؟!

ـ إنّها مهمتك يا كاميليا، عليك إقناعه، سوف أكتب لكما إقرارًا يخلّصه من التعرّض للملاحقة القانونية في حال حدوث أيّة مضاعفات لي.

ـ لكنّها مجازفة خطيرة!

ـ إن لم نقدِم على هذه المجازفة فأعدّي نفسك للسير في جنازتي.

ـ لا تقولي هذا، ستكونين بخير يا حبيبتي ، سوف نفعل ذلك، وسننجح.

ـ نعم، سننجح، أنا على يقين من هذا، وأعيش لأجله فقط.

خرجت من عند سميرة وأنا أشتعل حماسًا للقيام بهذه المهمة، شعرت بأني أحملُ مشعل نور وحيد، ويجب أن أوصله ليد غسّان وأقنعه بضرورة إيصال المشعل لكلّ مرضى الإدمان والاكتئاب، محنة سميرة جعلتني أدرك بأنّ معاناة مرضى الاكتئاب من أشدّ أنواع المعاناة، وآلامهم مِن أقسى أنواع الألم.

ورقةٌ من مذكّرات غسّان..

بعد وصولي للسكن بساعة، عاودت كاميليا الاتصالَ بي، طلبت أن نلتقي على الفور، في مكان هادئ، بعيدًا عن أنظار الناس.

تهافتتْ توقّعاتي بأفكار حمراء، قطعتْ كاميليا سيلَها بقولها:

ـ سميرة تطلب منك إسداء معروفٍ كبير لها ولأستاذتك هالة وللإنسانية جمعاء.

خرجت للقاء كاميليا، وجيش أسئلة تعترك في ذهني، ما هذا المعروف الذي تريده مني سميرة.. ويخدم الإنسانية؟!

اقترحتُ عليها أن نلتقي في النادي الرياضي، يكون هادئًا في مثل هذه الأيام، حيث ينخفض مستوى الأنشطة بسبب موسم الاختبارات. سبقتها إلى النادي بنصف ساعة، جلست أترقّب ظهورَها بتوجس، غدتْ حياتي أكثر إثارة منذ ظهور كاميليا فيها، عندما أقبلت عليّ رأيتها تحمل همًّا كبيرًا انعقد له حاجباها. بادرتها بالسؤال:

ـ كيف هي صحة سميرة؟!

ـ متردّية، ستموت يا غسّان، ستموت.

قالت لي تلك العبارة وتهاوتْ بجواري على الكرسي، وانخرطت في البكاء، شعرتُ بجميع قواي تتبدّد لمرآها باكية، لماذا لا تكفّ النساء عن عادة البكاء المؤلمة هذه!

هدّأت من روْعها، اقتربت منها، ربتُ على كتفها، وددتُ لو أضمّها إلى صدري، شعرت كاميليا بأنفاسي الحارة تلهبُ خدّيها، تباعدت قليلًا، كفكفت دموعَها، ثمّ:

ـ غسّان، أنت رجلٌ شجاع، يمكن الاعتماد عليه.

ـ أكيد، قولي ما الذي تريده مني سميرة، سأفعل كلّ ما مِن شأنه إنقاذها أو التخفيف عنها.

ـ استمع في البدء لخلاصة الموضوع.

ـ قولي، كلي آذانٌ مصغية.

ـ منذ عدة سنوات، وسميرة وهالة منكبّتان على بحث، ثمرتُه تركيب عقار جديدٍ لعلاج الاكتئاب، وتخفيف آثار الانسحاب من الإدمان، لقد نجحنَ في صناعة هذا العقار بالفعل، واليوم قرّرت سميرة أن تجرّبه على نفسها.

ـ هذه معلومةٌ جديدة ومثيرة، ما هو المطلوب مني؟

ـ سميرة تقول بأنّ جميع المعادلات موجودة لديها، دورُك هو تركيب العقار، وسأقوم أنا بإعطائها الكميّات المقترحة، وبسريّة تامة.

ـ هكذا إذًا.. لكنْ هل جرّبتْه على حيوانات التجارب؟!

ـ قالت سميرة بأنّ هالة جرّبت العقار على القرود، وأنّ النتائج كانت جيدة ومبشرة للغاية.

ـ قرود هالة! يا للمسكينة، كانت تعملُ لإنقاذ البشرية والكلُّ أساء فهمها! كانت إنسانة عظيمة، رحمها الله.

ـ إذا نجح العقار فسوف تسمّيه سميرة باسْم هالة.

ـمذهل! الأستاذة هالة تستحقّ ذلك، هذا أقلّ شيء نقدّمه لها.

ـ أفهم مِن كلامك أنك قبلتَ بالمهمّة؟

ـ بالتأكيد، ولم لا أقبل، سيكونُ عقار العصر.

ـ أوه، شكرًا لك، أزحتَ عن صدري همًّا ثقيلًا، خشيت بألّا تقبل.

ـ يبدو أنّك لم تعرفيني جيدًا.

ـ أنت يا غسّان تدْهشني كلّ يوم بسمةٍ جديدة.

ـ هيّا قولي على التحديد، ما أكثر شيء يعجبُك في شخصيتي؟!

ـ الذّكاء.

ـ وماذا أيضًا؟

ـ المرح.

ـ ثمّ ماذا؟

ـ الإصرار والمثابرة لبلوغ الهدف.

ـ زيديني.

ـ طمّاع.

ـ جدًّا، في الحبّ فقط، ومعك زادتْ مطامعي، هههه...

ـ وأنتَ قل لي ما أكثرُ شيء يعجبك في شخصيتي؟

ـ الذّكاء.

ـ حقًّا؟ هيّا لا تردّد كلامي.

ـ ليس ترديدًا لكلامك، هو توافقٌ في تحديد الصفات الأكثر أهميّة في شريك الحياة.

ـ وماذا غير الذكاء؟

ـ خفّة الروح، الطيبة، عينيك، والغموض الساحر الذي يستوطنها.

ـ غموض في عيني!

ـ غموضٌ فيه سحرُ بحرٍ عميق، يدعوني للغوص في لجّته واستخراج درَرِه.

ـ ألا تخشى من الغرق؟

ـ أنا سبّاح ماهر، وموجُ عينيك رفيق هادئ.

ـ ههههه، الآن عرفت بأنّك تتمتّع أيضًا بالشاعرية، وماذا يعجبك فيّ أيضًا؟

ـ أناقتك، عطرك، وأشياء أخرى.

ـ أشياء أخرى.. مثل ماذا؟!

ـ سأقول لكنْ لا تغضبي.

ـ لا، لا تقل، يكفيني ما سمعته.

ـ خطيرة، تفهمين مُرادي قبل أن أنطق!، ههههه..

في هذه اللحظة، علا رنينُ جوّالها، دست يدَها في الحقيبة بحثًا عنه، تذمّرت مِن اكتظاظ حقيبتها بالأشياء، أفرغت كلّ ما فيها على الطاولة؛ لتدرك المتّصل قبل أن ينهي الاتصال. أخرجت الجوّال بعد توقّفه عن الرنين، قالت بامتعاض:

ـ لقد نفدَ الشحن!

لفتَ انتباهي بين أشيائها أجندة حمراء تشبه تلك التي أكتب فيها مذكراتي، لم أستطع منعَ يدي من الامْتداد إليها، سبقت يدُها يدي، جذبتها بفزعٍ قائلة:

ـ لا تلمسْها.

قلتُ لها باندهاش:

ـ لماذا الفزع؟ ماذا فيها.. أسرار دولة؟!

ـ أهمّ من ذلك بكثير.

ـ لقد ضاعفت فضولي لمعرفة ما تحتويه هذه الأجندة.

ـ رواية..

ـ واقعية؟

ـ يعني، شيءٌ من هذا القبيل، أحاول كتابة رواية.

ـهل هي المحاولة الأولى؟

ـ هي محاولتي الأولى بالفعل.

ـ أتسمحين لي بإلقاء نظرةٍ عليها؟

ـ ليس الآن، ربما بعدَ أن أتمّها.

ـ لكنْ بشرط..

ـ وتشترط أيضًا!

ـهو شرطٌ بسيط.

ـ ما هو؟

ـ أن تجعلي النهاية سعيدة.

ـ هذا الأمر متوقّف على...

ـ على ماذا؟

ـ لست أدري، دعِ القدر يأخذ بيدي حيث يشاء.

ـ أتعرفين لماذا أثارت هذه الأجندة انتباهي، ولم أستطعْ منع نفسي من محاولة مطالعة ما فيها؟!

ـ لا، لماذا؟!

ـ لأنّي أمتلك واحدة تشبهها تمامًا، نفس النوعية وذات الحجم واللّون.

ـ أنت أيضًا تحاول أن تكتب رواية؟

ـ ليست رواية بالمعنى الحرفي، أكتب مذكراتي، يومياتي، خواطري..

ـ ستسمح لي بقراءتها حتماً.

ـ ليس قبل أن تسمحي لي بقراءة روايتك.

ـ دعنا مِن هذا الآن، وهيّا قمْ بنا.

ـ إلى أين؟

ـ سنذهب إلى بيت سميرة، هي في انتظارنا.

ـ تذكري بأنّ عليك أن تجدي حجّة تقنعين بها الخالة حسنات كي تؤجّل السفر.

ـ إذاً.. سنؤجل زيارتنا لها إلى الغد. سوف أهاتف سميرة مساء؛ كي نتّفق أنا وهي على ما سنحتالُ به على الخالة حسنات.

افترقنا على أن نلتقي صباح الغدِ في بيت سميرة.

قامت عمادة الكلية بتعْيين بديلٍ للأستاذة هالة؛ ليقوم بالإشراف على بحوث التخرج، بعد أن عجزت الشرطة عن معرفة مصير هالة.

يقضّ التفكير مضجعي، ويجلدني ضميري في كلّ مرة أرى فيها الدكتور قصي يعيش بيننا آمنًا مطمئنًّا، مع إحساسي بأنّه هو القاتل، وعجزي عن إثبات ذلك!

بعد أن أوصلت كاميليا إلى بيتها، اتّصلت بالشرطة من هاتفٍ عمومي، أخبرتهم بشكوكي حول أستاذ التشريح الدكتور قصي، غيّرت نبرةَ صوتي وقلتُ للضابط المناوب:

ـ أنا شخص يعرفُ الأستاذة هالة، لدي أسبابٌ تدفعني لإخفاء شخصيتي، وأسباب تجعلني أشكّ بأنّ لأستاذ التشريح الجديد المدعو قصي يدًا في اختفائها؛ لأنّه كان على علاقة بها في أيامها الأخيرة، كانت تحبّه؛ فكيف لم يؤثر حادثُ اختفائها عليه؟!

لمْ أتمالك نفسي فأردفت:

ـ سأقولُ لك الحقيقة، هالة ماتتْ مقتولة، وأنا أكادُ أجزم بأنّ قصي هو مَن قتلها.

قلتُ ذلك للضابط المناوب، وأنهيتُ المكالمة، قبل أن يصبّ على مسامعي سيلًا من الأسئلة، بعدها شعرت ببعض الارتياح، ربما ستجدُ الشرطة أدلةً تدين قصي دون أن تتورّط كاميليا أو سميرة في القضية.

أسرارُ هالة...

بعد أنْ أوصلني غسّان إلى البيت، شعرتُ بالخجل من تصرفي حيالَ محاولته الاطلاع على أجندتي، لم أستطع وقتَها السيطرةَ على ردّة فعلي، اكتسحني تسوماني رعب في تلك اللحظة، يا إلهي، هل سأمتلكُ الشجاعة الكافية لمصارحته؟

في المساء، اتصلتُ بسميرة، واقترحت عليها أمرًا، قلت لها:

ـ اشترطي على خالتي حَسنات أن أسافر بصحبتك، واتركي الباقي عليّ.

قبلتْ سميرة بمقترحي دونَ نقاش، بدتْ واثقة بي أكثر من أيّ وقت مضى، بدوري شعرتُ بأن الغاية التي تسعى لها سميرة أيقظت فيها الرغبةَ في الحياة، كانت منبسطةً ومنشرحة الصدر بعض الشيء، تحادثنا لساعة في أمور شتّى، ثمّ أخلدنا للنوم.

عند الثامنة صباحًا، توجّهت لبيت الخالة حَسنات، حال وصولي وجدت غسّان واقفًا في انتظاري أمامَ باب العمارة التي يقعُ فيها سكنُ سميرة، ألقيت عليه تحيّة الصباح، ردّ التحية ببرود.

قلتُ له:

ـ ما بك؟ تبدو متعكّر المزاج.

ـ لماذا لم تحادثيني ليلة أمس؟

ـ هل كنت ترغب في الحديث معي؟!

ـ لا تجيبي على سؤالي بسؤال.

ـ ولماذا العصبيّة الآن؟!

ـ لأنك تستفزينني أحيانًا ببلادة حسّ تحلّ عليك فجأة.

ـ ماذا! أنا بليدة؟!

ـ لم أقل ذلك.

ـ بل قلت.

ـ هييه.. لن ترجعي اللّوم عليّ، أقفلت جوّالك قبلَ العاشرة وأنت تعلمين بأني سأتّصل بك، لماذا هذا الإهمال والتجاهل؟!

ـ رجاءً يا غسّان، لا تصنع من موقفٍ بسيط مشكلة، لقد كنت مُتعبة فحسب، هاتفت سميرة، واتّفقنا على ما سنقولُه للخالة حَسنات، بعدها غلبني النوم، كان يومي مرهقًا بالأمس.

ـ حسنًا، سامحتك.. لكن لا تفعلي بي هكذا مرة أخرى، لا تغلقي جوّالك.

ـ هل هذا أمر؟!

ـ بل رجاء، لم أذقِ النوم طوال ليلة أمس، أنا أحبّك يا كاميليا، وأراك غير مقدّرة لحبي!

ـ لماذا تظنّ بي هذا الظنّ؟!

ـ لقد بقيت سهرانًا على أملِ أن تتكرّمي وتفتحي جوّالك، وعندما عاتبتك غضبت، أليس من حقّي معاتبتك على إهمالك لي؟!

ـ لماذا اعتبرته إهمالًا؟!

ـ وماذا تسمّين ما فعلتِ؟

ـ أعتذر بشدّة لأنك شعرت هكذا بسببي، أعدكَ بأني لن أقفل جوّالي، هل رضيت الآن؟ هل نصعد للقاء سميرة؟

ـ رضيت، هيّا بنا، يا ليتني كنت سميرة، هههه..

لم أعلّق على عبارته الأخيرة، مشيتُ بجواره وأنا أغالب ضحكةً ساخرة، لماذا يتصرّف أحيانًا كالأطفال؟!

عندما دخلنا عند الخالة حَسنات جذبتني من يدي فورًا، مشت بي خطوات مبتعدةً بنا عن الشرفة، حيث تجلس سميرة بانتظار مجيئنا، قالت الخالة لي هامسة:

ـ الحمدُ لله، أخيرًا قبلت سميرة بالسفر للعلاج؛ لكنها اشترطت أن تسافري معنا، ستقبلين بهذا الشرط يا بنتي. إنها قضية حياة أو موت. هي صديقتك، ولن تخذليها، أليس كذلك!؟

ـ تأكّدي يا خالة بأني لن أتخلّى عن سميرة، لكنّ المشكلة هي أني أضعت جواز سفري منذ شهر.

ـ هذه ليست مشكلة، يمكنك استخراج بدلِ فاقد.

ـ فعلًا يمكنني ذلك؛ لكن سوف نحتاج لمزيدٍ من الوقت.

ـ حسنًا، لا بأس، المهم أنّها قبلت بالسفر للعلاج، شكرًا لك يا ابنتي.

ـ الشكر كلّه لله، هل نستطيع رؤية سميرة الآن؟

ـ بالتأكيد، هي في انتظاركم في الشّرفة منذ ساعة، تفضّلا بالدخول، عذرًا يا غسّان، تركتك قائمًا، لا تلوموني، أنا أمّ قلقة على وحيدتها.

أجابها غسّان بلباقة:

ـ لا عليك يا خالة، كان الله في عونك، ستشفى سميرة عمّا قريب بإذن الله تعالى؛ فهي فتاة قوية وشجاعة.

رفعت الخالة حَسنات يديها للسماء، ثمّ:

ـ يا ربّ استجب لدعائنا، وحقّق ظنّنا فيك يا كريم.

حملت الخالة حَسنات حقيبة يدِها واتجهت نحو باب الشقة قائلة لي:

ـ أرجو أن تبقيا إلى جوارها حتى أنهي بعض المهام، لن أتأخر. سأعود بعد ساعة.

اتجهتُ وغسّان نحو الشرفة التي تجلس فيها سميرة، لم تشعرْ بنا، كانت مرسلة ناظريها في الأفق البعيد، تنحنح غسّان فتنبّهت، همّت بالوقوف لاستقبالنا، حلّت دون ذلك، قائلة لها:

ـ ابقي مستريحة، لسنا غريبين.

ابتسمت لي برضا، استوتْ على الكرسي وأطلقت تنهيدةً طويلة، ثمّ:

ـ شكرًا لكما، أنتما أكثر شخصيْن أشعر بالأمان في وجودهما.

جلست قريبًا منها، وجلس غسّان بمقابلنا قريبًا من حافة الشرفة، سألها:

ـ كيف صرتِ اليوم أيتها البطلة؟

ضحكت سميرة من عبارته، كانت تلك ضحكتها الأولى منذ انهيارها الرهيب.

شعرت بالامتنان الشديد لغسّان، قلت:

ـ شكرًا لأنك ضحكت، وشكرًا لغسّان لأنه استطاع أن يجعلك تضحكين، أنت بالفعل بطلة، ما ستقدمين عليه من عمل هو قمّة البطولة.

ـ هل أفهم بأنّ غسّان قبِلَ أن يقوم بتركيب العقار؟!

أجابها غسّان:

ـ لقد قبلت يا سميرة، ليس لأنّ كاميليا بذلت جهدًا في إقناعي بل لأنها قضية نبيلة، تهمّ الإنسانية جمعاء.

ـ ذكّرني كلامك بحبيبتي هالة.. رحمها الله، كانت تردّد ذات العبارة كلّما واجهتنا عقبة.

قال غسّان:

ـ هل يحقّ لي أن أسألك عن أمرٍ يخصّ الأستاذة هالة؟

ردّت عليه سميرة:

ـ لا حرج عليك، صرت عضوًا في فريق البحث، من حقّك أن تعرف كلّ شيء عني وعن هالة.

ـ هو أمرٌ متعلق بها شخصيًّا؛ لكنه قد يحلّ لغز مقتلها.

ـ عن ماذا تريد أن تسأل بالتحديد؟!

ـ ما هي حقيقة علاقتها بأستاذ التشريح الجديد؟

ـ تقصد الدكتور قصي؟

ـ نعم.

أجابته سميرة بنبرة ساخرة:

ـ المسكينة.. أحبّته!

ـ لقد شعرت بذلك، كنت فقط بحاجة لتأكيد، لكن كيف أحبّته! إنه بارد، جامد، قاس، هكذا يراه الجميع!

ردّت سميرة:

ـ وكان هذا رأيي فيه، مسكينة هالة، كانت تبحث عن شيء تفتقده في أعماقها.

سكتتْ سميرة لوهلةٍ مطلقةً ناظريها في المدى، تنهّدت بعمق، ثمّ أردفت:

ـ عاشت هالة طفولة قاسية بين أبويْن متنافرين، كانت أمُّها امرأة جميلة، من أسرة عريقة، ومفلسة، وأبوها كان رجلًا ثريًّا؛ لكنه من أسرة

وضيعة، أحبّ أمّها حبًّا جمًّا، عشقها، هي تزوّجته من أجل ماله، وهو تزوّجها لأجل الجَمال والنسب العريق، عندما بلغت هالة مرحلة المراهقة كانت أمّها قد وصلت للذّروة في إذلال الأبِ المسكين، لم يعد بإمكانه الاحتمال أكثر من ذلك، أصيب بكآبة خانقة، ذهب للطبيب، وعاد من عنده بقائمة أدوية، لم يتناولها كما يجب، ازدادت حالته سوءًا، أوعزَ له صديق سوء بتناول المخدرات، بعد سنة أصبح مدمنًا للمخدرات، ذات ليلة مات بسبب جرعة مخدرات زائدة.

هالة هي صديقتي منذ الطفولة، لم تكنْ بهذه القوة التي يراها الناس، كانت لطيفة ومرهفة الشعور، كلّ هذا التغيير طرأ عليها بعد وفاة أبيها، الذي كانت تحبّه بشدة، شعرت بأنه مات لأنّه ضعيف، رأت أمّها تتلقى خبر موته دون اكتراث.

قرّرت هالة أن تصبح قوية كي لا تنكسر..

مِن المفارقات العجيبة في حياتها؛ أنّ كلّ الرجال الذين حاولوا التقرب منها بعد نضوجها كانوا ضعفاءَ الشخصية، هالة تريد رجلًا قويًّا، لا تريد رجلًا يشبه الأبَ الذي قتله الحبّ والإدمان، وتركها وحيدة، ربّما لذلك أحبّت الدكتور قصي، رأت فيه الرجل القوي الذي تبحث عنه.

لكنّه قتلها، أنا على يقينٍ بأنه الفاعل، لا أحد يستطيع سرقة أعضاء البشر بتلك الصورة، غير شخص خبير في التشريح. كنّا نصغي لسميرة وهي تسرد علينا قطوفًا من قصة حياة هالة؛ باهتمام ودهشة، وعندما انتهت من الحديث عن هالة؛ سألها غسّان:

ـ كيف تعرّفت عليها في المشرحة بعد أن مزّقوا جسدها؟!

ـ عرفتها من خاتم أهداه لها والدها قبل أن يموت، منقوش عليه الحرف الأول من اسمها والحرف الأول من اسمه، كانت هالة تعتز به كثيرًا، ولا يفارق يدَها مطلقًا.

توقّفت سميرة عن الكلام، وبدأت أطرافها ترتعش، جفّ ريقها، يبدو أن استرجاع أحداث تلك الليلة المشئومة يسبب لها ألمًا نفسيًّا لا يطاق!

قلت لغسّان بغضب:

ـ أرجوك يا غسّان، لا تثقل عليها.

قمتُ من فوْري وتوجّهت نحو الثلاجة، صببتُ لها كأس ماء بارد، شربت سميرة بضعَ جرعات من الماء. استردّت هدوءها رويدًا، رويدًا. أومأت لغسّان بنظرات عتب؛ فسكت بعدها ولم ينبس.

تحضيرُ العقار..

هل يخدعُنا الآخرون لأننا أغبياء؟! وهل دومًا لا يقع فريسة لخدعة سوى الغبي؟!

بماذا نصفُ هذا النوع من الغباء؟ هل هو غباءٌ أصيل، أم هو تغابٍ؟

نسمع المثل القائل (لا يقع إلا الشاطر)! لكن لماذا يقعُ وهو شاطر؟!

هل هي الثقة المفرطة، أم الغرور، أم الرغبة في المغامرة؟!

أنا لا أؤمن باجتماع سذاجة وذكاء في إنسان واحد، ليس ثمة إنسان ذكي ساذج، يوجد خادع ومخدوع في كلّ مآسي الغدر بين البشر؛ لكن وبكلّ تأكيد توجد خدع نفسيّة وسيطة.

نفوسنا هي فقط مَن يمكنها أن تخدعنا لتحصلَ على حاجتها، الشخص المسئول ينسلّ من مآزقه بهدوء، وقد يفلحُ في التخلص من

تبعاتها، مدركًا حجم مسئوليته عمّا حدث له. انساقت هالة وراء خداع نفسها لتُشبع حاجةً قديمة، ولم يمنحها القدر فرصةً للتصحيح، لكن الآخر مجرم، أقدمَ على فعلته بوعي تام، هي كذبت على نفسها، والآخر أوهمها بالحبّ ثمّ قتلها، هي تفاءلت كثيرًا، ووثقت بقدرتها على تسْيير الأمور لتصلَ إلى نصاب صحيح، هو لم يردْ منذ البدء أن يصل لهذه النتيجة المرضية لكليهما.

..هي لم تقدّر حجم المخاطر لهذه المغامرة، هو عرفها يقينًا؛ لكنه لم يأبه لأنّه لن يخسرَ الكثير.

وهكذا تبقى لعبةُ الخادع والمخدوع مستمرّة، أحدهما يسكت صوت العقل، والآخر يسكت صوت الضمير، وقد يتبادلان الأدوار وقد تتعدّد السيناريوهات، ولكن يبقى دور الخدع النفسيّة هو الدور الأهمّ المتواري، والذي يوقع الكثير من البشر في الخطيئة، والظلم، والعدوان، والهلاك!

هذا ما جالَ في خاطري بعد سماعي لتفاصيل حبّ هالة لقصي، أمّا الأيام التي تلتِ اللّقاء الذي حكتْ لنا فيه سميرة قصة هالة؛ فقد كانت حافلة بالعمل الشاقّ المتواصل.

فتحت لنا سميرة معملَها الذي يقعُ في شقة ملاصقة لمسكنها، وأعطت لغسّان المعادلات؛ فبدأ من فوْره بالعمل على تركيب العقار

بحماسٍ وإيمان عميق. كان يحضّر كلّ ليلة كميّة دواء تكفي لأربعةٍ وعشرين ساعة، وكنتُ أقوم بإعطائه لسميرة بجرعات محدّدة، وفي أوقات معينة.

بذل غسّان مجهودًا مضاعفًا، كان يعمل على إتمام بحث تخرّجه، ويستذكر المواد التي سيختبرها بعد شهر، ويحضّر العقارَ؛ في آنٍ واحد!

كنت أراقبه بشغف، وأزدادُ كلّ يوم إعجابًا به؛ فيستعر حبّه في قلبي.

شعرت الخالة حَسنات بأننا ندبّر أمرًا ما، هي امرأة ذكيّة للغاية، لم تعترض طريقنا، راقبتنا عن كثب بصمت، لم تسألنا عمّا نفعله؟!

عندما رأت سميرة تستردّ بعض قواها سكنتْ نفسها، تغافلت عن وجود غسّان الدائم في معمل ابنتها، وعن الأدوية التي كانت تراني أسقيها لسميرة، كانت مطمئنة لدرجة أنها لم تسألني: هل استخرجتِ جواز السفر؟!

بعد شهر من العمل الدءوب، قطف ثلاثتنا ثمرةَ تلك الجهود، كانت النتيجة مذهلة، بدأت سميرة تتماثلُ للشفاء. عادت شهيّتها للطعام كما كانت، أصبحت تتنعّم بنوم عميق دون الحاجة لتناول حبوب منوّمة، عندما تفتح عينيها في الصباح وتتيقّن بأنها نامت طوال الليل دون تقطع، وبلا كوابيس تضحكُ وتحتضنني بقوة، ثمّ تبكي من شدّة الفرح.

تجاوز غسّان اختباراته النهائية بنجاح، لم يحصلْ على المركز الأول في الدفعة كما كان يخطّط؛ لكنه كان سعيدًا؛ لأنّه أنقذ حياة سميرة، وأسهم في تصنيع دواء سينقذ حياة الآلاف من البشر. وأيضًا حدثت مفاجأة أذهلت الجميع، تمّ إلقاء القبض على قاتل هالة، نشرت الصحفُ اليومية تفاصيلَ الجريمة، تلقّت الشرطة مكالمةً من مجهول، اتّهم الدكتور قصي بقتل هالة، تلك المكالمة جعلتهم يضعون قصي مجددًا تحت المراقبة المشدّدة.

ذات ليلة، ألقوا القبض عليه وهو يهمّ بإلقاء لحمٍ مفرومٍ للقطط كما هي عادته، حرّزوا اللحمَ وأرسلوها للطبّ الشرعي، بعد الفحص اتّضح بأنها لحومُ بشر!

اعترفَ أستاذ التشريح تحت ضغط التحقيق والاستجواب بكلّ جرائمه، قال بأنّ شريكه كان يجلب له جثثًا إلى المشرحة التابعة لكلية الطب، لأناس هو لا يعرفهم، ولا يعرف كيف ماتوا؟

كانت مهمّته تقتصر على انتزاع الأعضاء البشرية السليمة من تلك الجثث، ووضعها في ثلاجات صغيرة، هو لا يدري لَمن يذهبون بها؟ ثمّ يقوم بفرْم بقية الجثة في جهاز التخلص من بقايا العمليات الجراحية، ويحتفظ بالقليل منها ليطعمه للقطط.

عندما سأله المحقّق: متى تقوم بهذه العملية عادة؟ أجابه قصي:

ـ في أيام الإجازات والعطل الرسمية.

ولّما سأله ضابط التحقيق عن سببِ قتله لهالة، اعترف بأنه قتلها خطأ، قال:

ـ في تلك الليلة كلّفت بمهمّة عاجلة، ذهبت إلى المشرحة في غير يوم الإجازة، دخلت هالة عليّ بغتة وأنا في المشرحة، أقوم بانتزاع أعضاءِ جثة.. ثارت ثائرتها عندما رأتني أضعُ الأعضاء في الثلاجة الخاصّة بنقلها للخارج، هدّدت بفضح أمري، حاولت خداعها، وإقناعها بأنني أحضّر جثة لدرس تشريح، لكنها كانت أذكى مِن أن تنطلي عليها هذه الكذبة، بدأت تبكي، وتكيل لي الشتائم، لم أستطع تهدئتها، أرادت الخروج لإبلاغ الجهات المختصة، جذبتها من شعرها بقوة؛ فبدأت بالصراخ وقاومتني بشدة، كتمتُ أنفاسها لإسكاتها، لم أردْ قتلها؛ لكنها ماتت.

وكان الاعترافُ الأخطر، الذي سبّب صدمة للجميع هو أن شريكَه في هذه الجرائم الفظيعة؛ رئيس الجامعة الفاسد! قال قصي في اعترافاته:

ـ عندما اتصلت به، وأخبرتُه بأنّ هالة ماتت بين يدي خطأ؛ أمرني بانتزاع أعضائها، وفرمِ بقيّة جثّتها للتخلص منها كالبقية.

بعد أن استخرجت أعضاءها، شعرت بالحزن لأني فقدتها، تركتها في مكانها وخرجت، همتُ على وجهي، شعرت بفداحةِ ما فعلتُه بهالة، تنبّهت عند الفجر؛ فاتصلت برئيس الجامعة، ورجوته أن يكلّف غيري بفرْم بقيّة جثّتها.

«كانت تلك هي الفجوة الزمنية الفارقة، التي دخلت فيها سميرة إلى المشرحة ورأت جثة هالة. بقي هذا الجزءُ من الحادثة في طيّ الكتمان، لم يعلم به سوى سميرة وأنا وغسّان».

شغلتْ هذه الفضيحة الرأي العام، وتناولتها جميعُ وسائل الإعلام لفترة، ثمّ سكت جميعهم فجأة. تردّدت شائعات بأنّ رئيس الجامعة المجرم كان مسنودًا من جهات عليا، فاسدة!

في النيابة، تراجع قصي عن اتّهام رئيس الجامعة، وتحمّل وحده وزرَ جميعِ الجرائم، تمّت محاكمته بسرعة غير مَسبوقة، وأعدم شنقًا، وأقفل ملفُ القضية.

أحيل رئيس الجامعة المجرمُ للتقاعد، وتمّ تعيين شخصية محبوبة من الجميع ومشهود لها بالكفاءة والنزاهة بدلًا عنه.

ورقةٌ من مذكّرات غسّان..

في اليوم الذي سمعت فيه خبرَ إعدام قصي شعرتُ براحة ضمير تامّة، نمتُ بعدها بسلام، نعمتُ بشعور الرضا، ما أجملَ أن تعمّ العدالةً المجتمعات، وينال كلّ مجرم جزاءه العادل بيدِ القانون، ربما يوجد آخرون أسْهموا في هذه الجرائم، لم تطلْهم عدالة الأرض، وهذا أمرٌ يقضّ الضمير الجمعي؛ لكن وقوع العقوبة بأعوانهم الصغار يدفعُ عن المجتمعات بعضًا من شرورهم، ويجعلهم ينزَوون في جحورهم لزمن، مثل هؤلاء قد تتأخّر عقوباتهم وتدخّر لهم إلى يومِ الحساب؛ ليكون عقابهم شديدًا عسيرًا موازيًا لفظاعة جُرمهم.

في صباح يوم تالٍ، توجّهت بصحبة سميرة للقاء رئيس الجامعة الجديد بناءً على طلبه، كان رئيس الجامعة الجديد أستاذًا لسميرة في مرحلة البكالوريوس، وقد حدثته قبل سنوات عن فكرة العقار الذي تقوم هي وهالة بمحاولة تركيبه لعلاج مرضى الاكتئاب ولتخفيف آلام المُدمنين في مرحلة الانسحاب؛ فتحمّس للفكرة كثيرًا، قالت لي ونحن ذاهبان للقائه:

ـ يومها، عرضَ علينا، أنا وهالة، أن يشرفَ على البحث بنفسه، وهو الذي حذّرنا من رئيس الجامعة السابق، وطلب منا العمل على مشروع العقار بسرية تامة، لكن ذلك الفاسد الخبيث لم يمهله، قرّر التخلص منه وإبعاده بطريقة دبلوماسية.

ـ كيف ذلك؟!

ـ أرسله ببعثة للتدريس خارج البلاد.

ـ نفي مستتر.

ـ صدقت، عندما اتّصلت به مساء أمس، وذكّرته بموضوع البحث، وأخبرته بأننا نجحنا في تصنيع عيناتٍ من الدواء وقمْنا بتجربتها بالفعل، وبأنّ النتائج التي وصلنا إليها كانتْ مذهلة، فرحَ كثيرًا، وطلب مني المجيء للقائه.

ـ وهل حدثتِه عني؟!

ـ بالتأكيد، كان لك الدورُ الفعّال في إنجاح التجربة.

عندما دخلنا للقاء الدكتور «عثمان» رئيس الجامعة الجديد، استقبلنا بحفاوة وترحيب بالغيْن، كان متحمسًا لسماع جميع تفاصيلِ التجربة من سميرة. بعد أن أتمّت سميرة سردَ التفاصيل عليه، اتّخذ أولَ قرارٍ له في منصبه الجديد، وهو تبنّي الجامعة لمشروع عقارِ هالة، ووجّه بصرفٍ ميزانية خاصةٍ له، وقام مِن فوْره بتشكيل فريقِ عملٍ كامل تترأسُه سميرة من أجل إخراج الدواء في شكله النهائي القابلِ للتسويق.

قال لسميرة مطمئنًا:

ـ كوني على ثقةٍ بأنّ جهودك أنت والمرحومة، الأستاذة هالة، لن تضيع سدًى، سأعملُ بنفسي على تسجيل براءة اختراع الدّواء باسْمكما.

تنهّد واستند على كرسيه، وأردف:

ـ هل تعلمان بأنها ستكون أولَ براءة اختراع تسجّلها الجامعة منذ أكثر من عقد من الزمن؟ مع أنّها جامعة متطوّرةً ومعترَف بها عالميًّا؟!

قبل أن ننصرف من مكتب الدكتور عثمان شكرَنا بعمق، وأخبرنا بموعدِ حفل تخرّجنا، والذي سيتمّ فيه تكريم المتفوقين من طلاب البكالوريوس والماجستير والدكتوراه في كافة التخصصات. لقد عرفْنا بالموعد قبل أن يعلنَ للجميع.

اتّصلت من فوْري بوالديّ وجميع أفراد أسرتي؛ كي يستعدّوا لحضور الحفل. كان هدفي في المقام الأوّل من استدعائهم جميعًا أن يتمّ التعارف بينهم وبين كاميليا، أخطَط لأنْ يكون حفل خطوبتنا أنا وكاميليا في ذات اليوم الذي ستقامُ فيه حفلة خطوبة شقيقتها شهيرة على صديقي شريف.

بمجرد عودتي إلى السكن، اتصلت بكاميليا، سردتُ عليها تفاصيل اللّقاء مع رئيس الجامعة، وأبلغتها بموعد حفل تخرّجي، قلت لها:

ـ أريدك أن تكوني في قمّة الروعة والجَمال في هذا اليوم، أريدك نجمة الحفل.

ـ أنت مَن يجب أن تبدو في أبهى صورة، إنه حفلُ تخرّجك.

ـ افعلي ما قلته لك فحسب.

ـ حاضر، عمومًا أنا دومًا أبدو في قمّة الروعة والجَمال، أم أنك ترى غير ذلك؟

ـ أنا لا أرى سوى ذلك، أنا هائمٌ ومُلتاع لأجل ذلك، ومشتاااق جدًّا.

ـ غسّان، يكفي رجاءً.

ـ أحبّ دلالك، أذوب فيك عندما تتظاهرين بالخجل البريء.

ـ أنا لا أتظاهر بالخجل، أنا شخصية خجولة بالفعل.

ـ وجريئة في ذات الوقت.

ـ أحمل الصفتين معًا، أحيانًا أكون خجولة وفي أحيان أخرى أغدو جريئة، لكلّ مقام مقال.

ـ وهذا التنوّع العجيب في شخصيتك هو الذي سحرني، وأسرني، وجعلني أحبّك بلا حدود.

ـ ههههههه، شكرًا.

ـ شكرًا فقط؟ ألن تسمعيني كلمة أحبّك!

ـ باقي على موعد الحفل أسبوع، ماذا خطّطت، كيف ستمضي هذا الأسبوع؟!

ـ تهربين! حسنًا، طبعًا سأقطع ساعاته ودقائقه وثوانيه مع حبيبة قلبي.

ـ لكني مشغولة.

ـ قلت مع حبيبة قلبي، ما شأنك أنتِ؟!

ـ ههههه.. أنا جادّة.

ـ مشغولة بماذا؟

ـ بالبحث عن عمل.

ـ لست بحاجة للعمل؛ فأنا أفضّل أن تكون زوجتي ربّةَ بيتٍ فحسب.

ـ لا.. لا، انسَ هذا التفضيل، أنا شخصية عملية، وللعلم لست ربّةَ بيتٍ جيدة، حتى أنني لا أجيد الطبخ.

ـ سوف تتعلّمين.

ـ سوف أتعلّم لأجلك فقط، لكن هذا لا يعني بأن أبقى دون عمل، حبيسة البيت.. ولماذا حصلت على كلّ هذه الدبلومات إذًا؟!

ـ صحيح، لماذا لم تكملي دراستك الجامعية؟

ـ كنت طالبة جامعية لسنة واحدة فقط، بعدها حالت الظروف دون إكمالي لدراستي الجامعية، لكنني أخطّط لإتمام الدراسة وتحضير الماجستير والدكتوراه أيضًا.

ـ وأنا سأعينك حتى تحقّقي جميع أحلامك يا حبيبتي.

ـ أجمل شيء فيك يا غسّان، هو تقديرك للمرأة وعدم النظر لها بدونيّة، أو التعامل معها بفوقية، أو شيء من هذه العقد التي يتعامل بها كثير من الرجال.

ـ أعدكِ حبيبتي بأن تجديني مختلفًا في كلّ شيء، متميزًا في جميع الأبعاد، الاجتماعية والعقلية والروحيّة والعاطفية والجسدية، هههههه..

ـ غسّان، ماذا لو اكتشفت بعد الزواجِ بأني أخفيت عنك جانبًا خطيرًا من جوانب حياتي، كيف ستكون ردّة فَعلك؟!

ـ لماذا هذا السؤال الصعب؟!

ـ أجبني فحسب.

ـ حسنًا، اسمحي لي أنْ أسألك السؤال ذاته، ماذا لو اكتشفت أنت هذا الشيء عني، كيف ستتصرفين؟!

ـ لا أعتقد أنك تخفي عني شيئًا هامًّا، أنا تقريبًا أعرف كلّ شيء عنك.

ـ شكرًا على حسن ظنّك؛ لكنك لم تجيبي على السؤال.

ـ وأنتَ لم تجبني، هيّا أجب، قل دون تفكير ماذا ستفعل؟!

ـ بصراحة، سأغضبُ جدًّا.

ـ لماذا؟!

ـ لأنّه من المفروض إذا كان شيء هامّ أن أعرفه منك قبل الزواج.

ـ وماذا إن كان هذا الشيء مخجلًا، معيبًا، مرفوضًا اجتماعيًّا، مع أنه ليس محرمًا شرعًا.

ـ كاميليا، هل تُخفين عني شيئًا كهذا؟!

ـ لا، أنا أختبرك فحسب.

ـ ارحميني قليلًا، بالأمس أنهيت اختبارات الكلية، أريدُ راحة طويلة، سعادة، نزهات، مرح، فرح، حبّ.

ـ على مهلك، قلت لك بأني سأبحث عن عمل.

ـ وماذا عني، ألَا أستحق مكافأة بعد كلّ هذا الجهد الذي بذلته؟!

ـ حسنًا، سوف أؤجّل البحث عن عملٍ إلى ما بعد حفل تخرجك.

ـ حبيتي أنتِ، شكرًا لك.

ـ أنت مدعوّ غدًا لتناول العشاء في منزل الخالة حَسنات.

ـ الحمد لله، أخيرًا سآكل طعامَ بيت، لكن ما هي المناسبة؟!

ـ ستقيم الخالة حَسنات وليمة شكرٍ لله بمناسبة تماثل سميرة للشفاء، وقد أذنت لي سميرة بدعوة شريف وشَقيقته «منى» ومحمود وخطيبته.

ـ رائع، سنمضي وقتًا ممتعًا.

ـ وستتناول طعام الخالة حَسنات، مذاقُه كالخيال.

ـ إذًا.. سوف أطلب منها أن تعلّمك الطبخ، هههه..

ـ تريد أن تفضحني؟ ستخبر الجميع بأني لا أحسنُ الطبخ.

ـ سأطلب منها ذلك سرًّا.

ـ همّك على بطنك!

ـ لا، بالعكس، أنا مقلّ في الأكل، هذا طبعي منذ صغري؛ فاطمئنّي.

ـ أرحتني، آه، أشعر بنعاس.

ـ يبدو أنك نوّامة.

ـ كيف عرفت؟!

ـ عرفت وحسب، نوامة ولا تجيدين الطبخ، ورطتني يا قلبيَّ!

ـ أنا ورطة؟! يمكنك التخلّص من هذه الورطة، مازلنا على البرّ.

ـ أنت ربما مازلت على البرّ، أمّا أنا فإني أغرق، أغرق، أغرق..

ـ يكفي يا عندليب، هههههه.. تصبح على خير.

ـ لحظة.. لحظة.

ـ ماذا بعد؟ أنا نعسانة جدًّا.. جدًّا.

ـ وأنا ساخن جدًّا.. جدًّا.

ـ ساخن في عزّ الشتاء؟!

ـ تخيّلي!

ـ إذًا.. سأنهي المكالمة قبل أن تحترق، قمْ وخذْ حمّامًا باردًا، تصبح على خير.

وأنهت المكالمةَ بالفعل، أجدها أحيانًا صارمة ومتحفّظة جدًّا، ذلك يزيدني ولعًا بها..

في حفلِ العَشاء..

أعددتُ لحفل العشاء ترتيباتٍ دقيقة، اهتمَمْت بمظهري غاية الاهتمام، اشتريتُ باقات ورد للجميع، لحبيبي غسّان الذي حازَ المرتبة الثالثة، لشريف الذي حاز المرتبة الأولى، لمحمود الذي نجح بدرجةِ مقبول، لسميرة التي سيتمّ تكريمها ضمنَ حفل التخرج كأفضل باحثة.

قالت لي سميرة بأنّ رئيس الجامعة لن يشهر عقارَ هالة حتى يتمّ تسجيل براءة اختراعه، وتصنيعه بكميّات صالحة للتسويق.

في ليلة الحفل، ظننتُ بأني سأفاجأ الجميع بباقاتِ الورد وبمظهري اللّافت؛ لكنّ غسّان كان قد أعدّ لي مفاجأة أكبر.. تأخّر في الحضور حتى أصابني القلق، ثمّ جاء لحفل العشاء برفقة شابّة تكبرُه بأعوام، قدّمها لي قائلاً:

ـ أقدّم لك شقيقتي الغالية عالية.

جمدتُ لوهْلة ثمّ ابتسمت لها وصافحتْها قائلة:

ـ مرحبًا بك يا عالية، تشرّفت بلقائك، اسمك جميل مثلك.

قبلَ أن تردّ عالية عليّ، قال لها غسّان مشيرًا بيدِه نحوي:

ـ هذه هي كاميليا.

وأردف همسًا:

ـ التي حدّثتك عنها.

تشبّثت عالية بكفي، ومرّرت بصرَها عليّ من رأسي لأخمص قدمي، ثمّ انبعثت منها ابتسامة واسعة، قالت بنبرةٍ غامضة:

ـ مرحبًا، سعيدة برؤيتك يا كاميليا، حقًّا كما يقال «السمع ليس كالمشاهدة».

جلّلتني بنظرات فاحصة.. ارتبكت، شعرَ غسّان بذلك فجذبها نحو الداخل، قال بصوتٍ عال ممازحًا:

ـ مساء الخير، يبدو أنّي تأخّرت، هل أبقيتم لي شيئًا من الطعام؟!

حضر الحفل والدُ شريف، سررتُ بمعرفته.. المدهش أنّه مختلف عن شريف و «منى» تمامًا، ديناميكي.. مرح.. يحبّ المزاح، لا يمكن لَمن يراه إلّا أن يحبّه منذ الوهلة الأولى..

كانت أجواءُ الحفلة مُفْعمة بالسرور، جلس الشباب معًا في ردهة وسط البيت، جلست مع سميرة والفتيات في الشرفة، احتفتِ الخالة حَسنات بالجميع، أعدّت سفرة مكتظّة بأصناف شتى من الأطعمة الشرقية والغربية، وألوان من الحلويات.

أثناء انهماكِ الجميع في الأكل، لكزَتْني سميرة لأرى ماذا تفعل الخالة حَسنات، التفت فوجدتها مُنْسجمة في الحديث مع والد شريف وتضاحكه كالأطفال، همستْ لي سميرة:

ـ هل سيكون الخاطب الجديد؟

ـ يبدو هذه المرّة أنه يعجبها!

ردّت سميرة باندهاش:

ـ معقول.. ستتزوج في هذه السنّ؟!

ـ وماذا في ذلك؟ تبدو أكثر شبابًا وحيوية مني ومنك، ههههه..

ـ لا أدري ما الذي يعجبُ الرجال في امرأة سمينة، مغرمة بالطعام؟!

ـ وأنا لا أدري لماذا لم ترثي سرّ جاذبيتها؟!

ـ وهل اكتشفت ما هو فضلًا عن أنْ أرثه؟! لكنني أكادُ أجزم بأنها الكيمياء.

ـ وهل الكيمياء شيء لا يورث؟

ـ هذا سؤال يستحقّ البحث، يبدو أنها لا تورث. عمومًا الدنيا حظوظ يا كيمي، ههههه..

عندما سمعت سميرة تخاطبني باسْم الدّلع، ورأيتها تضحكْ من أعماق قلبها، ضمَمْتها لصدري بفرح، لقد ازدادَ يقيني بأنها شفيت تمامًا.

أمّا عالية فقد بدتْ كمخبر سرّي، علّقت عينيها بي طيلة السهرة، حاصرتني طوالَ الحفلة، جلستْ بجواري وطفقتْ تسألني عن أمورٍ شتى، تضايقت منها لوهلة ثمّ فكّرت بأنّ مجيء غسّان بشقيقته كي تراني، تصرّف يدلّ على أنه صادقٌ في حبّه لي، وأنه يسير بخطوات جادّة كي تصبح علاقتنا رسمية..

«ينبغي أن يسعدك هذا الأمر»، هكذا قالت لي شهيرة عندما عدتُ للبيت واتصلت بها لأخبرها بما حدث.

في الأيام التي تلتْ حفلَ العشاء في بيت الخالة حَسنات اكتسحني شعورُ حزنٍ غامض، تهرّبت من غسّان بقية الأسبوع، اخترعت أعذارًا كاذبة كي لا نلتقي، حتى جاءَ يوم حفلِ التخرّج، لا أدري لماذا عندما دخلت قصّة حبّنا مربعَ الجديّة، وبدأ غسّان يسير خطوات نحو الخطوبة والزواج انكمشَ شعوري تجاهه في زاوية قصيّة من قلبي، سيطرت عليّ المخاوف، غزت الأفكارُ السوداء عقلي، تلاشت بهجة الحب. غاب إحساس الرغبة اللّذيذ، اختفت كلّ تلك المشاعر والأحاسيس الجميلة تجاه غسّان في داخلي. اختبأت بعيدًا؛ كعصفور صغيرٍ شارد، مبلول الزّغب، يفرّ مرتعشًا خائفًا.. فزعًا.

حتّى متى هذا الكُمُونْ؟!

ذهبتُ إلى حفل التخرّج متأخرة، تعمّدت ذلك، جلستُ في الصفوف الخلفية، بعيدًا عن المنصة، كان الجميع سعداء، متفاعلين مع فقراتِ الحفل، كلّما علا صخبُهم، يعلو صوتُ هواجسي ومخاوفي، شعرتُ بأني غائبة، بأني عدمٌ متحرّك.

خيّم الحزن عليّ، غربة خانقة ملأتْ وجداني، لا أحد يراني، لا أحد يحاول النفاذَ إلى حقيقتي الكامنة، حتى غسّان عجزَ عن ذلك.

لم أستطع البقاءَ حتى انتهاءِ الحفل، خرجت من القاعة مهرولةً نحو الشارع، تركتُ سيارتي في «كراج» الجامعة وسرتُ على قدمي، مشيت لساعات دون غاية، سالت الدموعُ على خدي، عصفت حولي رياحٌ باردة، اعترتني قشعريرة شديدة، جلستُ على حافة طريق فرعي، نظرت في جميع الاتجاهات، رأيتُ عشاقًا كُثر يسيرون في هذا الشارع، أزواج من جميع الأعمار، بعضهم يلعب حولهما طفل أو اثنان، أو أكثر، قلتُ في نفسي:

ـ أنا أيضًا أريد أن أكوّن أسرة، زوجًا وأطفالًا، عشًّا هادئًا مفعمًا بالحب والأمان، ليس لي ذنب فيما حدث، خرجت للدنيا كائنًا مموّهًا، ظنّت القابلة بأني ولدٌ ذكرٌ، فرح بي والدي وسمّاني باسم أبيه «كمال».

عندما بلغت السادسةَ من عمري كنت أستمتعُ بارتداء ملابس أختي شهيرة.

قالت جدّتي ذات يوم:

ـ هذا الولد سيفسد لأنّه الوحيد بين أخواته، إنه يتصرّف مثل البنات.

كبرتُ وصرتُ في الخامسة عشر من عمري، سمعتُ مَن يهمس حولي: هذا الشاب ناعمٌ جدًّا، يبدو كالفتيات.

سألني أبي عن أمورٍ يجب أن تحدثَ لي في هذه السن؛ فأجبته بالنفي.

ذهبَ بي والدي إلى الطبيب، الذي أعطاني هرمون ذكورة، أنبتَ لي شاربًا خفيفًا، لكني كنت أشعرُ في أعماقي بأنني أنثى، ذهبَ بي والدي إلى طبيب آخر، ظهرت على يديه الحقيقة الكاملة، أنا مشكّل، أنثى وذكر، أباح لي خالقي حقّ تحديد هويتي، لكني انتظرت برهانًا أقوى، جاء ذلك البرهانُ في أول سنة لي في الجامعة، لقد حضْتُ، قال لي الطبيب يومَها:

ـ الآن أنت أنثى كاملة، تستطيعين أن تصبحي أمًّا.

أنا أنثى، ولست ذكرًا، ما هي المشكلة، أنا كاميليا ولست كمال، ما هو الفرق؟

أنا إنسان، خلقُ الله، أحبّ إلهي وأحترمُ إرادته الكونية، شاءَ الربّ أن يخلقني بهذه الهيئة لحكمة أجهلها..

أنا مشكّل؛ ويوجد لمثلي في شريعة السّماء مخرجٌ؛ لكن ما هي الحيلة في تقاليد وعادات أهل الأرض؟!

ربّاه ساعدني؛ إنّني أتعذّب لدرجة الرّغبة في الموت، حبي لغسّان يشعرني بأنوثتي بقوة، وخوفي من فقدِه يقتلني ببطء، لا يمكنني أن أحتملَ أكثر مِن هذا، يجب أن أضعَ نهاية لكلّ هذا العذاب.

ورقةٌ من مذكّرات غسّان..

لماذا تتصرّف معي حبيبتي بغرابة؟!

لقد تغيّرت معاملة كاميليا لي في الآونة الأخيرة، ترى هل سمعت عني شيئًا جعلها تبتعد عني وتكرهني؟.. هل ستتخلّى عني، ستهجرني؟!

ما أقسى هذا الشعور! سبق وأن هجرتُ فتيات عدّة، فعلت ذلك بلا مبالاة، كم كنت قاسيًا، عندما يخفتُ شعوري تجاه الفتاة أبدأ بالتهرّب منها، ثمّ أتخلى عنها دون أدنى شعور بوخز ضمير. كاميليا تفعلُ معي ذات الشيء هذه الأيام، هل يعاقبني الله؟!

لم أرَها في حفل تخرجي، قال لي محمود بأنّها أتت متأخّرة، وجلست في الصفوف الخلفية، لم تنتظرْ حتى تهنئني، حتى تتعرّف على أهلي، ما بها تتهرّب مني، وتبقي جوالها مغلقًا معظم الوقت!

كتبتُ لها رسالة معاتبة قاسية، قلت لها:

ـ من حقّك أن تقرّري الاختلاء بنفسك لأسباب أجهلها، لكن ليسَ مِن حقك أن تعتبريني مفردةً هامشية في حياتك، أخبريني ما الذي يحدث معك؟!

قرأتْ كاميليا رسالتي، وردّت عليها في اليوم التالي:

ـ المشكلة أنك لستَ مجرد مفردة من مفردات حياتي؛ بل أنت حياتي كلّها.

إجابتها أسعدتني لكنّها زادتني حيرة.. ماذا تعني بقولها «مشكلة»؟!

طلبتُ أن أراها، قلتُ لها:

ـ سوف أنتظرك غدًا في مقهى سرور، إذا لم تأتِ فلن أسامحك، وسأعتبر نفسي بالفعل مفردة هامشية في حياتك.

ذهبتُ إلى المقهى قبل الموعدِ بساعة، جلستُ على ذات الطاولة، وفي ذاتِ الزاوية التي اكتشفت فيها بأنّ روحَ الحياة هي ذاتها كاميليا. امتدّ الزمن في شعوري وأنا أنتظرُ مجيء كاميليا، تشاغلت بمراجعة سطورٍ من أجندتي الحمراء، مرّت ساعتان وكاميليا لم تحضر، حين هممتُ بالمغادرة جاءت تمشي بخطًى متعثّرة، تعلو وجهها خطوطُ أرقٍ وسُهاد، عيناها متورّمة من البكاء، جلست أمامي بهدوءٍ دون أن تنطق، لفّنا الصمت لبرهة، أهويت بأجندتي على الطاولة، وقلتُ بغضب:

ـ ما الذي يحدث؟ أنا لا أستوعبُ ما تفعلينه بي وبنفسك، كنّا على بعدِ خطوةٍ من تتويج حبّنا بإكليل رباط مقدّس، ودخول مملكة الزواج، كنت أتهيأ لأجعلك ملكتي إلى الأبد، لماذا تهربين مني؟!

لم تستطع أن تضعَ عينيها في عيني، قالت وهي تشيحُ بوجهها عني:

ـ لا أدري ماذا أقول لك يا غسّان؟ جئت فقط لتوديعك!

ـ توديعي! ماذا تقصدين؟!

ـ سوف أسافر إلى برلين، طائرتي ستقلعُ بعد ساعة.

ـ تسافرين!؟ هكذا.. ودونَ أن تُعلميني، تريدين القول بأني لا أعني لك شيئًا؟!

ـ كيف ترجمتَ سفري على هذا النحو؟!

ـ وبماذا تريدينني أن أترجمه؟! أنت تتجنّبين رؤيتي والكلام معي لأكثر من أسبوع، ثمّ تقررين السفر فجأة دون أن تعلميني، ما بك يا كاميليا! هل فعلت شيئًا جعلك تنفرين مني؟! هل ضايقتك؟!

ـ لا، بالعكس، لقد كنت لطيفًا معي طوال الوقت.

ـ إذًا.. أين الخطأ؟!

ـ الخطأ عندي، الخللُ يكْمن فيّ أنا وليس فيك.

ـ ما هذه الألغاز؟ أنا لا أفهمك!

ـ غسّان، أنا متعبة نفسيًّا.

ـ لماذا؟!

ـ مررْنا بظروف عصيبة، تعرّضت لضغط شديد، مرض سميرة، ومقتل هالة، خسرت وظيفتي، دنو سميرة من حافة الهلاك، تحدّي تركيب العقار وتجربته عليها، لقد تعبت، أشعر أني بحاجة لإجازة، وكذلك اشتقتُ لأمي ولأبي، ولشهيرة..

ـ هل هذا هو السبب الحقيقي؟!

ـ وثمّة سبب آخر.

ـ ما هو؟

ـ أريد حضورَ حفل خطوبة شهيرة على شريف.

ـ كيف، أين، متى؟

ـ سوف أسافر بصحبة شريف ووالده، الذي سيحضر معرضًا لأجهزة مختبرات حديثة في برلين، انتهز شريف هذه الفرصة ليتقدّم لخطبة شهيرة، هو لا يريد الانتظار أكثر من ذلك.

ـ الخبيث! لم يخبرني بشيء!

ـ بالأمس فقط قرّر والدُه السفر.

ـ وماذا عنّا؟ أنا وأنت، كنت أرغب في أن تتمّ خطوبتنا في ذات اليوم الذي ستتمّ فيه خطوبة شريف وشهيرة.

سكتتْ كاميليا ولم تجبني، أطرقت برأسِها، بدتْ واهنة.. شاردة.. قلقة!

لم أقتنعْ بأيّة حُجّة قالتها، هجستُ وأنا أتأملها:

ماذا تخفين عني يا حبيبتي، لم تعذبينني وتعذبين نفسك بهذا الغموض والكتمان؟!

شعرتُ بنوبة غضب تتصاعد إلى رأسي، مسحتُ وجهي بكفي، تنفست بعمق.. كظمتُ غيظي والتزمتُ الصمت، في تلك اللحظة رنّ جوّالها، تنبّهت من شرودها قائلة:

ـ لا بدّ أنه شريف، يريدُ اصطحابي معهم للمطار.

دسّت يدَها في تلك الحقيبة الضخمة بحثًا عنه، ثمّ:

ـ يا إلهي، أين الجوّال؟ بتّ أكره هذه الحقيبة.

نثرتُ جميع محتويات الحقيبة بحثًا عن الجوّال، هذه المرّة وجدته قبل أن يسكت، كان شريف هو المتّصل كما توقّعت كاميليا، قالت له بنبرةٍ حزينة:

ـ أنا في مقهى سرور.. أجل، غسّان معي، حقيبة سفري في مؤخّرة سيارتك منذ ليلة البارحة، اطمئنّ أنا جاهزة، جواز سفري معي، سأنتظرك أمامَ المقهى.. حسنًا.

أنهتِ المكالمة وطفقت تلملمُ أشياءها المُبعثرة على الطاولة بتعجّل، قالت وهي تتجنّب النظر في عيني:

ـ ستقلع الطائرة بعد نصفِ ساعة، شريف في طريقه إليّ.

أمسكت بيدِها ثمّ:

ـ ستعودين؟

ـ قد أتأخّر، فهل ستنتظرني؟

ـ سأنتظرك العمرَ كلّه.

ـ هذا وعد؟

ـ بل عهد.

رفعت كفّها نحو فمي لأطبع عليه قبلة.. انتزعتْها برفق ومضتْ من أمامي باكية!

في تلك اللحظة، رنّ جوّالي، نظرت فإذا به شريف، هل سيعتذر؟ لا يهمّ، لم أجبه، تتبّعتها بمآق ممتلئة بالدموع، رأيتها تبتعدُ ببطء، تتلاشى مثلَ طيفٍ عابر، شعرت بانقباض شديدٍ بعدما غابت.. إحساسٌ بغيض انبعثَ في أعماقي يقول لي:

لماذا تركتها ترحل؟ قد لا تراها بعد هذا اليوم!

كاميليا في برلين...

عندما وصلتُ إلى مطار برلين، كان ثمّة مفاجأة غير متوقّعة في انتظاري، رأيت شقيقتيّ نورهان وميار تقفان إلى جانب أبي وأمي وشهيرة، يبدو أنهما جاءتا لحضور حفلِ خطوبة شهيرة، كان جميعُهم في انتظار وصولي إلى صالة الاستقبال، لم نَجتمع هكذا منذ عامين!

استرجعت في هذه اللّحظة آخر لقاء ضمّنا، حين استخرجت أوراقَ هويتي الجديدة، يومها عدتُ للمنزل برفقة أبي وأمي، وجدنا الزينة والورود تملأ أركانَ البيت، أعدّت شقيقاتي احتفالًا عائليًّا بمناسبة مولدي الجديد.

يومَها قالت لي نورهان:

ـ عيد ميلاد سعيد يا كاميليا.

أضافت ميار:

ـ اليوم هو تاريخُ ميلادك الحقيقي، تذكّريه جيدًا، واحتفلي به في كلّ عام.

خرجتْ شهيرة من المطبخ، وهي تحمل قالبَ حلوى كبير، قالت:

ـ أعددتُ ألذّ قالب حلوى لأجْمل بنوتة في العالم.

وقتَها لم أستطع حجزَ نفسي عن البكاء، ظنّوا بأنها دموع الفرح؛ لكنها في الحقيقة لم تكنْ كذلك، كانت دموع الفزع، الخوف من المستقبل.

وها هي الدنيا اليومَ تحتفل بي على طريقتها الخاصة، ودّعت حبيبي غسّان وداعًا حزينًا، قد يكون الوداع الأخير. لم أملك الشجاعة الكافية لإخباره، قرّرت الهروب، ستمرّ الأيام وسينساني، قد يعتبرني خائنة، لا يهمّ، لا بدّ أنه سيكرهني.. هذا هو المطلوب، أريدُه أن يكرهني ويخرجني من قلبِه، ويبدأ قصة حبّ جديدة مع فتاة أخرى، يتزوّج وينجب أبناء، يعيش حياة سعيدة مثل جميعِ أقرانه.

ما إنِ اجتزت بوابة صالة الاستقبال حتى ركضتْ نورهان نحوي وعانقتني طويلًا، جذبتني ميار مِن بين يديها قائلة:

ـ هذا يكفي، جاء دوري.

قبّلتني ميار على جبيني، كما تحبّ أن تفعل دومًا، التفت لأرى أبي وأمي قائميْن ينتظران دورهما وينظران لي بحبّ، والدموع تملأ مآقيهم، ارتميتُ على صدر أبي وبكيت، بكيت طويلًا حتى شعر جميعُهم بالقلق، ربتتْ شهيرة على كتفي قائلة:

ـ ما بك يا كاميليا!؟ كفى، لقد كبرت على هذا الدّلال، هيّا، ألن تعانقيني؟!

كفكفتُ دموعي وعانقتُها، همست لي:

ـ ما بك.. ما الذي حدث؟!

همستُ في أذنها:

ـ سأخبرك لاحقًا.

حدثَ كلّ هذا وشريف ووالده واقفان ينتظران أن تنتهي مراسيم استقبالي المحمومة.

أصرّ والدي أن يمضي شريف ووالده إجازتهما عندنا، قال لهما:

ـ اطمئنّا.. لن تثقلا علينا، يوجد في بيتنا ملحقٌ مخصّص لاستقبال ضيوف العائلة.

انفرجتْ أسارير شريف ابتهاجًا بهذا العرض، أطرقت شهيرة خجلًا، وهي ترى وجهَه يتلألأ حبًّا وسرورًا.

عندما وصلنا إلى البيت كانت الشمس تؤذنُ بالمغيب، تناولنا طعامَ العشاء سويًّا، جلسنا نتجاذب أطرافَ الحديث ساعة بعد العشاء، شعرتُ بحاجة ملحّة للنوم، استأذنتهم وصعدتُ إلى حجرتي، وجدت كلّ شيء فيها كما تركته، حتى ملابس كمال، وأحذيته الجلدية، مازالت أمي مُحتفظة بها.

ارتميتُ على سريري وشعورُ ألمٍ طاغ يمزقني، فراغٌ يسري في جوفي، يحيلني ممرّ رياح، لأول مرّة أحسّ بالغربة في بيتنا، يبدو أنني تركتُ روحي هناك عند غسّان، وعدت لهم جثمانًا متحركًا.

في الصباح، تواردتِ الأخبار السّارة على مسامعي تترا، جميعُ شقيقاتي سيتزوّجن خلال هذا العام.

تقدّم لخطبة نورهان سفيرُ بلادنا في السويد، توفّيت زوجته منذ بضعة أشهر بحادث سير، وتركت له ولدًا في سنّ المراهقة وبنتًا في التاسعة من العمر، أضحتْ نورهان صديقة مقرّبة لعائلة السفير بعد انتقالها للعمل في سفارة بلدنا في السويد، مكانتُه كدبلوماسي تستلزم أن يكون له زوجة في مستوى ثقافة وتهذيب نورهان، الجميلُ في الأمر أن أبناءَه يألفونها ويحبونها؛ لذلك قبلوا بسهولة حلولَها مكان أمّهم المتوفّاة، عندما أرتني نورهان صورًا للأسرة التي ستعيش بينها، كانت تشير للأبناء معظمَ الوقت، وتتحدّث عنهما بحبّ وإعجاب، لم تحدّثني كثيرًا عن السفير، كان كلّ كلامِها يدور حول أبنائه.. أمعنتُ النّظر في صورة السفير، ثمّ قلت لها:

ـ أليس كبيرًا عليك!؟ يبدو قريبًا في السنّ من أبينا!

ـ صحيح، لكنه حنونٌ ولطيف ومهذّب، لا تنسي يا كاميليا بأنني كبيرة أيضًا، تأخّرت في الزواج كثيرًا، قد لا أنجب، هو الاختيار الأمثل لي، أحبّ أبناءه وهُم يبادلونني كلّ الحب،

ـ فهمتك، وهو؟

ـ هو أيضًا يحبّني.

ـ وماذا عنك، هل أحببته؟

ـ هو شخص يستحقّ الحبّ.

ـ لا أريد إجابة دبلوماسية، أتحبّينه أم لا؟

ـ أستطيع أن أحبّه.

ـ ما معني قولك أستطيع أنْ أحبّه، هل أحببته أم لا؟!

ـ ولماذا لا أحبّه؟!

ـ لم تعطيني إجابة مفيدة، ما بالك؟!

ضاقت نورهان بأسئلتي ذرعًا. خرجت من حجرتي ممْتعضة، مضتْ نحو حجرة أمّنا متعمّدة الابتعاد عني.

لا أفهمُ طريقتها في الحبّ، يبدو كأنّ الحب عندها قرارٌ تتّخذه حينما تريد، زرٌّ تضغط عليه فيعمل، كيف يحدث هذا؟!

الحبّ عندي مختلف، ليس له زرّ للتشغيل وزرّ للإنهاء، لا أختزله في

احتياج واحد، في لون واحد، في كلمةٍ واحدة، الحبّ عندي كقوس قزح بألوانه البديعة، إن غاب لونٌ فلا يعود قوسُ قزح هو قوس قزح، ألوانُ الحبّ متعدّدة وكلّ لون يكمل الآخر، هو اهتمام.. عناية.. احترام.. تقدير.. إخلاص.. إعجاب.. تطمين.. تصديق، الحبّ هو كلّ ذلك.

ميار أيضًا يبدو أنّه ليس لديها أية فلسفة للحبّ، سوف تتزوّج بسكرتيرها الخاص «رشيد».. شابّ مُعدم، ومِن أسرة فقيرة، حصل على وظيفة سكرتيرها الخاص، بعد المقابلة الشخصية التي أشرفت عليها ميارُ بنفسها!

سألتها:

ـ هل أثار إعجابَك منذ الوهلة الأولى؟

ـ هذا هو ما حدث بالفعل، لذا قمتُ بمنحه الوظيفة رغم وجود مَن هو أكفأ منه بين المتقدّمين.

ـ قولي لي، ما الذي أعجبك فيه؟!

ـ بصراحة، طيبته الزائدة، شعرت بأنه سيكون زوجًا سلسَ التعامل، أنا شخصية حادة، وشخصٌ مثله يمكنه احتمال عصبيتي عندما تتفجّر، هههههه..

في الواقع، ميارُ تريد أن تبقى مسيطرة دومًا، ولهذا اختارته، هيأت له الظروف ليحبّها ثمّ أومأت له ليتقدّم لخطبتها، هي تحبّ أن تبقي زمام

الأمور بيدِها، تفكر وتدير حياتها بطريقة أصحاب رؤوس الأموال، حتى في الحبّ والزواج!

منذ وصولي إلى برلين، وأنا منشغلة مع أمي في إعداد ترتيبات الاحتفال بخطوبة شقيقاتي الثلاث، قرّر الجميع إقامةَ احتفال كبير في حديقة منزلنا الواسعة.. يريدون الفرح بصخب!

في خضم كلّ ذلك، تركت- جانبًا- التفكير في مشكلتي الخاصة، ووضعي المعلّق مع غسّان، حتى أني لم أكترثْ بأنه لم يحاول أن يتّصل بي، أو يرسل لي رسالة ليطمئنّ على وصولي إلى برلين سالمة!

في صباح يوم الاحتفال، اتّصل السفير وطلب تأجيل موعدِ تقدّمه لخطبة نورهان، بسبب عملٍ طارئ، قال لأبي معتذرًا:

ـ أنا في غاية الحرج منكم يا عمّ؛ لكنني أتوقّع أن تتفهّم موقفي، إنها مهامُّ دولة، كنت قد اقترحت على نورهان أن نتزوّج مباشرة في حفل بسيط، لا حاجة للخطوبة، برنامجي مزدحم جدًّا، ما رأيك يا عمّ؟

تفهّم أبي وضع السفير وقبل اعتذارَه، امتعضت نورهان لبرهة ثمّ تظاهرت بتقبّلها للموقف، لكن أمي غضبت جدًّا، انهالت على نورهان بعباراتِ لومٍ قاسية:

ـ أضعتِ شبابك لهثًا وراء منصب سفيرة، وماذا كانت النتيجة؟ لاشيء، لست أكثر من موظفة عادية في السفارة، حتى الحياة الأسرية المستقرّة لن تحصلي عليها، حرمت نفسك من الأمومة، واليوم ستقومين بدور مربّية لأبناء السفير الذي اتّصل ليؤجّل موعد الخطبة بكلّ بساطة، كأنه يؤجل موعدَ زيارة لصديق!

ابتسمتْ نورهان بتصنّع ودبلوماسية حسدتُها عليها، لو كنت مكانَها وسمعت مثل هذا الكلام من أمي؛ فسوف أبكي فورًا.

قالت لأمي بكلّ هدوء:

ـ لماذا أنت مُنفعلة، وغاضبة؟ أنا أعيش اختياراتي بكلّ رضا، لم أخسر شيئًا.. سأحصل على الأسرة التي أحبّ دون بذل جهودٍ خارقة، هل يجب أن أنجب لأشعر بالأمومة؟! أنا أحسّ بأن أبناء «مقداد» أبنائي، وسوف أناضل حتى أغدو سفيرة.. اطمئني.

شعرتْ أمي بالحرج لأنّها قالت تلك العبارات القاسية لنورهان، أمّي تعامل نورهان دومًا باحترام بالغ، كانت هذه هي المرّة الأولى التي تُحطّم فيها جدار الاحترام، وتكيل لها الإهانات، تدخّل أبي قائلًا:

ـ يبدو أن الجميع متوتّر، أمّكم تبذل جهودًا غير عادية، وتستعدّ لمناسبة كانت تنتظرها بلهفة منذ سنوات، اعذريها يا نورهان، كانت تريدُها فرحةً كاملة، هيّا يا أمّ العرائس انشرحي وابتهجي، هذا يوم

فرحة انتظرناه طويلًا، وماذا إن تأخّرت خطوبة نورهان، قد تتزوّج قبل شهيرة وميار.

قالت شهيرة:

ـ لا، شريف مستعجل..!

التفتَ جميعُنا نحوها، شعرت شهيرة بالخجل وأطرقت برأسها، ضحك الجميعُ وعاد المرح يملأ المكان، تقدّمت أمي نحو نورهان واحتضنتْها قائلة:

ـ أنا آسفة يا حبيبتي، قسوتُ عليك، شعرت بأنه أفسدَ فرحتك باعتذاره، صببت كلّ غضبي منه فوق رأسك.

ـ لا عليك يا أطيب وأرْوع الأمهات، أنا مقدّرة لشعورك، ملأت حياتك بالقلق عليّ، أنا مَن يجب أن يعتذر.

ضقتُ ذرعًا بهنّ.. وصحتُ:

ـ هذا يكفي، سأبدأ بالانتحاب وأفسدُ المكياج الذي وضعته لي شهيرة!

التفتَ جميعهم نحوي، تلقّيت منهم تعليقات شتى، إنّها المرّة الأولى التي أقبلُ فيها بتلطيخ وجهي بمكياج ثقيل!

كانت تلك لحظات بوحٍ نادرة بين أمّي ونورهان، رغم صعوبتها إلّا أن الجميع شعرَ بالراحة والتحرّر من الكبت. بعدها، سار كلّ شيء على خير ما يُرام، تتابعت فقراتُ الحفل ممتعة مُبهجة، ملأت الفرحة قلبي وأنا أرى رشيد وشريف يُلبسان كلًّا من ميار وشهيرة خواتم الخطوبة، اكتظّت حديقة منزلنا بالضيوف، جاء أناس كُثر لم أكنْ أعرفهم من قبل، يبدو أنّ علاقات والديّ اتسعتْ كثيرًا في الآونة الأخيرة.

تناول الضيوف وجبةَ الغداء في «البوفيه» المفتوح، عزفت الفرقة الموسيقية الأغاني العربية والأجنبية، تخيّلت لوهلةٍ بأني أقف بجوار ميار وشهيرة، وغسّان يُلبسني خاتم الخطوبة، شعرت بنشوةٍ عارمة تكتسحني من مجرّد الخيال، ماذا إنْ حدث ذلك بالفعل؟!

انتهى حفلُ الخطوبة عند غروب الشمس، غادر الضيوف المنزل تباعًا، ذهبت كلّ من شهيرة وميار برفقة رشيد وشريف للسّهر وتناول العشاء خارج البيت.. أردوا اصطحاب الجميع، اعتذرتُ أنا ونورهان عن الذّهاب معهم، اعتذر أبي أيضًا، لديه عملٌ هامّ في الصباح الباكر، ذهب برفقتهم والدُ شريف وأمّي.

الأجندةُ الحمراء..

بعد أن تفرّق الجميع، وذهب كلّ إلى مقصده، صعدتُ إلى حجرة نومي، استبدلتُ ملابس الحفل بملابس النوم، أخيرًا سوف أهنأ بساعاتِ راحة وهدوء، لا أحبّ أن يشغل الناس مساحات حياتي بتلك الطريقة التي تعيش بها أمي وشقيقاتي، أحبّ الاختلاءَ بنفسي معظم الوقت، هذه سمةٌ ورثتها من أبي، لم أكتب شيئًا منذ جئت إلى برلين، فتّشت بين أشيائي عن أجندتي الحمراء، هل أكتب نهايةً حزينة لقصة حبّنا أنا وغسّان!!

لا. لن أكتب نهايةً لقصة حبّنا، هي لم تنتَهِ بعد، سوف أكتب جميعَ ما مرّ بي من أحداث منذ وصلت إلى برلين. مازلت أتذكّر يوم قال لي غسّان: اجعلي نهاية الرواية سعيدة..

أردتُ حينها أن أقول له: النهاية السعيدة متوقّفة عليك، أنت مَن يمكنه أن يجعلها سعيدة! لماذا لم يحاولْ غسّان الاتصالَ بي ولو لمرّة واحدة؟! ألأنّني فاجأته بقرار السفر!؟ كم هو متسلّط وقاس!

منذ يومين لم أفتح جوّالي، انشغلت للغاية بحفل خطوبة شقيقاتي، تُرى هل كتب لي غسّان رسالة؟! كنتُ حالَ وصولي إلى برلين أفتحه كلّ

ساعة؛ لأرى إن كان قد كتبَ لي شيئًا؛ فلا أجد سوى الصمت، فكففتُ عن انتظار رسالة منه.

أين جوّالي، متى أكفّ عن عادة رمْيه في أي مكان من المنزل ونسيانه! لعلّ غسّان حطّم حاجز الصمت وكتب لي شيئًا، سأتّصل بجوالي من هاتفنا الثابت لأحدّد مكانه، تعالت رنّته من داخل الدولاب... أوه مَن حبسَه هناك؟!

أخرجتُه من فوري، فتحت خانة الدردشة بتلهّف.. وجدت غسّان قد كتبَ لي الكثير؛ قرأتُ أول عبارة:

ـ عزيزتي كاميليا..

لم تعجبني، لماذا «عزيزتي».. ألم أعدْ حبيبته؟!

أكملت قراءة الرسالة بتوجّس:

ـ ربّما أنك تستغربين صمتي المُطبق على مدى الأيام الماضية؛ فأنت لم تعتادي مني على ذلك!

بالفعل أنا لم أعتدْ على ذلك منه، كنت أتشاغلُ عن قلقي وهواجسي بالثرثرة مع شقيقاتي، وبالانهماك مع أمّي في إعداد ترتيبات الحفل..

عدتُ لقراءة بقيّة رسالته التي تبدو طويلة:

ـ كنت في حالةِ صدمة، أحسستُ بأن شللًا أصاب مكمنَ شعوري، بقيت لأيامٍ في ذهول، لماذا فعلت بي هذا يا كاميليا؟! لماذا دمّرت حياتي

بهذه القسوة والوحشية، لقد سرقت سعادتي حين سرقت أحبّ الناس إلى قلبي، اختزلت جميع أحبّتي في شخصية ملفّقة، مشوهة، لماذا ظهرت في حياتي؟!

ماذا يقصد بقوله هذا، هل عرف الحقيقة؟ كيف!! مَن الذي أخبره؟

عدتُ ببصري لمتابعة كلماته، ودقّات قلبي تتعالى بشدّة...

ـ في البدء لم أصدق، قلت لنفسي: لا بدّ أن ما قرأته لا يعدو كونه حبكة درامية لرواياتك، ركضت إلى سميرة وتوسّلت لها بأن تخبرني الحقيقة، قالت لي ببرودتها المعهودة:

ـ كشفت لي كاميليا حقيقتَها قبل أن تسافر بأيام. كانت تطلب مشورتي في أنْ تخبرك أو لا تخبرك، لقد ذهلت، مَن يمكنُه تصديق أنّ هذه الفتاة الناعمة الفاتنة كانت شابًّا؟! عمومًا.. لقد أوصيتُها بأن تكشف لك الحقيقة كاملة وتدعَ لك الخيار.

توقّفت عن إتمام قراءة رسالة غسّان، وأنا مندهشة ومرتبكة جدًّا، فكّرت قليلًا، هززتُ رأسي:

ـ هل أنا في حلم؟!

تركت الجوّال جانبًا، تحرّكت لأبحث عن أجندتي، وجدتها وسطَ ملابسي حيث خبأتها ليلة وصولي، فتحتها لأصعق بالحقيقة، صحتُ بفزع:

ـ هذه ليستْ أجندتي، إنه خطّ غسّان، إنها أجندة مذكراته، كيف وصلتْ إلي؟ وأين هي أجندتي؟!

رميت بأجندة غسّان جانبًا، وعدتُ لإتمام قراءة رسالته...

ـ ليتني يا كاميليا لم أطلبْ لقاءك في ذلك اليوم؛ فعندما أفرغت محتويات حقيبتك بحثًا عن جوّالك سقطت أجندتك الحمراء على الأرض، تناولتها ووضعتها على الطاولة بجوار أجندتي، بعد أن انتهيتُ من الكلام مع شريف جمعت أشياءك بعجل، أخذت أجندتي وتركت أجندتك على الطاولة، عدتُ للمنزل وأنا غاضب جدًّا من قرار سفرك المباغت، فتحت الأجندة لأفرغ فيها مكنونَ نفسي، وهنا انقلبت دنياي رأسًا على عقب، اكتشفت بأنّ صديقي الحميم كمال اختفى من الوجود، وتلاشى من حياتي للأبد. وأنّ الذي أكلمه كلّ ليلة على أنّه كمال ليس إلّا أنتِ، وكاميليا التي عشقتها هي ذاتها صديقي كمال!!

لم أستطع استيعاب الأمر، كيف أعشق وأتزوّج مَن كان صديقي يومًا ما؟! ثمَّ لا يمكنني أن أسامحك على تلاعُبك بي لسنوات..

اعذريني يا كاميليا، لقد عاهدتك على أن أنتظرك قبل أن أعرف الحقيقة؛ لكنني لن أستطيع الوفاءَ بعهدي هذا. عندما تعودين، لن تجديني، سأكون قد سافرت إلى كندا لإكمال دراساتي العليا..

لقد بذلت جهدًا كبيرًا كي أنسى روحَ الحياة، وأتقبّل أن تحلّ كاميليا محلّها في قلبي وفي حياتي، لا أدري كمْ سأحتاج من الزمن لأنسى كمال،

وأتقبّل غيابه الأبدي عن حياتي، وأستوعبَ أن تكوني أنتِ هو، وهو أنتِ؛ لكن بأدوارٍ مختلفة!

اعذريني يا كاميليا، مازلتِ حبيبتي لكني لا أستطيع أن أغفرَ لك ما فعلتِه بي..

انتهيتُ من قراءة رسالة غسّان غير مصدّقة ما حدث، بقيت متشبّثة بجوّالي، متخشبة في مكاني، كانت دموعي تنهمرُ على خدودي دونَ انقطاع، بكيتُ ساعة بصمتٍ قبل أن أبدأ بالصراخ والعويل.. سمعتني شقيقتي نورهان، التي بقيتْ ساهرة في حجرة نومها الملاصقة لحجرتي تُكلّم «مقداد» عبر الجوّال، أفزعها صراخي فركضتْ مهرولة نحوي، دخلت الحجرة لتجدني ملقاةً على الأرض بجوار سريري أنتحبُ بشدّة، صاحت:

ـ كاميليا، ما بك يا حبيبتي!؟ ما الذي أصابك! هل أنت مريضة؟ ما الذي يؤلمك؟!

ارتميتُ على صدرها.. نظرتْ في عينيها، لم أقوَ على الكلام، ماذا عساي أن أقولَ لها؟! بقيت أبكي بين أحضانها، حتى انقطع صوتي..

قامت نورهان فَزِعة، هرولت إلى الدور السفلي، نحو حجرة نوم أبي، أتتْ به على الفور، عندما رآني أبي على تلك الحالة، حملَني بين يديه، وذهبا بي إلى مستشفى قريب..

سطوةُ الغضب..

في المستشفى، حقنني الطبيب بدواءٍ مهدّئ، نمت على إثره حتى الصباح. عندما أفقتُ وجدت الجميع قيامًا حول سريري، وحدَها أمي جلست إلى جواري على حافة السرير.. رأيتهم خائفين عليّ، يحيطونني بنظراتِ قلقٍ وإشفاق، تذكّرت من فوري ما حدث لي وعاودت البكاء، ضمّتني أمّي إليها، قالت بصوتٍ مُتحشرج بالبكاء:

ـ ما الذي أصابك يا حبيبتي؟!

قال أبي بوجَل:

ـ أخبرينا يا ابنتي ما الذي حدث لك؟

أردفت ميار:

ـ تركناك بأحسنِ حالٍ، ما الذي جرى يا كاميليا؟ أخبرينا...

مسحتُ بنظراتي وجوهَ الجميع، رأيت هلعًا يلوح على وجوههم، عدتُ بذاكرتي إلى اليوم الذي انهارت فيه سميرة.. فزعت.. توثّبت جالسةً على سريري، حدّثت نفسي سرًّا: لا، لن أسمح بحدوث ذلك، لن تنهاري يا كاميليا!

شعرتُ بقوة داخلية تنبعث بين جوانحي، هجستُ بإصرار: لنْ تتكرّر مأساة سميرة معي..

هكذا قرّرت، أنا لا أستحقّ أن يحدث لي شيء كهذا، لقد مررتُ بما هو أسوأ، وبقيت مُتماسكة، لن أنكسرَ بسببه، لماذا يرمي غسّان باللائمة عليّ؟! لماذا لم يقدّر وضعي؟ لماذا لم يتحرّك إحساسُ الرحمة لي في قلبه؟ هو لا يتقن فنّ الرحمة، كم هم قاسٍ! حبٌّ وقسوة، كيف اجتمعا في قلبه؟!! هو ليس جديرًا بحبّي، سوف أجفّف منابع حبّه في قلبي..

إنْ كانت نورهان تستطيع أن تضغط على زرّ الحبّ فتحبّ، فأنا أيضًا سوف أضغط على زرّ الكراهية وأكرهه.. لن أسمح لأحد بتحطيمي..

كفكفتُ دموعي وجلست مستويةً على السرير، ابتسمتُ للجميع، ارتسمت على وجوههم علامات تعجّب، ظهرَ سرورٌ وجِلٌ على سيماهم، قلت لهم:

ـ اطمئنوا.. أنا بخير الآن، لا داع للقلق، أصابني مغصٌ شديد، ربّما أن الحصاة التي في كليتي قد تحرّكت، أنا المَلومة؛ لأني لم أصغِ لنصح أمي عندما قالت لي: ارتدي معطفًا؛ الجو باردٌ يا ابنتي.

قلتُ لهم ذلك وضحكت، حينها ضحكَ جميعهم وانْهال عليّ أبي وأمي وشقيقاتي بالقُبلات والأحضان. رغم أنها كانت ضحكةً مُصطنعة إلّا أنها أحدثت أثرًا في نفسي.

لقد قرّرت الاستعلاءَ على وجعي، والتّسامي فوق الألم، معايشتي لتجربة سميرة كانت الدافع الذي جعلني أرفض الانكسار. بدأ شعورٌ بالغضب يولد في أعماقي، امتلأت بالجمود تجاه غسّان، وأخذ وجداني يتصحّر، اكتشفتُ بأن شعور الغضب يقوي الإرادة، وأنّ العاطفة الجياشة تضعفها، بقيتُ مأسورةً في تنّور الغضب لأيام، احترقت الدموع، وتحجّرت العبرات.. استعصى الحزنُ على الوجدان، تمرّد وانزوى في بقعة قصيّة.. زحف رمادٌ يغلف الأعماق، سمومُ الغضب تعصف كإعصار، يثير الرماد؛ فيصبغ النفسَ بسواد كئيب.. يتصاعدُ بركان رفض كدوّامة من أقصى القلب.. تلك المضغة العجيبة تحجّرت، وعجزت عن منح الإذْن للأعين بالانْهمار، الأحداق تحمرّ متوهّمة بأنها بكت، ثمّ تتورّم! تنكسر الأجفان، يرقص بؤبؤ العين أمام أمواج الدموع الحبيسة وراءه.. كلّ شيء يتداعى لإعلان حالةِ حزن على الذّات، لكنّ الغضب يقف كنمْر متربّص، يزمجر: مَن يجروء على انتهاك مساحاتِ سطوتي؟! أنا ما زلتُ ها هنا، أنا سيدُ الموقف..

زمجرة صامتة، مكبوتة، الغضبُ المسربل بسلسالِ الأنَفَة والنُّبل يعبّر عن ذاته؟!

ارحلْ أيها النّمر الجريح وغادرني، سأكسر قيودك، أريد التحرّر والخروج من أتون الغضب، أريد أن أحزن.. أنتحب.. أعلن النكبة.. وأنكّس الأعلام.. وألبس ثوب الحداد على تلك المعاني الجميلة.. الزائفة.. الخادعة... ثمّ أعودُ بعدها للحياة.

خرجتُ من المستشفى بعد يومين، قال الطبيب:

ـ لقد أصيبتْ بتقلصات شديدة وانقباضِ صدر، وخللٍ في التنفس مُبهَم الأسباب!

لم يعطني أيّة أدوية، قال لي قبلَ أن أغادر:

ـ إن عاودتك هذه الحالة؛ فارجعي لنجري لك المزيدَ من الفحوصات.

أردت العودةَ إلى البيت بأسرع ما يمكن، كنت متلهّفة لقراءة أجندة غسّان. بعد أن انتهيت من قراءتها ضحكتُ من أعماقي، شعرت بخفّة روح وتحرّر، كتبتُ له ردًّا:

ـ أنت أجبنُ ممّا كنت أتوقّع، وأشدّ قسوة وظلماً مِن كلّ الناس الذين عرفتهم في حياتي، قبل أن أقرأ أجندتك وأتعرف على غسق، تقبّلت على مضض لومَك الشديد لي، مع أني كنت الضحية، أنا لست مُذنبة، ولم أنوِ خداعك يا غسّان، كنت أخطّط بالفعل لمصارحتك، لكنّك تسرّعت باتّخاذ قرارك قبل أن تسمع مني!

هل تدري لماذا قلتُ بأنّك جبانٌ وظالم؟! لأنّك قرّرت الهروب، ولأنّك لم تستطعْ إخباري بقصة غسق..!

وأنت ظالمٌ وقاس؛ لأنّك حكمت عليّ قبل أن تسمع مني.. لقد خيّبت أملي فيك يا عزيزي..

كنتَ تدّعي بأنّك متحرّر الفكر، ومستقلّ، وها أنت ذا تتصرّف بعقلية والد زينب وشقيقها الذي قتلها ظلماً، تنتقدُ ظلم المجتمع للإناث، ثمّ تشعرُ بالخزي والعار لأنّك كنتَ في يوم ما أنثى بالخطأ!

تتذمّر من عدم نسيان المجتمع لغسق، وأنت تبدي العجزَ عن نسيان كمال!

لقد اكتشفتُ كمْ أنت متناقض! وكمْ أنت أناني!

تلومني على اختفاءِ روح الحياة وكمال، تريدُ الاحتفاظ بالجميع معًا، تريد الاستحواذ على كلّ شيء!!؟ الحياة لا تعطينا دومًا كلّ ما نريد..

كنتُ على وشْك كتابة نهايةٍ لروايتي، عندما قرأت رسالتك توهّمت لوهلة بأني سأجعلها نهايةً مأساوية؛ لكن لا، لن أفعلَ ذلك؛ بل سوف أجعلها بدايةً سعيدة لحياتي... لقد تخلّصت من قيد حبّي الجنوني لك، شفيت من سقم هواك بعدَ أن رأيتك على حقيقتك.

أنت مثل كلّ الآخرين، ضيّق الأفق، أسيرٌ لأُطرِ مجتمعك القاسية.. أناني.. متضخّم الذات. اذهب حيثما شئت يا غسّان، لم أعدْ أرغبُ في رؤيتك!

أرسلتُ هذه العبارات القاسية لغسّان، وشعرت بانشراح صدرٍ بعد ذلك، وغمرني إحساسٌ بالانتشاء..

قرأ غسّان رسالتي ولم يردّ عليها!

لم أنتظرْ ردًّا، ولم آبَه لصمتهِ، لقد ثأرت لنفسي!!

العودة...

أعيش حالةً من اللاشعور، روحي معتكفةٌ في فراغ مَتاهات، في صحراء اللاشيء..

هدوءٌ ممضّ، خدر.. غريب.. يسري إلى نهايات أعصابي، تيقّنت- لوهلة- بأنّه لو غرز

أحدُهم دبوسًا في جسدي؛ فلن أحسّ بشيء..!

تمنّيت لمرّات عدّة أن يغرزَ أحدُهم ذلك الدّبوس في نخاعي ليعود لي الشعور..

يا له من موتٍ فريد؛ إحدى صور انعزال الذّات الواعية عن الذّوات الأخرى، ليس لي حيلة إلّا أن أستسلمَ لهذا النزوح الجبري، وأعيشَ بين الناس بجزءٍ ضئيل من وعيي.. أصغي.. أتكلم.. وقد أضحك؛ لكني أبقى عاجزةً عن البكاء، وأنا أسيرة لهذه الحالة الغريبة، والتي تأقلمتُ معها بسرعة!

أخذت أتعامل مع مفردات الحياة بهذا الجزءِ اليسير المتبقّي مني.. بخفوتِ رغبة من الجزء الأخير المتبقي.. من قدرتي على الإحساس

بالوجود، والمقاوم لمدّ النزوح. وأمّا بقية أجزائي؛ فغائبة في منطقة برزخيّة مخيفة.

شخصٌ واحد فقط أمكنَه أن يفعل بي هذا، قذفَ بي إلى منطقة الغياب المؤلمة.. الممزّقة، المُحيّرة ثمّ توارى.. شخصٌ كان هو الأقرب إلى قلبي، هو فقط مَن استطاع أن يهوي بي إلى قاعِ الألم، لكنْ بعدها، قد يصبح هو ذاتُه أبعدَ إنسان عن قلبي!

لقد ملّني هذا الكرسي القديم، وسخنت مقعدتي من طول جلوسي عليه، طقطقة اهتزازه تعزف تحتي برتابة.. وحدي مِن بين شقيقاتي مَن تحبّ الاحتفاظ بالأشياء حتى تغدوا عتيقة.. ألعابي يوم كنتُ طفلة، أقلامٌ ملوّنة جفّت، رسومات بهتت، صورٌ لشخصيات كرتونية، كراريس مهلهلة!

أشتمّ رائحةَ الزمن في أجواءِ حجرة نومي، كلّ شيء هنا بالٍ عدا تلك الستائر البيضاء الحريرية، يحرّكها حفيفُ هواء بارد؛ فتندفع حتى تلامسَ وجهي، ثمّ تعود لتسكن على نافذةٍ تطلّ على حدائق الحي الغَنّاء، مشهدٌ يبعث في النفس البهجة، لكن ليس في نفسي، ربما لن يحدث لي هذا بعد اليوم..

أحسّ بأني ولجت للمستقبل، طويت عقودَ شبابي وشخْتُ فجأة، كم يرعبني التفكير في الغد المجهول، يتيبّس شعوري حين تقذفني

ذاكرة المعرفة إلى هناك، أرى كلّ شيء في الصورة مظلمًا عدا خيال امرأة؛ هي أنا في قادم الأيام!

عندما أرى علاقة أمّي بأبي، أراقبهما من طرفٍ خفي وهو يغازلُها، يمدّ يدَه ويعابث مواطن الفتنة فيها، يقبّلها ويعانقها بحبّ، يخرجان للتنزّه معًا، يسهران أمام التلفاز لمتابعة برنامج محبّب لكليهما، يستمتعان بكلّ مُفردة من مُفردات الحياة معًا، يغادرني بعضُ خوفي من المستقبل، ويداعبني حلمٌ أن يكرّر التاريخ قصة حبّ والديّ معي أنا وغسّان.

كتبت له تلك الرسالة الغاضبة، ثمّ عجبتُ كيف قلت له كلّ ذلك؟!

يبدو أنّ طاقة الغضب جعلتني فظّة غليظة، قرار الكراهية الكاذبة جعلني باردة، غير مبالية بردّة فعله، الشيء المُفجع في كلّ ما حدث، هو أنّي تغيرت لدرجة كبيرة بسبب ردّة فعل غسّان القاسية!

قلتُ لكم في بداية الحكاية بأنّي فتاة لطيفة، وفي غاية الرّقة والجَمال الروحي، اعذروني؛ فلقد صرتُ جامدة الشعور، شرسة، برزتْ لي مخالب حادّة لم تكن موجودة..!

مَن هو المَلوم؟ غسّان أم أنا، أم المجتمع الذي تربّينا فيه، أم هو القدر؟! لستُ أدري، ولست مهتمّة لمعرفة الإجابة، أنا أعيش الآن بوجدانٍ جامد..!

سوف أسافر غدًا صباحًا إلى بلدي، برفقة شريف ووالده، سأجمع كلّ أشيائي هناك، وأرجع إلى برلين؛ لأبدأ مِن جديد، وأعيش بين أحضان أسرتي المحبّة.

ستتساءلون حتمًا: هل غادر حبّ غسّان قلبي؟

بالتأكيد لا، قرأت مرّة بأنه عندما نبدأ بالضحك ممّا كنا عليه أثناء حبّنا؛ فإنّ الحبّ يكون قد غادرنا، لكنّني لم أبدأ بالضحك بعدُ ممّا كان بيني وبين غسّان؛ بل أني لا أفعل شيئًا سوى استعذاب اجترار ذكرياتي معه، المشكلة أنّنا لم نختلف، لم يجرحني، لم يؤذني بشيء، بقي لطيفًا معي، محبًّا لي طوالَ الوقت، كيف لي تخيّلُ الحياة بدونه، كيف يغيب عني هكذا فجأة؟!

تُرى هل سيفعلها حقًّا، هل سيهربُ بعيدًا كما قال لي في رسالتِه، كيف أمكنه نسياني بهذه السرعة..؟! هو معتادٌ على ذلك، احتلّت قلبَه ثمّ غادرته فتياتٌ عدة، عشقَ وملّ ونسيَ مرارًا، سيذهب بعيدًا ويعيش قصصَ حبّ عديدة، وسيتركني متخشّبة على مقصلة الحيرة والانتظار! ليته منحني أسبابًا كافية لأكرهه، أو ليتني طعنتُه بقوّة لدرجة أنْ أخجل من مجرّد التفكير في رؤيته، أو ليتَه يعود..

حتّى متى سيبقى صامتًا، لماذا لا يردّ على رسالتي؟ لماذا لا يكيلُ لي الشتائم؟ لماذا يبقى مهذّبًا؟ ليته يعلم بأنه يخنقني ببطء، بأكفٍّ مخمليّة!!

في الصباح، بعد أن ودّعت والديّ وشقيقاتي، وأنا في طريقي نحو المطار ظللتُ أفكّر في غسّان، وضعت الهاتف الجوّال بين يدي، لم أكفّ لحظة عن توهّم بأنه سوف يرن، سيتصل بي غسّان ليقول لي بأنه لا يزال يحبّني، يريدني، ينتظر عودتي، يشتاق لرؤيتي!

عندما أقلعتِ الطائرة حلّقت معها أحلامي من جديد.. قد تحدثُ المعجزة وأجدُه في انتظاري.. لنسامح أنفسَنا ونغادر مخاوفَنا، نقف أمام المجتمع بشجاعة، نتزوّج وننجب أبناء، ونعيش معًا في سعادةٍ وسرور؛ حتى نكبرَ ونشيخَ، ونروي حكايتَنا لأحفادنا!

تمّت.

تعْز

٢٨/ ١١/ ٢٠١٦م